محمد الغزالى

خلق المسلم

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

جميع الحقوق محفوظة
لدار الريان للتراث
القاهرة

محمد الغزالي

خلق المسلم

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

جميع الحقوق محفوظة
لدار الريان للتراث
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذه نقول من الكتاب والسنَّة توجِّه المسلم إلى الفضائل التى يتم بها دينه ، وتصْلح بها دنياه وأخراه جميعاً .

مَهَّدْتُ لها وعقبْتُ عليها بتفاسير موجزة ، تعالج ما انتاب المسلمين فى هذه الأعصار من انحراف وهبوط ، نتيجة ما أصاب أخلاقهم من عُقَدٍ وعِلَل . . . واكتفيت بما سُقْتُ من آيات ، وذكرت من أحاديث . فلم أستطرد إلى إيراد الشواهد الأخرى من أقوال الأئمة ، وحِكم العلماء ، وعِظاتِ العُبَّاد والمتأدبين - على كثرتها فى تراثنا القديم - لأنى قصدت أن نرجع إلى الشريعة وحدها ، وأن أعرض جانب التربية منها ، على أنه توجيه إلهى ، يُطَالب المسلم بالتزامه ، ويعتبر مقصراً فى حق الله ، حين يُعرض عنه . .

وفرقٌ بين المطالبة بأدَبٍ مّا على أنه خلق عام ، وبين التكليف به على أنه دين كسائر العبادات المفروضة فى هذا الدين .

* * *

وقد درسنا ، فى مراحل ثقافتنا ، فلسفة الأخلاق ، ومناهج الفلاسفة ومقاييسهم لضبط سلوك البشر . . .

وأعجبنا بما فيها من فكر عميق ، وتلمُّس للحقيقة ، واستشراف للمثل العليا . ولسنا نغمط فضل أحدٍ نَشَدَ الخير للناس ، واجتهد فى إنارة السبل أمامهم . . .

بيد أننا نَلفِت أنظار المنصفين إلى أساليب التربية الناجعة ، والأخلاق الرائعة التى جاء بها صاحب الرسالة الخاتمة ، ونقل بها العالم من الغىّ إلى الرشاد . وسوف يرون أن فى الإسلام كنوزاً حافلة بالنفائس ، دونها ما ورث الناس من فلسفة اليونان والرومان .

قيل لعالم مسلم : هل قرأت أدب النفس « لأرسطو » ؟ فقال : بل قرأت أدب النفس لمحمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام . . . !

لقد قرأنا أدب النفس لأرسطو ولأمثاله من الفلاسفة ، وقرأنا أدب النفس لمحمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام ، فوجدنا ما تخيَّله الأولون واصطنعوا له بعد العناء صُوراً بعضها كامل وبعضها منقوص .

وجدناه قد تحول إلى حقائق حية تجسّد فيها الكمال وأضحى سيرة رجل ، وأدب أمة ، وشعائر دين ضخم .

ذلكم هو أدب النفس لمحمد بن عبدالله ﷺ .

نحمد الله إذ وفقتنا الأقدار الميمونة لدراسة بعض معالمه ، وإتاحة عَرْضها فى إطار جديد .

* * *

وهذا الكتاب يعتبر حلقة ثانية بعد كتابنا « عقيدة المسلم » .

وقد بدأناه بمقدمة عن الأخلاق فى الإسلام ، وصلتها بالتعاليم والعبادات الأخرى . وعن طبيعة النفس وآثار البيئة . . . الخ .

ثم ذكرنا ما أمر الإسلام به من فضائل ، ولم نقصد إلى ترتيب معين فى تقديم فضيلة على أخرى .

وآثرنا فى هذا الكتاب أن نذكر مراجع النصوص . على عكس ما ألِف القارىء منا فى الكتب السابقة !.

ونحن نستشهد بالأحاديث المنسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا كانت من قبيل « الصحيح » لذاته أو لغيره ، و « الحسن » لذاته أو لغيره ، كما يقول علماء المصطلح .

وتلك خطة تحرَّيناها ، سواء ذكرنا المرجع ، أم لم نذكره .

والسنن المنقولة هنا أثبتناها كما اقتبسناها من كتابَىْ « تيسير الوصول »

و « الترغيب والترهيب » ، واكتفينا بذكر مصدر واحد للحديث إذا كانت مصادره كثيرة . .

ولم نبذل جهداً يذكر فى هذا التأليف ، أكثر من أننا استفدنا كتابة الخير ويسرناه للمطالعين .

وبقى الجهد الأكبر الذى يتحمله الكاتب والقارىء على سواء ، وهو حب الخير والسير على سننه القويم .

محمد الغزالى

المقدمـــة

أركان الإسلام ومبادىء الأخلاق

لقد حدَّد رسول الإسلام الغاية الأولى من بعثته ، والمنهـاج المبيـن فى دعـوته بقوله : « إنما بُعِثتُ لأتمم مكارم الأخلاق[١]» .

فكأن الرسالة التى خطَّت مجراها فى تاريخ الحياة ، وبذل صاحبها جهداً كبيراً فى مدّ شعاعها وجمع الناس حولها ، لا تنشد أكثر من تدعيم فضـائلهم ، وإنـارة آفاق الكمال أمام أعينهم ، حتى يَسْعَوْا إليها على بصيرة . .

والعبادات التى شرعت فى الإسلام واعتبرت أركاناً فى الإيمان به ليست طقـوساً مبهمة من النوع الذى يربط الإنسان بالغيوب المجهـولة ، ويـكلفه بـأداء أعمـال غامضة وحركات لا معنى لها . كلا كلا فالفرائض التـى ألـزم الإسـلام بهـا كلَّ منتسب إليه ، هى تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيـا بـأخلاق صـحيحة ، وأن يظل مستمسكا بهذه الأخلاق ، مهما تغيرت أمامه الظروف . .

أنها أشبه بالتمارين الرياضية التى يُقبِل الإنسان عليها بشـغف ، ملتمسـاً مِـنَ المداومة عليها عافية البدن وسلامة الحياة .

والقرآن الكريم والسنة المطهرة ، يكشفان - بوضوح - عن هذه الحقائق .

فالصلاة الواجبة عندما أمر الله بها أبان الحكمة من إقامتها ، فقال :

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [٢]

فالإبعاد عن الرذائل ، والتطهير من سوء القول وسـوء العمـل ، هـو حقيقـة الصلاة ، وقد جاء فى حديث يرويه النبىّ عن ربه : « إنمـا أتقبـل الصـلاة ممـن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل على خلقى ، ولـم يَبِـت مُصِرًّا على معصـيتى ،

---

(١) مالك

(٢) العنكبوت . ٤٥

وقطع النهار فى ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب[١] » .

والزكاة المفروضة ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب ، بل هى - أولا - غرس لمشاعر الحنان والرأفة ، وتوطيد لعلاقات التعارف والألفة بين شتى الطبقات .

وقد نص القرآن على الغاية من إخراج الزكاة بقوله :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [٢]

فتنظيف النفس من أدران النقص ، والتسامى بالمجتمع إلى مستوًى أنبل هو الحكمة الأولى .

ومن أجل ذلك وسَّعَ النبىّ ﷺ فى دلالة كلمة الصدقة التى ينبغى أن يبذلها المسلم فقال : « تبسمك فى وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهْيُكَ عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة ، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك لك صدقة ، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة[٣] » .

وهذه التعاليم فى البيئة الصحراوية التى عاشت دهوراً على التخاصم والنزق تشير إلى الأهداف التى رسمها الإسلام ، وقاد العرب فى الجاهلية المظلمة إليها .

وكذلك شرع الإسلام الصوم ، فلم ينظر إليه على أنه حرمان مؤقت من بعض الأطعمة والأشربة ، بل اعتبره خطوة إلى حرمان النفس دائماً من شهواتها المحظورة ونزواتها المنكورة .

وإقراراً لهذا المعنى قال الرسول ﷺ : « من لم يَدَعْ قول الزُّور ، والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه[٤] » !!

وقال : « ليس الصيام من الأكل والشرب ، إنما الصيام من اللغوِ والرَّفث فإن سابك أحد ، أو جهل عليك ، فقل إنى : صائم[٥] » .

(١) البزار (٢) التوبة . ١٠٣ (٣) البخارى
(٤) البخارى (٥) ابن خزيمة

والقرآن الكريم يذكر ثمرة الصوم بقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١)

وقد يحسب الإنسان أن السفر إلى البقاع المقدسة ـ الذى كلف بـه المستطيع واعتبر من فرائض الإسلام على بعض أتباعه يحسب الإنسان هذا السفر رحلة مجردة عن المعانى الخلقية ، ومثلا لما قد تحتويه الأديان أحياناً من تعبدات غيبيـة .

وهذا خطأ ، إذ يقول الله تعالى ـ فى الحديث عـن هـذه الشـعيرة :

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٢)

* * *

هذا العرض المجمل لبعض العبادات التى اشتهر بها الإسلام ، وعـرفت على أنها أركانه الأصيلة ، نستبين منه متانة الأواصر التى تربط الدين بالخلق .

إنها عبادات متباينة فى جوهرها ومظهرها ، ولكنها تلتقـى عنـد الغـاية التـى رسمها الرسول ﷺ فى قوله « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

فالصلاة والصيام والزكاة والحج ، وما أشبه هـذه الـطاعات مـن تعـاليم الإسلام ، هى مدارج الكمال المنشود ، وروافد التطهر الذى يصـون الحيـاة ويعلى شأنها . ولهذه السجايا الكريمة ـ التى ترتبط بها أو تنشـأ عنهـا ـ أعـطيت منـزلة كبيرة فى دين الله .

فإذا لم يستفد المرء منها ما يزكى قلبه ، وينق لبه ! ويهذب بالله وبـالناس صـلته فقد هوى -

قال الله عز وجل ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾

---

(١) البقرة . ١٨٣ (٢) البقرة . ١٩٧

﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ (١)

ضعف الخلق دليل على ضعف الإيمان

الإيمان قوة عاصمة عن الدنيا ، دافعة إلى المكرمات ومن ثَمَّ فإن الله عندما يدعو عباده إلى خير أو ينفرهم من شر ، يجعل ذلك مقتضى الإيمان المستقر فى قلوبهم . وما أكثر ما يقول فى كتابه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ثم يذكر - بَعْدُ - ما يُكَلِّفُهُمْ به : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾(٢) مثلا . .

وقد وضح صاحب الرسالة أن الإيمان القويَّ يلدُ الخلق القوى حتما ، وأن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان ، أو فقدانه ، بحسب تفاقم الشر أو تفاهته . .

فالرجل الصفيق الوجه ، المعوجُّ السلوك الذى يقترف الرذائل غير آبه لأحد . يقول رسول الإسلام فى وصف حاله : « الحياء والإيمان قرناء جميعاً فإذا رُفِعَ أحدهما رفع الآخر(٣) » !.

والرجل الذى ينكب جيرانه ويرميهم بالسوء ، يحكم الدين عليه حكماً قاسياً ، فيقول فيه الرسول ﷺ : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن والله لا يؤمن . قيل : مَنْ يا رسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه(٤) »!! .

وتجد الرسول ﷺ - عندما يعلم أتباعه الإعراض عن اللغو ، ومجانبة الثرثَرة والهذر - يقول : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت(٥) » .

وهكذا يمضى فى غرس الفضائل وتعهدها حتى تؤتى ثمارها ، معتمداً على صدق الإيمان وكماله . . .

---

(١) طه . ٧٤ - ٧٦ (٢) التوبة . ١١٩ (٣) الحاكم والطبرانى

(٤) البخارى (٥) البخارى

على أن بعض المنتسبين إلى الدين ، قد يستسهلون أداء العبادات المطلوبة ، ويظهرون فى المجتمع العام بالحرص على إقامتها وهم - فى الوقت نفسه - يرتكبون أعمالا يأباها الخلق الكريم والإيمان الحق . .

إن نبىَّ الاسلام توعَّد هؤلاء الخالطين : وحذَّر أمته منهم .

ذلك أن التقليد فى أشكال العبادات يستطيعه مَنْ لم يُشرَب رُوحَها ، أو يرتفع لمستواها .

ربما قدر الطفل على محاكاة أفعال الصلاة وترديد كلماتها . .

ربما تمكن الممثل من إظهار الخضوع وتصنع أهم المناسك . .

لكن هذا وذاك لا يغنيان شيئاً عن سلامة اليقين ، ونبالة المقصد .

والحكم على مقدار الفضل ورَوْعة السلوك يرجع إلى مسبار لا يخطىء ، وهو الخلق العالى !

وفى هذا ورد عن النبى أن رجلا قال له : يا رسول الله . إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها فقال : « هى فى النار » ثم قال : يا رسول الله فلانة تذكر من قلة صلاتها وصيامها ، وأنها تتصدق « بالأثوار من الأقط » - بالقطع من الجبن - ولا تؤذى جيرانها . قال : « هى فى الجنة[1] »! .

فى هذه الإجابة تقدير لقيمة الخلق العالى وفيها - كذلك - تنويه بأن الصدقة عبادة اجتماعية ، يتعدى نفعها إلى الغير ، ولذلك لم يفترض التقلل منها كما افترض التقلل من الصلاة والصيام ، وهى عبادات شخصية فى ظاهرها .

إن رسول الإسلام لم يكتف بإجابة على سؤال عارض ، فى الإبانة عن ارتباط الخلق بالإيمان الحق ، وارتباطه بالعبادة الصحيحة ، وجعله أساس الصلاح فى الدنيا والنجاة فى الأخرى .

إن أمر الخلق أهم من ذلك ، ولابد من إرشاد متصل ، ونصائح متتابعة

---

(١) أحمد

ليرسخ فى الأفئدة والأفكار ، أن الإيمان والصلاح والأخلاق ، عناصر متلازمة متماسكة ، لا يستطيع أحد تمزيق عراها .

لقد سأل أصحابه يوماً « أتدرون من المفلس قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار[١] » .

ذلك هو المفلس : إنه كتاجر يملك فى محله بضائع بألف ، وعليه ديون قدرها ألفان ، كيف يعد هذا المسكين غنيا ؟

والمتدين الذى يباشر بعض العبادات ، ويبقى بعدها بادى الشر ، كالح الوجه ، قريب العدوان كيف يحسب أمرأ تقياً ؟

وقد روى أن النبى ضرب لهذه الحالات مثلا قريباً . قال : « الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد ، والخلق السوء ، يفسد العمل كما يفسد الخل العسل[٢] » .

فإذا نمت الرذائل فى النفس ، وفشا ضررها ، وتفاقم خطرها ، انسلخ المرء من دينه كما ينسلخ العريان من ثيابه ، وأصبح ادعاؤه للايمان زوراً ، فما قيمة دين بلا خلق ؟ وما معنى الإفساد مع الانتساب لله ؟

وتقريراً لهذه المبادىء الواضحة فى صلة الإيمان بالخلق القويم ، يقول النبى الكريم : « ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صام وصلى وحج واعتمر ، وقال إنى مسلم : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان[٣] » .

وقال فى رواية أخرى : « آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم » ! .

(١) مسلم (٢) البيهقى (٣) مسلم

وقال كذلك : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر[١] » .

نحو عالم أفضل

ظهر من هذه التعاليم أن الإسلام جاء لينتقل بالبشر خطوات فسيحات إلى حياة مشرقة بالفضائل والآداب ، وأنه اعتبر المراحل المؤدية إلى هذا الهدف النبيل من صميم رسالته ، كما أنه عد الإخلال بهذه الوسائل خروجاً عليه وابتعادا عنه .

فليست الأخلاق من مواد الترف ، التى يمكن الاستغناء عنها ، بل هى أصول الحياة التى يرتضيها الدين ، ويحترم ذويها ..

وقد أحصى الإسلام بعدئذ الفضائل كلها ، وحث أتباعه على التمسك بها واحدة واحدة .

ولو جمعنا أقوال صاحب الرسالة فى التحلى بالأخلاق الزكية لخرجنا بسَفْر لا يُعرف مثله ، لعظيم من أئمة الاصلاح .

وقبل أن نذكر تفاصيل هذه الفضائل ، وما ورد فى كل منها على حدة ، نثبت طرفا من دعوته الحارَّة ، إلى محامد الأخلاق ، ومحاسن الشيم :

عن أسامة بن شريك قال : كنا جلوساً عند النبى ﷺ كأنما على رءوسنا الطير ، ما يتكلم منا متكلم ، إذ جاءه أناس فقالوا : من أحبُّ عباد الله إلى الله تعالى ؟ قال : « أحسنهم خلقاً[٢] » .

وفى رواية « ما خَيْرُ ما أعطى الإنسان ؟ قال : خلق حسن[٣] » .

وقال « إن الفحش والتفحُّش ليسا من الإسلام فى شىء ، وإن أحسن الناس إسلاماً ، أحسنهم خلقاً[٤] » .

وسئل « أى المؤمنين أكمل إيماناً ؟ قال : أحسنهم خلقا[٥] » .

---

(١) البخارى (٢) الطبرانى (٣) ابن حبان (٤) الترمذى (٥) الطبرانى

وعن عبدالله بن عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا أخبركم بأحبكم إلَّى ، وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة ؟ - فأعادها مرتين أو ثلاثاً - قالوا : نعم يا رسول الله قال : أحسنكم خلقاً(١) » .

وقال « ما من شيء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، إن الله يكره الفاحش البذىء . وإن صاحب حسن الخلق ليَبْلُغُ به درجة صاحب الصوم والصلاة(٢) » .

هذا التصريح لو صدر عن فيلسوف يشتغل بشئون الإصلاح الخلقى فحسب لما كان مستغرباً منه ، إنما وجه العجب أن يصدر عن مؤسس دين كبير . والأديان - عادة - ترتكز فى حقيقتها الأولى على التعبد المحض .

ونبى الاسلام دعا إلى عبادات شتى ، وأقام دولة ارتكزت على جهاد طويل ضد أعداء كثيرين ، فإذا كان - مع سعة دينه ، وتشعُّب نواحى العمل أمام أتباعه - يخبرهم بأن أرجح ما فى موازينهم يوم الحساب ، الخلق الحسن . فإن دلالة ذلك على منزلة الخلق فى الإسلام لا تخفى . .

والحق أن الدين إن كان خلقاً حسناً بين إنسان وإنسان ، فهو فى طبيعته السماوية صلة حسنة بين الإنسان وربه ، وكلا الأمرين يرجع إلى حقيقة واحدة .

إن هناك أدياناً تبشر بأن اعتناق عقيدة ما ، يمحو الذنوب ، وأن أداء طاعة معينة يمسح الخطايا .

لكن الإسلام لا يقول هذا ، إلا أن تكون العقيدة المعتنقة محوراً لعمل الخير . وأداء الواجب ، وأن تكون الطاعة المقترحة غسلا من السوء ، وإعداداً للكمال المنشود ، أى أنه لا يمحق السيئات إلا الحسنات التى يضطلع بها الإنسان ، ويرقى صعداً ، إلى مستوى أفضل .

وقد حرص النبى ﷺ على توكيد هذه المبادىء العادلة ، حتى تتبينها أمته جيداً ، فلا تهون لديها قيمة الخلق ، وترتفع قيمة الطقوس .

---

(١) أحمد (٢) أحمد

عن أنس قال رسول الله ﷺ : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ، وأشرف المنازل . وإنه لضعيف العبادة . وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة فى جهنم[١] » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » وفى رواية : « إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجات قائم الليل وصائم النهار[٢] » .

وعن ابن عمر : سمعت رسول الله يقول : « إن المسلم المسدَّد[٣] ليدرك درجة الصوام القوام بآيات الله ، بحسن خلقه وكرم طبيعته[٤] » .

وروى أبو هريرة عن النبىِّ ﷺ : « كرم المؤمن دينه ، ومروءته عقله ، وحسبه خلقه[٥] » .

وروى عنه أبو ذر : « قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان ، وجعل قلبه سليما ، ولسانه صادقاً ، ونفسه مطمئنة ، وخليقته مستقيمة[٦] » .

* * *

وحسن الخلق لا يؤسس فى المجتمع بالتعاليم المرسلة ، أو الأوامر والنواهى المجردة ، إذ لا يكفى فى طبع النفوس على الفضائل أن يقول المعلم لغيره : أفعل كذا ، أو لا تفعل كذا فالتأديب المثمر يحتاج إلى تربية طويلة ، ويتطلب تعهداً مستمراً .

ولن تصلح تربية إلا إذا اعتمدت على الأسوة الحسنة ؛ فالرجل السيىء لا يترك فى نفوس من حوله أثراً طيباً .

وإنما يتوقع الأثر الطيب ممن تمتدُّ العيون إلى شخصه ، فيروعها أدبه ، ويسبيها نبله ، وتقتبس - بالإعجاب المحض - من خلاله ، وتمشى بالمحبة الخالصة فى آثاره .

---

(١) الطبرانى (٢) أبو داود (٣) التسديد: الاقتصاد فى العبادة
(٤) أحمد (٥) الحاكم (٦) ابن حبان

بل لابد - ليحصل التابع على قدر كبير من الفضل - أن يكون فى متبـوعه قـدْرٌ أكبر ، وقسطٌ أجل . .

وقد كان رسول الإسلام بين أصحابه مثلا أعلى للخلق الذى يدعو إليه ، فهـو يغرس بين أصحابه هذا الخلق السامى ، بسيرته العـاطرة ، قبـل أن يغـرسه بمـا يقول من حكم وعظات .

عن عبدالله بن عمرو قال : إن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ، وكان يقول : « خياركم أحاسنكم أخلاقاً[١] » .

[illegible] قال : خدمت النبـى ﷺ عشر سـنين ، والله مـا قـال لى : أفٍّ قَطُّ ، ولا قال لشيء : لِمَ فعلت كذا ؟ وهَلَّا فعلت كذا[٢] ؟ .

وعنه : إن كانت الأَمَةُ لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق بـه حيـث شـاءت ، وكَان إذا استقبله الرجل فصافحه ، لا ينزع يده من يده ، حتى يكون الرجل ينزع يده ولا يصرف وجهه عن وجهه ، حتى يكون الرجل هو الذى يصرفه ، ولـم يُـرَ مقدما ركبتيه بين يدى جليس له[٣] - يعنى أنه يتحفظ مع جلسائه فلا يتكبر - .

وعن عائشة قالت : ما خُير رسول الله ﷺ بيـن أمـرين إلا اختـار أيسرهمـا ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه . وما انتقم رسـول الله ﷺ لنفسه فى شيء قط ، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم ، ومـا ضرب رسـول الله ﷺ شيئاً قط بيده ، ولا امرأة ولا خادماً ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله تعالى[٤] » .

وعن أنس : كنت أمشى مع رسول الله وعليه بُرْد غليـظ الحـاشية ، فـأدركه أعرابىٌ فجذبه جذبة شديدة ، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله وقـد أثـرَتْ بها حاشية البُرْدِ من شدَّة جذبته ، ثم قال : يا محمد مُرْ لى مـن مـال الله الـذى عندك ! فالتفت إليه رسول الله ، وضحك ، وأمر له بعطاء[٥] .

وعن عائشة : قال رسول الله : « إن الله رفيـق ، يحـب الـرفق ، ويعـطى

---

(١) البخارى (٢) مسلم (٣) الترمذى
(٤) مسلم (٥) البخارى

على الرفق ما لا يعطى على العنف ، وما لا يعطى على سواه »[١]

وفى رواية : « إن الرفق لا يكون فى شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » .

وعن جرير أن النبى ﷺ قال : « إن الله عز وجل ليُعْطى عَلَى الرفق ما لا يعطى على الخرَق - الحُمْق - وإذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق ، ما من أهل بيت يُحْرَمون الرفق إلا حُرِمُوا الخير كله[٢]» .

وسئلت عائشة : ما كان رسول الله يفعل فى بيته ؟ قالت : « كان يكون فى مهنة أهله[٣] فإذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج إلى الصلاة[٤] » .

وعن عبدالله بن الحارث : ما رأيت أحداً أكثر تَبَسُّماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم[٥] .

وعن أنس : كان رسول الله أحسن الناس خلقاً ، وكان لى أخ فطيم ، يسمى أبا عُمَير ، لديه عصفور مريض اسمه النُّغَير ، فكان رسول الله يلاطف الطفل الصغير ويقول له : يا أبا عمير ، ما فعل النغَير ![٦] .

والمعروف فى شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان سمحاً لا يبخل بشيء أبداً ، شجاعاً لا ينكص عن حق أبداً ، عدلا لا يجور فى حكم أبداً ، صَدُوقاً أميناً فى أطوار حياته كلها .

وقد أمر الله المسلمين أن يقتدوا به فى طيب شمائله وعريق خلاله فقال :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [٧]

قال القاضى عياض :

كان النبى صلى الله عليه وسلم أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس ، لقد فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق ناس قِبَلَ الصَّوْت ، فتلقاهم رسول

---

(١) مسلم (٢) الطبرانى (٣) أى خدمتهم
(٤) مسلم (٥) الترمذى (٦) البخارى (٧) الأحزاب ٢١

الله راجعاً ، قد سبقهم إليه واستبرأ الخبر ، على فرس لأبى طلحة عُرْى ، والسيف فى عنقه ، وهو يقول : لن تُرَاعوا .

وقال على رضى عنه : إنا كنا - إذا حَمِى البأس واحْمَرَّتِ الْحَدَق - نتقى برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى عدو منه .

وعن جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال : ما سئل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : لا .

وقد قالت له خديجة : « إنك تحمل الكَلَّ وتُكْسب المعدوم ، وتُعين على نوائب الحق » .

وَحُملَ إليه سبعون ألف درهم ، فوضُعتْ على حصير ، ثم قام إليها يقسمها ، فما رد سائلاً ، حتى فرغ منها .

وجاءه رجل فسأله ، فقال له : ما عندى شيء ، ولكن ابتعْ علَّ ، فإذا جاءنا شيء قضيناه ، فقال له عمر : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه ! فكره النبى ﷺ ذلك ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا ، فتبسم ﷺ ، وعُرف البشر فى وجهه ، وقال : بهذا أمرْتُ .

وكان رسول الله ﷺ يؤلف أصحابه ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويولِّيه عليهم .

ويحذر الناس ويحترس منهم ، من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه .

يتفقد أصحابه ويعطى كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه .

مَنْ جالسه ، أو قاربه لحاجة صَابرهُ ، حتى يكون هو المنصرف عنه .

ومَنْ سأله حاجة لم يرده إلا بها ، أو بميسور من القول .

قد وسعَ الناس بسطه وخلقه . فصار لهم أباً ، وصاروا عنده فى الحق سواء .

وكان دائم البِشر ، سهْل الطبع ، ليِّن الجانب ، ليس بفظٍّ ولا غليظ ، وَلا صخَّاب ، وَلا فحاش ، وَلا عتَّاب ، وَلا مدّاح ، يتغافل عما لا يشتهى ، ولا يقنط منه قاصده .

وعن عائشة رضى الله عنها : ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال : لبَّيْكَ .

وقال جرير بن عبدالله رضى عنه : ما حجبنى رسول الله ﷺ منذ أسلمت ، ولا رآنى إلا تبسَّم .

وكان يمازح أصحابه ، ويخالطهم ويجاريهم ؛ ويداعب صبيانهم ويُجلسُهُمْ فى حجْرِه .

ويُجيبُ دعوة الحرِّ والعبد والأمة والمسكين ؛ ويعود المرضى فى أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر .

قال أنس : ما التقم أَحد أذن رسول الله يعنى ، ناجاه فينحى رأسه حتى يكون الرجل هو الذى ينحى رأسه ، وما أخذ أحد بيده فيرسلَ يده حتى يرسلها لآخر . وكان يبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة .

لم يُرَ قطُّ مادًّا رجليه بين أصحابه فيضيق بهما على أحد .

يكرم من يدخل عليه ، وربما بسط له ثوبه ، ويؤثره بالوسادة التى تحته ؛ ويعزم عليه فى الجلوس عليها إن أبى .

ويكنى أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ، ولا يقطع على أحد حديثه ، حتى يتجوَّز فيقطعه بانتهاء أَو قيام .

وعن أنس : كان النبى ﷺ إذا أُتِىَ بهدية قال : اذهبوا بها إلى بيت فلانة ، فإنها كانت صديقة لخديجة ، إنها كانت تحب خديجة (١) .

وعن عائشة قالت : ما غِرْتُ على امرأة ، ما غرتُ على خديجة ، لِما كنت أسمعه يذكرها ، وإن كان ليذبح الشاة فيهديها إلى خلائلها . وأستأذنت عليه أختها

(١) وقد كان ذلك بعد وفاتها .

فارتاح إليها ، ودخلت عليه امرأة فهشَّ لها وأحسن السؤال عنها ، فلما خرجت قال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان .

وكان يصل ذوى رحمه ، من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم .

وعن أبى قتادة : لما جاء وفد النجاشى قامَ النبى ﷺ يخدمهم ، فقال له أصحابه : نكفيك ، فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وإنى أحب أن أكافئهم .

وعن أبى أمامة قال : خرج علينا رسول الله متوكئاً على عصا ، فقمنا له فقال : لا تقوموا كما يقوم الأعاجم ، يعظم بعضهم بعضاً .

وقال : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد ، وكان يركب الحمار ، ويُرْدف خلفه ، ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم ، حيثما انتهى به المجلس جلس .

وحج رسول الله ﷺ على رَحل رَثّ عليه قطيفة ما تسَاوِى أربعة دراهم ، فقال : اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة .

ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين ، طأطأ رأسه على راحلته حتى كاد يمسُّ قادمته تواضعاً لله تعالى .

وكان كثير السكوت لا يتكلم فى غير حاجة ، يُعرض عمن تكلم بغير جميل .

وكان ضحكه تبسما ، وكلامه فَصْلا ، لا فضول فيه ولا تقصير .

وكان ضحك أصحابه عنده التبسم ، توقيراً له واقتداءً به .

مجلسه مجلس حلم وخير وأمانة ، لا تُرْفعُ فيه الأصوات ، ولا تخدَش فيه الحُرَمُ .

إذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رءوسهم الطير .

وإذا مَشى مشى مجتمعاً ، يعرَفُ فى مشيته أنه غير ضجر ولا كسلان .

وقال ابن أبى هالة : كان سكوته على أربع : على الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكر .

وقالت عائشة : كان يحدث حديثاً لو عَدَّه العادُّ أحصاه .

وكان ﷺ يحب الطيب والرائحة الحسنة ، ويستعملها كثيراً .

وقد سيقت إليه الدنيا بحذافيرها ، وترادفت عليه فتوحها ، فأعرض عن زهرتها ، ومات ودرعه مرهونة عند يهودى ، فى نفقة عياله ..!!!

الإنسان بين الخير والشر

الإسلام ـ كسائر رسالات السماء ـ يعتمد فى إصلاحه العام على تهذيب النفس الإنسانية قبل كل شىء ، فهو يكرس جهوداً ضخمة للتغلغل فى أعماقها وغرس تعاليمه فى جوهرها حتى تستحيل جزءاً منها .

وما خلدت رسالات النبيين وكونت حولها جماهير المؤمنين إلا لأن (النفس الإنسانية) كانت موضوع عملها ومحور نشاطها ، فلم تكن تعاليمهم قشوراً ملصقة فتسقط فى مضطرب الحياة المتحركة ، ولا ألواناً مفتعلة . تَبْهَتُ على مرّ الأيام . لا .. لقد خلطوا مبادئهم بطوايا النفس ، فأصبحت هذه المبادىء قوة تهيمن على وساوس الطبيعة البشرية ، وتتحكم فى اتجاهاتها .

وربما تحدثت رسالات السماء عن المجتمع وأوضاعه ، والحكم وأنواعه ، وقدمت أدوية لما يعرو(١) هذه النواحى من علل .

ومع ذلك فالأديان لن تخرج عن طبيعتها فى أعتبار النفس الصالحة هى البرنامج المفصل لكل إصلاح ، والخلق القوى هو الضمان الخالد لكل حضارة .

وليس فى هذا تهوين ولاغضٌ من عمل الساعين لبناء المجتمع والدولة ؛ بل هو تنويه بقيمة الإصلاح النفسىّ فى صيانة الحياة وإسعاد الأحياء .

فالنفس المختلة ، تثير الفوضى فى أحكم النظُم ، وتستطيع النفاذ منه إلى أغراضها الدنيئة ، والنفس الكريمة ، ترقع الفتوق فى الأحوال المختَلَّة ويشرق نُبْلُهَا

---

(١) يعرو : يصيب .

من داخلها ، فتحسن التصرف والمسير ، وسط الأنواء والأعاصير .

إن القاضى النزيه ، يكمل بعدله نقص القانون الذى يحكم به . أما القاضى الجائر فهو يستطيع الميل بالنصوص المستقيمة . وكذلك نفس الإنسان حين تواجه ما فى الدنيا من تيارات وأفكار ، ورغبات ومصالح .

ومن هنا كان الإصلاح النفسيُّ ، الدعامة الأولى لتغليب الخير فى هذه الحياة .

فإذا لم تصلح النفوس أظلمت الآفاق ، وسادت الفتن حاضر الناس ومستقبلهم ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ (١)

ويقول - مُعلِّلا هلاك الأمم الفاسدة - :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (٢)

والإسلام - فى علاجه للنفس ابتغاء إصلاحها - ينظر إليها من ناحيتين :

أن فيها فطرةً طيبة ، تهفْو إلى الخير ، وتُسرُّ بإدراكه ، وتأْسَى للشر ، وتحزن من ارتكابه ، وترى فى الحق امتداد وجودها وصحة حياتها .

وأن فيها - إلى جوار ذلك - نزعات طائشة ، تشردُ بها عن سواء السبيل ، وتزين لها فعل ما يعود عليها بالضرر ، ويُسِفُّ بها إلى مُنْحدَرٍ سحيق .

ولا يهمنا أن نستقصى أصول هذه النزعات السيئة من الناحية التاريخية ، لنعرف أهى طارئة على فطرة الإنسان ، أم مخلوقة معها ، وإنما يهمنا أن هذه وتلك موجودتان فى الإنسان ، تتنازعان قياده ، ومصيرهُ معلق بالناحية التى يستسلم لها .

---

(١) الرعد : ١١ (٢) الانفال : ٥٢ - ٥٣

قال الله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (١)

وعمل الإسلام هو إسداء المعونة الكاملة للانسان ، كى يدعم فطرته ويجلى أشعتها ، ويسير على هديها .

وكى يتخلص كذلك - من وساوس الإثم ! التى تراوده ، وتحاول السقوط به .

وقد وصف الإسلام نفسه بأنه دين الفطرة الخالصة من هذه الشوائب جمعاء قال الله فى كتابه العزيز : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

إن وظيفة العين أن تبصر ، ما لم يلحقها عمى ؛ ووظيفة الأذن أن تسمع ، ما لم يُصبها صَمم ، ووظيفة الفطرة أن تستقيم مع الحق ، وتتدفّع إليه تدفُّع الماء من صبب ، ذلك ما لم يطرأ عليها تشويه ؛ يلوى عِنانها ويثنيها عن وجهتها الأولىٰ إلى الكمال والخير والفضيلة .

وهذه الطوارىء المفسدة للفطرة ، قد تتكوَّن من رواسب القرون الماضية ، أو من تقاليد البيئات الساقطة ، أو من كليهما معاً . وهى شديدة الخطر فيما تجره على الفطرة البشرية من علل ، وجهاد المصلحين الحقيقى يقوم على كفاحها وكسر حدتها ، وإنقاذ الفطرة من غوائلها ، حتى تعود إلى صفائها الأصيل وتؤدى وظيفتها الحقة ، وقد شرح الإسلام طريق ذلك .

فبعد أن تقرأ فى كتاب الله الآية السابقة ، فى أن الدين هو الفطرة ، تقرأ قوله تعالى :

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٣)

الإيمان لا الإلحاد ، والتقوى لا الفجور ، ووحدة المتدينين على ربهم

---

(١) الشمس : ٧ - ١٠ (٢) الروم . ٣٠ (٣) الروم . ٣١ : ٣٢

لا تفرقهم فيه . هذه النصائح هى باب العود بالإنسان إلى فطرته المستقيمة .

وقد كرر القرآن الكريم هذا المعنى فى قوله ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ (١)

ذلك التقويم الحسن ، هو معرفة الحق والاستمساك به ، والسير على مقتضاه . هو الولوع بالفضل والنبل ، ورعايتهما فى منطق المرء مع نفسه ومع الناس ، وهو نشدان الكمال فى نسقه العالى ، وتغليبُه على كل شىء فى الحياة .

بَيْدَ أن كثيراً من الناس ، تثقل بهم أهواؤهم دون هذا المستوى العالى ، فيُخلدون إلى الأرض ، ثم تجمع بهم أهواؤهم المتَّبعة ، فينحدرون إلى مكان سحيق ، وذلك هو أسفل سافلين ، الذى يردهم الله إليه .

هذا الردُّ الالهى ، خاضع لقوانين الهداية والاضلال ، وهى قوانين عادلة دقيقة . ذكرها القرآن الكريم فى قوله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢)

وقوله : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ (٣)

ومن الذى يبقى على تقويمه الحسن ، وينجو من الارتكاس فى الدنيا السافلة ؟ الجواب فى الآية : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ (٤)

وقد علمت أن الخُلق الحسن ، هو الثمرة الدانية للايمان الواضح والعمل الصالح .

* * *

ذلكم موقف الاسلام من فطرة الإنسان الطيِّبة ، ونهجُه فى تدعيمها .

---

(١) التين . ٤ - ٦ . (٢) التوبة . ١١٥ (٣) الأعراف . ١٤٦ (٤) التين . ٦

أما عمله مع طبائع المرء الشريرة الأخرى ، فهو التنبيه إليها ، والعمل على إسلاس قيادها . وجعله خاضعاً ، لتصريف العقل الرشيد ، ومنطق الفطرة الطيبة .

أشار النبىُّ إلى بعض هذه الطباع بقوله : « يشيب ابن آدم وشبّ معه خصلتان : الحرص وطول الأمل »(١) . وقوله : « شر ما فى الإنسان جُبنٌ هالع ، وَشُح خالع(٢) . وقوله : « لو أن ابن آدم أعطى وادياً من ذهب أحبَّ إليه ثانياً ، ولو أعطى ثانياً أحب إليه ثالثاً ، ولا يسد جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب (٣) » .

وأشار القرآن الكريم إلى بعض هذه الطباع بقوله :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ (٤)

وأول مايَلفت الإسلام نظر المرء إليه ، أن الجرىَ مع الهوى ، والانصياع مع وساوسه التى لا تنقضى ، لن يشبع النفس ، ولن يُرْضىَ الحق .

فالنفس كلما ألفت موطنا لشهوتها أحبت الانتقال منه إلى موطن آخر .

وهى فى رتعها الدائم ، لا تبالى بارتكاب الآثام واقتراف المظالم .

ومن ثمَّ حذر القرآن من اتباع هذه الأهواء المحرمة .

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (٥)

ويقول ـ عن مسالك الكافرين وضرورة معارضتها ـ :

---

(١) مسلم (٢) ابوداود (٣) البخارى (٤) آل عمران ١٤ (٥) ص ٢٦

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ (١)

ولابد من التفريق بين أهواء النفس المحرمة ومطالبها المعقولة المقررة ، فإن كثيراً من المتدينين يخلط خلطاً سيئاً بين الأمرين .

وذلك أن الإنسان إذا كانت له مطالب من متاع الحياة وسَعتها التى لا حرج فيها ، فأُفْهِمَ خطأً أن هذه المطالب من الرذائل المحظورة فستكون النتيجة أن يُقبل على هذه المطالب المحتومة بضمير مَن يستبيح الجرائم ، ويرضى بالتدلى إليها ، وضميره فى الحقيقة ضحية خطأ شنيع .

إنه مادام قد فهم أنه أصبح مسيئاً ، وأن الرذيلة جزء من حياته ينتقل منها إلى عمل منكرات أشد : أى منكرات حقيقية فى هذه المرة !

وقد لاحظ القرآن الكريم هذه الناحية ، فنص فى صراحة على إباحة الرغائب السليمة للنفس ، وترك لها فرصة التوسع الطيب ، وعدَّ التدخل بالحظر والتحريم والتضييق على النفس ـ فى هذه الدائرة الكريمة ـ قرينا لعمل السوء والفحشاء ! لأنه مَدْرَجَة إلى عمل السوء والفحشاء .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

أجل ، إن حظر الحلال الطيب ، قول على الله بلا علم ، وهو أخو السوء والفحشاء ، اللذين يأمر بهما الشيطان .

يكره الاسلام أن تعالج الغرائز بالكبَت العنيف ، وأن تُتَملق بالاسراف البالغ ، ويشرع لها المنهج الوسط ، بين الافراط والتفريط .

---

(١) المؤمنون ٧١ (٢) البقرة ١٦٨-١٦٩

وكما أن ضوابط الفطرة الخيِّرة فى الايمان والاصلاح ، لا فى الإلحاد والإباحية . فكذلك ضوابط هذه الغرائز النزقة(١) .

وفى كلتا الحالين ، لن يكون السياج المتين ، إلا فى الخلق المكين .

فحيث يصف القرآن الانسان بالضعف والتردد ، والأثرة ، يذكر أن النظافة من هذه الرذائل ، عن طريق الدين ووصاياه فحسب

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ * وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ * وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ (٢)

والمعروف أن الخلق لا يتكوَّن فى النفس فجأة ، ولا يُولدُ قوياً ناضجا ، بل يتكوَّن على مُكث وينضج على مراحل .

وهذا سر ارتباط نمائه بأعمال متكررة ، وخلال لها صفة الدوام كالصلاة والزكاة ، والتصديق بيوم الجزاء ، والاشفاق من عقاب الله .. الخ .

وإذا كانت الطباع الرديئة دائمة الالحاح على صاحبها ، تحاول العوجَ بسلوكه بين الحين والحين ، فلن يُكفكف شرَّها علاجٌ مؤقت .

وإنما يُسكن ثورانها عاملٌ لا يقل قوة عنها ، يعيد التوازن على عجل إذا اختلَّ .

* * *

والخلاصة ، أن الاسلام يحترم الفطرة الخالصة ، ويرى تعاليمه صدى لها . ويحذر الأهواء الجامحة ، ويقيم السدود فى وجهها . والعبادات التى أمر بها هى تدعيم للفطرة ، وترويض للهوى . ولن تبلغ هذه العبادات تمامها وتؤدى رسالتها إلا إذا كانت كلها روافد لتكوين الخلق العالى ، والمسلك المستقيم .

---

(١) النزقة : الطائشة المستهترة (٢) المعارج : ١٩ - ٢٩

الحدود على الجرائم الخلقية

الإكراه على الفضيلة لا يصنع الانسان الفاضل ، كما أن الإكراه على الإيمان لا يصنع الإنسان المؤمن ؛ فالحرية النفسية والعقلية أساس المسئولية .

والإسلام يقدر هذه الحقيقة ويحترمها ، وهو يبنى صرح الأخلاق .

ولماذا يلجأ إلى القسر فى تعريف الانسان معنى الخير ، أو توجيه سلوكه إليه ، وهو يحسن الظن بالفطرة الانسانية ، ويرى أن إزاحة العوائق من أمامها كافية لايجاد جيل فاضل ؟ .

إن فطرة الانسان خيرة وليس معنى هذا أنه مَلاَك لا يحسن إلا الخير بل معنى هذا أن الخير يتواءم مع طبيعته الأصيلة ، وأنه يؤثر اعتناقه والعمل به كما يؤثر الطير التحليق ، إذا تخلص من قيوده وأثقاله .

فالعمل الصحيح فى نظر الاسلام هو تحطيم القيود وإزالة الأثقال أولا ، فإذا جَثَمَ الإنسان على الأرض بعدئذ ، ولم يستطع سموًّا ، نُظر إليه على أنه مريض ، ثم يُسِّرت له أسباب الشفاء .

ولن يُصْدِر الإسلام حكما يعزل هذا الإنسان عن المجتمع إلا يوم يكون بقاؤه فيه مثار شَرٍ على الآخرين .

فى حدود هذه الدائرة يحارب الإسلام الجرائم الخلقية ، فهو يفترض ابتداء أن الإنسان يُحبُّ أن يعيش من طريق شريف ، وأن يحيا على ثمرات كفاحه وجهده الخاص أى أنه لا يبنى كيانه على السرقة .

ما الذى يحمله على السرقة ؟ احتياجه إلى ما يقيم أوده ؟ فلْيُوفَر له من الضرورات والمرفهات ما يغنيه عن ذلك .

وتلك فريضة على المجتمع ،إن قصر فيها فألجأ فرداً إلى السرقة ، فالجريمة هنا يقع وزرها على المجتمع المفرط ، لا على الفرد المضيع .

فإن كفلت للفرد ضروراته ثم مد بعد ذلك يده ، محصت حالته جيداً قبل إيقاع العقوبة عليه ، فلعل هناك شبهة تثبت أن فيه عرقاً ينبض بالخير ، والابطاء

فى العقاب مطلوب ديناً ، إلى حد أن يقول الرسول ﷺ : « إن الامام لأن يخطى فى العفو خير من أن يخطىء فى العقاب » .

فإذا تبين من تتبع أحوال الشخص أن فطرته الْتَـائَتْ ، وأنه أصبح مصدر عدوان على البيئة التى كفلته وآوته ، وأنه قابل عطفها وعنايتها ، بتعكير صفوها وإقلاق أمنها ، فلا ملام على هذه البيئة إذا حدت من عدوان أحد أفرادها ، فكسرت السلاح الذى يؤذى به غيره .

وقد وصف القرآن اللصوصية التى تستحق قطع اليد ، بأنها لصوصية الظلم والافساد ، وقال فى هذا السارق المعاقب : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

فالحد الذى شرعه الاسلام ، هو وقاية للجماعة العادلة المصلحة ، من صراوة عضو فيها ، يقابل عدالتها بالظلم ، ويقابل إصلاحها بالفساد .

* * *

ذلك مثلٌ نسوقه لنبين به أن الحدود على الجرائم الخلقية ، لم تشرع إكراهًا على الفضيلة ، وإلجاء للناس - بطريق القسوة - إلى اتخاذ المسلك الحسنة .

فالطريقة المثلى لدى الإسلام هى خطاب القلب الإنسانى ، واستثارة أشواقه الكامنة الى السمو والكمال ، ورَجْعُه إلى الله بارئِهِ الأعلى ، بأسلوب من الإقناع والمحبة ، وتعليقه بالفضائل الجليلة على أنها الثمرة الطبيعية لهذا كله . .

ويجب التحكُّم فى ظروف البيئة ، التى تكتنف الإنسان حتى تُعينَ على إنضاج المواهب والسجايا الحسنة .

ولا حرج من خَلْع الطُّفَيْلِيات التى لا فائدة منها ، فنحن فى حقول الزراعات المختلفة نوفر النماء للمحاصيل الرئيسية ، باقتلاع كثير من الحشائش والأعشاب !!

وليست المحافظة على مصلحة الإنسانية العامة بأقل من ذلك خطرًا فلا وجه

---
(١) المائدة ٣٩ .

لاستنكار الحدود التى أقرها الإسلام وسبقت بها التوراة ، وَاعْتُبِرَت شريعة الأديان السماوية عامة .

* * *

والإسلام يُحمِّل البيئة قسطًا كبيرًا من تبعة التوجيه إلى الخير أو الشر ، وإشاعة الرذائل أو الفضائل .

واتجاهه إلى تولّى مقاليد الحكم يعود ، فيما يعود إليه من أسباب ، إلى الرغبة فى تشكيل المجتمع على نحو يعين على العفاف والاستقامة .

وقد روى النبىُّ عليه الصلاة والسلام قصة القاتل التى يبتغى التوبة من جرائمه ، وأنه « سأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على رجل عالم . فقال له : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، من يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناسًا يعبدون الله ، فاعبد الله معهم ، ولا ترجع الى أرضك فإنها أرض سوء »[١] .

وفى رواية انه أتى راهبًا فسأله : « أهل تجد لى من توبة ؟ فقال له : قد أسرفْتَ وما أدرى ، ولكن ها هنا قريتان ، قرية يقال لها نصرة ، والأخرى يقال لها كفرة ؛ فأما أهل نصرة فيعملون عمل أهل الجنة ، لا يثبت فيها غيرهم ، وأما أهل كفرة فيعملون عمل أهل النار لا يثبت فيها غيرهم ، فانطلق إلى أهل نصرة ؛ فإن ثَبَتَّ فيها وَعملْتَ عمل أهلها ، فلا شك فى توبتك !!..»[٢] .

* * *

من هنا يرى الاسلام أن ملاحظة البيئة وتقدير آثارها فى تكوين الخلق ، عاملٌ ينضم إلى ما سبق تقريره من حراسة الفطرة السليمة ، وتهذيب الأهواء الطائشة .

ونظن أن فى العناية بهذه النواحى جميعًا ضمانًا لإيجاد مجتمع نقي يَزْخَر بأزكى الصفات وَأعفِّ السِّير .

---

(١) البخارى .

(٢) الطبرانى .

دائرة الأخلاق تشمل الجميع

قد تكون لكل دين شعائر خاصة به ، تعتبر سِمات مميزة له .

ولا شك أن فى الاسلام طاعات معينة ، ألزم بها أتباعه ، وتعتبر فيما بينهم أمورًا مقررة . لا صلة لغيرهم بها .

غير أن التعاليم الخلقية ليست من هذا القبيل ؛ فالمسلم مكلف أن يلقى أهل الأرض قاطبة بفضائل لا ترقى إليها شبهة ، فالصدق واجب على المسلم مع المسلم وغيره ، والسماحة والوفاء والمروءة والتعاون والكرم .. إلخ .

وقد أمر القرآن الكريم ألا نتورط مع اليهود أو النصارى فى مجادلات تهيج الخصومات ولا تجدى الأديان شيئًا . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (١)

واستغرب من أتباع موسى وعيسى أن يشتبكوا مع المسلمين فى منازعات من هذا النوع الحادّ : ﴿ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴾ (٢)

وحدث أن يهوديًا كان له دَيْن على النبى ، فجاء يتقاضاه قائلا : إنكم يا بنى عبدالمطلب قوم مُطل !! فرأى عمر بن الخطاب أن يُؤدب هذا المُتطاول على مقام الرسول ، وهَمَّ بسيفه ، يبغى قتله .

لكن الرسول ﷺ أَسكتَ عمر قائلا : « أنا وهو أولى منك بغير هذا ، تأمُرُه بحسن التقاضى ؟ وتأمرنى بحسن الأداء » .

وقد أمر الإسلام بالعدل ولو مع فاجر أو كافر .

---

(١) العنكبوت . ٤٦ .

(٢) البقرة . ١٣٩ .

قال عليه الصلاة والسلام : « دعوة المظلوم مستجابة ، وإن كان فاجرًا ففجوره على نفسه [١] » .

وقال : « دعوة المظلوم ـ وإن كان كافرًا ـ ليس دونها حجاب ، دع مَايَريبك الى ما لا يَريبك »[٢] .

وبهذه النصوص ، منع الإسلام أبناءه أن يقترفوا أية إساءة ، نحو مخالفيهم فى الدين .

ومن آيات حسن الخلق مع أهل الأديان الأخرى ما ورد عن ابن عمر : أنه ذُبحت له شاة فى أهله ، فلما جاء قال : أهديتم لجارنا اليهودى ؟ أهديتم لجارنا اليهودى ؟. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت انه سيورثه »[٣] .

وكذلك أمر الإسلام أن يصل الإنسان رَحِمهُ ، ولو كفروا بدينه الذى اعتنقه ، فإن التزامه للحق لا يعنى المجافاة للأهل ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٤]

* * *

ذلك من الناحية الشخصية . أما من الناحية العامة ، فقد قرر الإسلام أن بقاء الأمم وازدهار حضارتها ، واستدامة مَنعتها ، إنما يُكفل لها ، إذا ضُمنتْ حياة الأخلاق فيها ، فإذا سقطت الخلق سقطت الدولة معه .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويؤكد هذه الحقيقة حديث الرسول لقومه وعشيرته ، فقد رشحتهم مكانتهم فى جزيرة العرب لسيادتها ، وتولى مقاليد الحكم بها .

ولكن النبىَّ أفهمهم ألا دوام لملكهم إلا بالخُلق وحده .

فعن أنس بن مالك قال : كنا فى بيت فيه نفر من المهاجرين والأنصار .

---

(١) أحمد .
(٢) أحمد .
(٣) البخارى .
(٤) لقمان . ١٥ .

فأقبل علينا رسول الله ﷺ ، فجعل كل رجل يوسع رجاء أن يجلس إلى جنبه . . ثم قام إلى الباب فأخذ بعضادتيه[١] ، فقال : الأئمة من قريش . ولى عليكم حق عظيم ، ولهم ذلك ما فعلوا ثلاثا . إذا اسْتُرْحِموا رَحموا ، وإذا حكموا عدلوا ، وإذا عاهدوا وفوا ، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين[٢] » .

هذا الحديث حاسم فى أنه لا مكانة لأمة ولا لدولة ولا لأسرة إلا بمقدار ما تمثل فى العالم من صفات عالية ، وما تحقق من أهداف كريمة .

فلو أن حَكماً حمل طابع الإسلام والقرآن ، ثم نظر الناس إليه فوجدوه لا يعدل فى قضية ، ولا يرحم فى حاجة ، ولا يوفى فى معاهدة ، فهو باسم الإسلام والقرآن قد انسلخ عن مقوِّماته الفاضلة ، وأصبح أهلا لأن يلعن فى فجاج الأرض وآفاق السماء .

وروى الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بقوم خيراً ولَّى ، أمرهم الحكماء ، وجعل المال عند السُّمحاء ، وإذا أراد الله بقوم شراً ولَّى أمرهم السفهاء ، وجعل المال عند البخلاء[٣] » .

من أقوال الامام ابن تيمية : « **إن الله يقيم الدولة العادلة ، وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة ، وإن كانت مسلمة** » .

* * *

إن الخلق فى منابع الإسلام الأولى ـ من كتاب وسنة ـ هو الدين كله ، وهو الدنيا كلها . فإن نقصت أمة حظاً من رفعة فى صلتها بالله ، أو فى مكانتها بين الناس . فبقدر نقصان فضائلها وانهزام خُلقها .

---

(١) عضادتيه . أى مصراعيه
(٢) الطبرانى
(٣) أبو داود

الصــدق

إن الله خلق السموات والأرضَ بالحق ، وطلب إلى النـاس أن يبنـوا حيـاتهم على الحق ، فلا يقولوا إلا حقاً ولا يعملوا إلا حقاً .

وحيرة البشر وَشِقوتهم ، ترجع إلى ذهولهم عن هـذا الأصـل الـواضح ، وإلى تسلط أكاذيب وأوهام على أنفسهم وأفكارهم ، أبعدتهم عـن الصراط المستقيم ، وشردت بهم عن الحقائق التى لابد من التزامها .

ومن هنا كان الاستمساك بـالصدق فى كل شـأن ، وتحَـريه فى كل قضـية ، والمصير إليه فى كل حكم ، دعاية ركينة فى خُلـق المسـلم ، وَصِبْغة ثـابتة فى سلوكه . وكذلك كان بناء المجتمع فى الإسلام قائماً على محاربة الـظنون ، ونبـذ الإشاعات وَاطراح الرَيب ، فإن الحقائق الراسخة وحدها هى التى يجب أن تـظهر وتغلب ، وأن تُعتمد فى إقرار العلاقات المختلفة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إيـاكم والـظنَّ فـإن الـظن أكذب الحديث »[١] . وقال : « دع ما يَريبك إلى مـا لا يـريبك ، فـإن الصـدق طمأنينة ، والكذب ريبة »[٢] .

وقد نعى القرآن على أقوام جَريهم وراء الـظنون التـى مـلأت عقـولهم بالخرافات ، وأفسدت حاضرهم ومستقبلهم بالأكاذيب فقال :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [٣]

وقال : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [٤]

والإسلام ـ لاحترامه الشديد للحق ـ طـارد الـكذابين ، وشـدد عليهـم بالنكير .

(١) البخارى (٢) الترمذى (٣) النجم . ٢٣ (٤) النجم ٢٨

عن عائشة أم المؤمنين قالت : « ما كان من خُلق أبغض إلى رسـول الله ﷺ من الكذب ، ما اطلع عَلى أحد من ذلك بشيء فيَخْرُجَ من قلبه حتى يعلم أنه قـد أحدث توبة »(١) .

وفى رواية عنها : « ما كان من خُلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب . ولقد كان الرجل يكذب عنده الكذْبة ، فما يزال فى نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث فيها توبة »(٢) .

ولا غَرْوَ فلقد كان السلف الصالح يتلاقون على الفضائل ويتعارفون بها ، فـإذا أساء أحدٌ السيرة وحاول أن ينفرد بمسلك خاطىء ، بدا - بعمله هذا - كالأجـرب بين الأصِحاء ، فلا يطيب له مقام بينهم حتى يبرأ من علته .

وكانت المعالم الأولى للجماعة المسـلمة صـدْقَ الحـديث ، وَدقــة الأداء ، وضبط الكلام .

أما الكذب والإخلاف ، والتدليس والافتراء ، فهى أمارات النفاق ، وانقطاع الصلة بالدِّين ، أو هى اتصال بالدين على أسلوب المدلسين والمفتـرين ! أى على أسلوب الكذابين فى مخالفة الواقع .

***

والكذب رذيلة محضةُ تنبئُ عن تغلغل الفساد فى نفس صاحبها ، وعن سـلوك ينشىء الشرَّ إنشاء ، ويندفع إلى الإثم من غير ضرورة مزعجة ، أو طبيعية قاهرة .

هناك رذائل يَلتاث بها الإنسان ، تشبه الأمـراض التــى تعــرض للبـــدن ، ولا يصح منها إلا بعد علاج طويل ، كالخوف الـذى يتلعثـم بـه الهَيَّــابُون ، أو الحرص الذى تنقبض به الأيدى .

إن بعض الناس إذا جُنِّد للجهاد المفروض ، تقدم إليه وجلده مقشـعرٌ ، وإن بعضهم إذا استخرجت منه الزكاة الواجبة ، أخذ يَعدُّها وأصابعه تُـرْعشُ . وهـذه

(١) أحمد (٢) ابن حبان

الطباع التى تتأثَّر بالجبن أو بالبخل ، غير الطبائع التى تُقْبلُ على الموت فى نـزَق ، وتبعثر المال بغير حساب .

وقد تكون هناك أعذار لمن يشعرون بـوساوس الحـرص أو الخـوف ، عنـدما يوقفون فى ميادين التضحية والفداء !!

ولكنه لا عذر ألبتة لمن يتخذون الكذب خلقـاً ويعيشـون بـه على خـديعة الناس .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يطبع المـؤمن على الخـلال كلهـا ، إلا الخيانة والكذب »[١] .

وسئل رسول الله ﷺ : « أيكون المؤمن جباناً ؟ قال : نعـم ! قيـل لـه : أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال : نعم ! قيل له : أيكون المـؤمن كذاباً ؟ قـال . لا . . »[٢] .

وهذه الإجابات تشير إلى ما أسلفنا بيانه ، من نـوازع الضـعف والنقص التـى تخامر بعض الناس ثم يتغلبون عليها بعـد لأى ، عنـدما يـواجَهون بـالفريضة المحكمة أو الضريبة الحاسمة ، وهى لا تعنى أبـداً تسـويغ البخـل ، أو تهـوين الجبن كيف ؟ ومَنْعُ الزكاة وترك الجهاد بابان إلى الكفران ؟؟ .

وكلما اتسع نطاق الضرر إثر كذبة يشيعها أفـاك جـرىء كان الـوزْر عنـد الله أعظم ، فالصحافى الذى ينشر على الألوف خبراً بـاطلاً ، والسـياسى الـذى يعـطى الناس صوراً مقلوبة عن المسائل الكبرى ، وذو الغرض الذى يتعمد سـوق التهـم إلى الكبراء من الرجال والنساء ، أولئك يرتكبون جرائم أشقَّ على أصـحابها وأسـوأ عاقبة .

قال النبى ﷺ : « رأيتُ الليلة رجلين أتيانى ، قالا لى : الذى رأيتـه يُشـقُّ شدقه فكذاب يكون الكذبة فتُحمل عنه حتى تبلغ الآفاق ، فيصنع به هكذا إلى يوم القيامة »[٣] .

---

(١) أحمد . (٢) مالك . (٣) البخارى .

ومن هذا القبيل كذِب الحكام على الشعوب ، فإن كذبة المنبر بلْقَاءُ مشهورة .

وفى الحديث : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : الشيخ الزانى ، والإمام الكذاب ، والعائل المزهو »[١] - الفقير المتكبر - .

والكذب على دين الله منْ أقبح المنكرات ، وأول ذلك نسبة شيء إلى الله أو إلى رسوله لم يقله .

وهذا الضرب من الافتراء فاحش فى حقيقته ، وخيم فى نتيجته .

قال رسول الله ﷺ : « إنَّ كذباً علَّى ليس كَكَذِبٍ على أُحد ؟ فمن كذب علَّى مُتَعَمِّداً فَلْيتَبوَّأ مقْعدَهُ من النَّار »[٢] .

ويدخل فى نطاق هذا الافتراء ، سائر ما ابتدعة الْجُهَّال ، وأقحموه على دين الله من مُحدثات لا أصل لها ، عَدَّها العوامُّ ديناً ، وما هى بدين ، ولكنها لهو ولعب !

وقد نَبَّهَ النبى ﷺ أمته إلى مصادر هذه البدع المنكرة ، وحذر من الانقياد إلى تيَّارها ، ومَسَّك المسلمين بآى كتابهم وسُنة سلفهم قال : « يكون فى آخر أمتى أناس دَجالون كذابون يُحدِّثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ! فإياكم وإيَّاهم ، لا يُضِلونكم ولا يفتنونكم »[٣] .

* * *

والإسلام يوصى أن تُغْرَس فضيلة الصدق فى نفوس الأطفال ، حتى يَشِبوا عليها ، وقد ألفوها فى أقوالهم وأحوالهم كلها .

فعن عبدالله بن عامر قال : دَعتنى أمى يوماً ورسول الله ﷺ قاعد فى بيتنا ، فقالت : تعالَ أعطك ، فقال لها ﷺ : « ما أردت أن تعطيه ؟ » قالت : أردت أن أعطيه تمرا فقال لها : « أما إنك لو لم تعطه شيئاً كُتِبتْ عليك كذبة »[٤] !!

---

(١) البزار (٢) البخارى (٣) مسلم

(٤) أبو داود .

وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَنْ قالَ لصبِىٍّ : تعال ، هاكَ ثم لم يعطه فهى كذبة »[١] .

فانظر كيف يُعلِّم الرسول ﷺ الأمهات والآباء أن يُنَشِّئوا أولادهم تنشئةً يقدسون فيها الصدق ، ويتنزهون عن الكذب . ولو أنه تجاوز عن هذه الأمور وحسبها من التوافه الهِّينة لَخشِىَ أن يكبَر الأطفال ، وهم يعتبرُون الكذب ذنباً صغيراً - وهو عند الله عظيم .

وقد مشت الصَّرامة فى تَحرِّى الحق ، ورعاية الصدق ، حتى تناولت الشئون المنزليَّة الصغيرة .

عن أسماء بنت يزيد قالت : يا رسول الله ، إن قالت إحدانا لشىء تشتهيه : لا أشتهيه . يُعد ذلك كذباً ؟ قال : « إن الكذب يكتب كذباً حتى تكتب الكُذَيْبَةَ كُذَيْبَةَ »[٢] .

وقد أحصى الشارع مزالق الكذب ، وأوضح سوء عقباها ، حتى لا يبقى لأحد مَنْفذٌ إلى الشرود عن الحقيقة ، أو الاستهانة بتقريرها .

فالمرء قد يستسهل الكذب حين يمزح !! حاسباً أن مجال اللهو لا حظر فيه على إخبار أو اختلاق . ولكن الإسلام الذى أباح الترويح عن القلوب لم يرض وسيلة لذلك إلا فى حدود الصدق المحض ؛ فإن فى الحلال مندوحة عن الحرام ، وفى الحق غناء عن الباطل .

قال رسول الله ﷺ : « ويل للذى يحدث بالحديث لِيُضْحك منه القوم فيكذب ، ويْلٌ له ، ويْلٌ له[٣] » .

وقال : « أنا زعيم ببيت فى وسط الجنة ، لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً »[٤] .

وقال : « لا يؤمن العبد الإيمان كله ، حتى يترك الكذب فى المزاح والمراء ، وإن كان صادقاً »[٥] .

(١) أحمد (٢) مسلم (٣) الترمذى
(٤) البيهقى (٥) أحمد

والمشاهدُ أن الناس يطلقون العنان لأخيلتهم فى تلفيق الأضاحيك ، ولا يُحِسُّون حرجاً فى إدارة أحاديث مفتراة على ألسنة خصومهم أو أصدقائهم ليتندروا بها أو يسخروا منهم وقد حرَّم الدين هذا المسلك تحريماً تاماً ؛ إذ الحق أن اللهو بالكذب ، كثيراً ما ينتهى إلى أحزان وعداوات .

* * *

وتمدُّح الناس مدرجة إلى الكذب . والمسلم يجب أن يحاذر حينما يُثْنى على غيره فلا يذكر إلا ما يعلم من خير ، ولا يجنح إلى المبالغة فى تضخيم المحامد وَطَىِّ المثالب . ومهما كان الممدوح جديراً بالثناء فإن المبالغة فى إطرائه ضَرْبٌ من الكذب المحرَّم .

وقد قال رسول الله ﷺ لمادحيه : « لاتُطْرونى كما أطرتِ النصارى ابن مريم ! فإنما أنا عبد . فقولوا : عبدُ الله ورسوله »(١) .

وهناك فريق من الناس يتخذ المدائح الفارغة بضاعة يَتملَّق بها الأكابر ويصوغ من الشعر القصائد المطوَّلة ، ومن النثر الخطب المرسلة ، فيَكِيل الثناءَ جزافا ويَهْرِف بما لا يعرف ، وربما وصف بالعدالة الحكام الجائرين . ووصف بالشجاعة الأغبياء الخوارين ، ابتغاء عرض من الدنيا عند هؤلاء وأولئك .

هذا الصنف من الأذناب الكذبة ، أوصى الرسول ﷺ بمطاردتهم ، حتى يرجعوا من تزويرهم ، بوجوهٍ عفرها الخزى والحرمان .

عن أبى هريرة قال : أمرنا رسول الله أن نحثُو فى وجوه المداحين التراب » .

وقد ذكر شراح الحديث ، أن المدَّاحين المعنِّيين هنا (هم الذين اتخذوا مدح الناس عادة ، يستأكلون به الممدوح ، فأما من مدح على الأمر الحسن

---

(١) رزين (٢) الترمذى

والفعل المحمود - ترغيباً فى أمثاله ، وتحريضاً للناس على الاقتداء به - فليس بمداح) .

والحدود التى يقف عندها المسلم ، ويخرج بها من تَبِعةِ الملَق والمبالغة ، وينفع بها ممدوحه ، فلا يُزلِّه إلى العُجب والكبرياء ، قد بينها النبى الحكيم .

فعن أبى بكرة قال : أثنى رجل على رجل عند رسول الله ، فقال له : « ويحك قطعت عنق صاحبك - قالها ثلاثاً - ثم قال : من كان مادحاً أخاه لا محالة فليقل : أحسب فلاناً - والله حسيبه ولا يُزَكى على الله أحد - أحسب فلاناً كذا وكذا . إن كان يعلم ذلك منه »[1] .

* * *

والتاجر قد يكذب فى بيان سعلته وعَرْض ثمنها ، والتجارات عندنا تقوم على الطمع البالغ : البائع يريد الغلوّ ، والشارى يريد البخس ، والأثرة هى التى تسود حركات التبادل فى الأسواق والمحالّ .

وقد كره الإسلام هذه المعاملة الجشعة ، وما يَشُوبها من لَغْوٍ ومِرَاء .

قال رسول الله : (البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدق البيعان وبيّنا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كذبا وكتما فعسى أن يريحاً ربحاً ما ، ويمحق بركة بيعها) وفى رواية : (مُحقت بركة بيعهما .. اليمين الفاجرة مَنْفقَةٌ للسلعة مَمْحَقةٌ للكسب)[2] !!

ومن المشترين رجال يُقبلون على الباعة وهم قليلو الخبرة ، سريعو التصديق لما يقال لهم ؛ فمن الايمان ألا تُستغلّ سذاجتهم فى كسبٍ مُضَاعفٍ أو تغطية عيْب .

قال رسول الله ﷺ : « كَبُرَت خيانةٌ أن تحدِّث أخاك حديثاً ، هو لك مصدق ، وأنت له كاذب »[3] .

وقال : « لا يحل لامرىء مسلم ، يبيع سلعة ، يعلم أن بها داء إلا أخبر به »[4] .

---

(١) البخارى (٢) أحمد (٣) البخارى (٤) البخارى

وعن ابن أبى أوفى : أن رجلا أقام سلعة فى السوق فحلف بالله : لقد أعطى بها ما لم يعط - ليوقع فيها رجلا من المسلمين - فنزلت : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١)

* * *

والحيْف فى الشهادة من أشنع الكذب . فالمسلم لا يبالى - إذا قام بشهادة ما - أن يقرر الحق ولو على أدنى الناس منه وأحبِّهم إليه ، لا تميل به قرابة ولا عصبية ، ولا تزيغُهُ رغبة أو رهبة . .

وتزكية المرشحين لمجالس الشورى ؛ أو المناصب العامة ، نوع من الشهادة ؛ فمن انتخب المغموط فى كفايته وأمانته ، فقد كذب ، وزوَّر ، ولم يقم بالقسط .

والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (٢)

وعن أبى بكرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر - ثلاثا - قلنا : بلى : قال : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس . . وكان متكئاً فجلس ، وقال : ألا وقوْلُ الزُّور وشهادة الزور ، فمازال يكررها حتى قلنا : ليته سكت (٣) » !! .

إن التزوير كذب كثيف الظلمات ، إنه لا يكتم الحق فحسب ، بل يمحقه ليثبت مكانه الباطل ، وخطرهُ على الأفراد فى القضايا الخاصة ، وخطره على الأمم فى القضايا العامة شديد مبيد .

(١) آل عمران . ٧٧ . (٢) النساء . ١٣٥ . (٣) البخارى .

ومن ثم خوفً الرسول منه على هذا النحو الصارخ .

وعلى أرباب الحرف والصناعات ، أن يجعلوا من كلمتهم قانونًا مَرْعىً الجانب ، يقفون عنده ويستمسكون به ، فإنه لمن المؤسف أن تكون الوعود المخلفة ، والحدود المائعة عادة مأثورة عن كثير من المسلمين ، مع أن دينهم جعل الوعود الكاذبة أمارة النفاق .

وقد كان رسول الله ﷺ يقدس الكلمة التى يقول ، ويحترم الكلمة التى يسمع ، وكان ذلك شارة الرجولة الكاملة فيه ، حتى قبل أن يرسل الى الناس .

عن عبدالله بن أبى الحمساء قال : (بايعت رسول الله ببيع قبل أن يبعث فبقيتْ له بقية ، فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ، فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاثة فجئت فإذا هو فى مكانه ! فقال : يا فتى لقد شققت علىَّ ! أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك)(١) ـ كان يحضر فى الموعد المضروب بينهما ـ.

وحدث أن الرسول وعد جابر بن عبدالله بعطاء من مال البحرين ، ثم عاجلته الوفاة قبل الوفاء فلما جاء مال البحرين إلى خليفته أبى بكر أطلق مناديًا فى الناس يقول : ألا من كان له على رسول الله عدة أو دين فليأتنا »(٢) .

أنظر كيف توزن الكلمة ويوجب تنفيذها حتى لا تذهب هباء مع اللغو الضائع ؟ على أن الوعود الكاذبة ليست فقط كلما يذهب سدى ، ولكنها خرْقٌ للمصالح ، وإضرار بالناس ، وإهدار للأوقات . وليس صدق الوعد خلة تافهة ، إنها محمدة ذكرها الله عز وجل فى مناقب النبوة :

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ (٣)

وسرد الصفات للفاضلة على هذا الترتيب ، يدلك على ما لصدق الوعد من مكانة . ولقد كان إسماعيل أصدق الناس وعدًا حين قال لأبيه :

(١) أبو داود . (٢) البخارى . (٣) مريم : ٥٤ ، ٥٥ .

﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (١) لما قال أبوه :

﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾ (٢)

وقد يندفع الإنسان إلى الكذب حين يعتذر عن خطأ وقع منه ، ويحاول التملص من عواقبه وهذا غباء هوان ، وهو فرار من الشر إلى مثله أو أشدَّ والواجب أن يعترف الإنسان بغلطه ، فلعل صدقه فى ذكر الواقع وَأَلمُهُ لما بَدَرَ منه يمسحان هفوته ويغفران زلته .

ومهما هَجس فى النفس من مخاوفَ - إذا قيل الحقُّ - فالأجدر بالمسلم أن يتشجع ، وأن يتحرج من لوثات الكذب .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تحرَّوُا الصدق وإن رأيتم أن الْهَلَكة فيه ، فإن فيه النجاة »(٣)، وقال : « إذا كذب العبد تباعد الملك عنه ميلا من نتن ما جاء به »(٤) .

والصدق فى الأقوال يتأدى بصاحبه إلى الصدق فى الأعمال والصلاح فى الأحوال ، فإن حرص الإنسان على التزام الحق فيما ينبس به ، يجعل ضياء الحق يسطع على قلبه وعلى فكره ، ولذلك يقول الله عزَّ وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا * يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ (٥)

والعمل الصادق هو العمل الذى لا ريبة فيه لأنه وليد اليقين ، ولا هوىً معه لأنه قرين الإخلاص ، ولا عوجَ عليه لأنه نَبَعَ من الحق .

ونجاح الأمم فى أداء رسالتها ، يعود إلى جملة ما يقدمه بنوها من أعمال صادقة . فإن كانت ثروتها من صدق العمل كبيرة ، سبقت سبقا بعيدا ، وإلا سقطت فى عرض الطريق ؛ فإن التهريج والخبط ، والادعاء والهزل ؛ لا تغنى فتيلا عن أحد .

(١ ، ٢) الصافات . ١٠٢ .   (٣) ابن أبى الدنيا .   (٤) الترمذى .
(٥)الأحزاب ٧٠ ، ٧١ .

قال رسول الله : « عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهدى إلى البر ؛ والبر يهدِى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرَّى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقًا . . وإياكم والكذبَ ! فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال العبد يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا »[١] .

إن الفجور الذى هدى إليه ادمان الكذب هو المرحلة الأخيرة لِضَعَةِ النفس ، وضياع الإيمان .

روى مالك عن ابن مسعود : « لا يزال العبد يكذب ، ويتحرّى الكذب ، فينكت فى قلبه نُكْتة سوداء ، حتى يَسْوَدَّ قلبه ، فيكتب عند الله من الكذابين » .

ويحيقُ به قول الحق فى كتابه :

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ [٢]

وأما البر الذى هدى إليه الصدق ، فهو قمة الخير التى لا يرقى إليها إلا أولو العزم من الرجال ؛ وحسبك فيه هذه الآية الجامعة .

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [٣]

---

(١) البخارى . (٢) النحل . ١٠٥ (٣) البقرة . ١٧٧ .

الأمـــانـــة

الإسلام يرقب من معتنقه أن يكون ذا ضمير يقظ ، تُصَانُ به حقوق الله وحقوق الناس ، وتحرس به الأعمال من دواعى التفريط والإهمال . ومن ثمَّ أوجب على المسلم أن يكون أمينًا !

والأمانة فى نظر الشارع واسعة الدلالة ، وهى ترمز إلى معان شتى ، مناطها جميعًا شعور المرء بتبعته فى كل أمر يُوكل إليه ، وإدراكه الجازم بأنه مسئول عنه أمام ربه ، على النحو الذى فصله الحديث الكريم :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ؛ فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها ، والخادم فى مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته »(١) .

قال ابن عمر - راوى الحديث - سمعت هؤلاء من النبى ﷺ ، وأحسبه قال : « الرجل فى مال أبيه راع وهو مسئول عن رعيته » .

والعوام يقصُرون الأمانة فى أضيق معانيها وآخرها ترتيبًا ؛ وهو حفظ الودائع ، مع أن حقيقتها فى دين الله أضخم وأثقل .

إنها الفريضة التى يتواصى المسلمون برعايتها ويستعينون بالله على حفظها . حتى إنه عندما يكون أحدهم على أهبة سفر ، يقول له أخوه : « استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك »(٢) .

وعن أنس قال : « ما خطبنا رسول الله إلا قال : لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له »(٣) .

ولما كانت السعادة القصوى أن يوقَى الانسان شقاء العيش فى الدنيا وسوء المنقلب فى الأخرى ؛ فإن رسول الله جمع فى استعاذته بين الحالين معا إذ قال :

---

(١) البخارى .   (٢) الترمذى .   (٣) أحمد

« اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، واعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة »(١) . فالجوع ضياع الدنيا والخيانة ضياع الدين . . !!

وكان رسول الله فى حياته الأولى قبل البعثة يلقب بين قومه بالأمين .

وكذلك شوهدت مخايل الأمانة على موسى حين سقى لابنتى الرجل الصالح ورفق بهما ، واحترم أنوثتهما ، وكان معهما عفيفًا شريفًا :

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ (٢) **وقد حدث هذا قبل أن ينبأ موسى ويرسل إلىٰ فرعون**

ولا غرو فرسل الله يختارون من أشرف الناس طباعًا ، وأزكاهم معادن ، والنفس التى تظل معتصمة بالفضيلة - على شدة الفقرة ووحشة الغربة - هى لرجل قوىّ أمين ! والمحافظة على حقوق الله وحقوق العباد ، تتطلب خلقًا لا يتغير باختلاف الأيام بين نعمى وبؤسى ، وذلك جوهر الأمانة .

* * *

من معانى الأمانة وضع كل شيء فى المكان الجدير به ؛ واللائق له ، فلا يسند منصب إلا لصاحبه الحقيق به ، ولا تملأ وظيفة إلا بالرجل الذى ترفعه كفايته إليها .

واعتبارُ الولايات والأعمال العامة أمانات مسئولة ثابت من وجوه كثيرة :

فعن أبى ذرّ قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملنى ؟ قال فضرب بيده على مَنكبى ، ثم قال : يا أبا ذر ، إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة

---

(١) أبو داود . (٢) القصص . ٢٤ - ٢٦.

خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدّى الذى عليه فيها(١)» .

إن الكفاية العلمية أو العملية ليست لازمة لصلاح النفس ، قد يكون الرجل رضى السيرة حسن الإيمان ، ولكنه لا يحمل من المؤهلات المنشودة ما يجعله منتجا فى وظيفة معينة .

ألا ترى إلى يوسف الصديق ؟ إنه لم يرش نفسه لإدارة شئون المال بنبوته وتقواه فحسب ، بل بحفظه وعلمه أيضا ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) وأبو ذر لما طلب الولاية لم يَره الرسول جَلْدا لها فحذره منها .

والأمانة تقضى بأن نصطفى للأعمال أحسن الناس قياما بها ، فإذا ملنا عنه إلى غيره - لِهوىً أو رشوة أو قرابة - فقد ارتكبنا - بتنحية القادر وتولية العاجز - خيانة فادحة .

قال رسول الله ﷺ : « من استعمل رجلا على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين »(٣) .

وعن يزيد بن أبى سفيان :قال لى أبوبكر الصديق حين بعثنى إلى الشام : يا يزيد ، إن لك قرابة عسَيْتَ أن تؤثرهم بالإمارة ، وذلك أكثر ما أخاف عليك بعد ما قال رسول الله . « من وِلَى من أمر المسلمين شيئا فأمّر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل منه صرْفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم (٤)» :

والأمة التى لا أمانة فيها ، هى الأمة التى تعبث فيها الشفاعات بالمصالح المقررة ، وتطيش بأقدار الرجال الأكفاء ، لتهملهم وتقدم من دونهم . وقد أرشدت السُّنة إلى أن هذا من مظاهر الفساد ، الذى سوف يقع آخر الزمان .

« جاء رجل يسأل رسول الله : متى تقوم الساعة ؟ فقال له : إذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة ! فقال : وكيف إضاعتها ! قال : إذا وُسِّد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة »(٥) .

---

(١) مسلم . (٢) يوسف . ٥٥ . (٣) الحاكم .
(٤) الحاكم . (٥) البخارى .

ومن معانى الأمانة أن يحرص المرء على أداء واجبه كاملا فى العمل الذى يناط به ، وأن يستنفد جهده فى إبلاغه تمام الإحسان . أجلْ إنها لأمانة يمجدها الاسلام : أن يخلص الرجل لشغله وأن يعنى بـا جادته ، وأن يسهر على حقوق الناس التى وضعت بين يديه ، فإن استهانة الفرد بما كلف به - وإن كان تافها - تستتبع شيوع التفريط فى حياة الجماعة كلها ، ثم استشراءَ الفساد فى كيان الأمة وتداعيه برمته .

وخيانة هذه الواجبات تتفاوت إثما ونكراً وأشدها شناعة ، ما أصاب الدين ، وجمهور المسلمين ، وتعرضت البلاد لأذاه .

قال رسول الله : إذا جمع الله بين الأولين والآخرين يوم القيامة ، يرفع لكل غادر لواء يعرف به ! فيقال : هذه غدرة فلان (١)» .

وفى رواية : « لكل غادر لواء عند أمته ، يرفع له بقدر غَدرته . ولا غادر أعظم من أمير عامة » (٢) .

أى ليس أعظم خيانة ولا أسوأ عاقبةَ من رجل تولى أمور الناس فنام عنها حتى أضاعها .

ومن الأمانة ألا يستغل الرجل منصبه الذى عين فيه ، لجر منفعة إلى شخصه و قرابته ، فإن التشبع من المال العام جريمة .

والمعروف أن الحكومات أو الشركات تمنح مستخدميها أجورا معينة . فمحاولة التزيد عليها بالطرق الملتوية هى اكتساب للسحت .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من استعملناه على عمل فرزقناه رزقا . فما أخذ بعد ذلك فهو غُلُول » (٣) لأنه اختلاس من مال الجماعة الذى ينفق فى حقوق الضعفاء والفقراء . وبرصد للمصالح الكبرى :

---

(١) البخارى .　　(٢) مسلم .　　(٣) أبو داود

﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١)

أما الذى يلتزم حدود الله فى وظيفته، ويأنف من خيانة الواجب الذى طُوِّقه فهو عند الله من المجاهدين لنصرة دينه وإعلاء كلمته.

قال رسول الله ﷺ: «العامل إذا استُعْمِلَ فأخذ الحق، وأعطى الحق لم يزل كالمجاهد فى سبيل الله حتى يرجع إلى بيته» (٢).

وقد شدد الإسلام فى ضرورة التعفف عن استغلال النفوذ، وشدَّد فى رفض المكاسب المشوبة.

عن عدى بن عميرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوق كان غلولا يأتى به يوم القيامة. فقام إليه رجل أسود من الأنصار – كأنى أنظر إليه – فقال يا رسول الله، أقبل عنى عملك!! قال: ومالك؟؟ قال: سمعتك تقول كذا وكذا. قال: وأنا أقوله الآن: من استعملناه منكم على عمل فليَجىء بقليله وكثيره. فما أوتى منه أخذ وما نهى عنه انتهى» (٣)

وحدث أن استعمل النبىّ رجلا من الأزدْ يقال له: ابن اللتبية، على الصدقة؛ فلما قدم - بها - قال: هذا لكم، وهذا أهْدَى الَّى!

قال راوى الحديث: فقام رسول الله فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

« أما بعد فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله، فيأتى فيقول: هذا لكم، وهذا هدية أهديت إلّى. أفلا جَلَسَ فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً ؟؟. والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه إلا لقى الله يحمله يوم القيامة ! فلا أعرفنَّ أحداً منكم لقى الله يحمل بعيراً له رُغاء، أو

---

(١) آل عمران ١٦١ (٢) الطبرانى (٣) مسلم.

بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رؤى بياضُ أبطيه يقول : اللهم هل بلغت »[1] !!

ومن معانى الأمانة أن تنظر إلى حواسك التى أنعم الله بها عليك ، وإلى المواهب التى خصك الله بها ، وإلى ما حُبيت من أموال وأولاد ، فتدرك أنها ودائع الله الغالية عندك ، فيجب أن تسخّرها فى قُرُباته ، وأن تستخدمها فى مرضاته . فإن امتُحنت بنقص شيء منها فلا يستخفَّنَّك الجزع متوهما ان ملكك المحض قد سُلب منك ، فالله أولى بك منك . وأولى بما أفاء عليك وله ما أخذ وله ما أعطى ! وان امتحنت ببقائها فما ينبغى أن تجبن بها عن جهاد ، أو تفتتن بها عن طاعة ، أو تستقوىَ بها على معصية .

قال الله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [2]

* * *

ومن معانى الأمانة أن تحفظ حقوق المجالس التى تشارك فيها ، فلا تدع لسانك يُفشى أسرارها ، ويسرد أخبارها .

فكم من حبال تقطعت ، ومصالح تعطلت ، لاستهانة بعض الناس بأمانة المجلس ، وذكرهم ما يدور فيه من كلام ، منسوبا إلى قائله . أو غير منسوب .

قال رسول الله ﷺ « إذا حدث رجل رجلا بحديث ثم التفَت ، فهو أمانة »[3] .

وحرمات المجالس تُصَان ، مادام الذى يجرى فيها مضبوطا بقوانين الأدب وشرائع الدين ، وإلا فليست لها حرمة .

وعلى كل مسلم شهد مجلساً يمكر فيه المجرمون يغيرهم ليُلحقوا به الأذى ، أن يسارع إلى الحيلولة دون الفساد جهد طاقته .

---

(١) مسلم (٢) الأنفال . ٢٧ : ٢٨ (٣) أبو داود .

قال رسول الله : « المجلس بالأمانة ، إلا ثلاثة مجالس : مجلس سفْك دمٍ حرام ، أو فرج حرام ، أو اقتطاع مال بغير حق (١) » .

وللعلاقات الزوجية - فى نظر الإسلام - قداسة .

فما يضمه البيت من شئون العِشْرَةَ بين الرجل وامرأته ، يجب أن يُطوى فى أستار مُسبلة ، فلايطلع عليه أحد مهما قرب .

والسفهاء من العامة يُثرثُرونَ بما يقع بينهم وبين أهلهم من أمور ، وهذا وقاحةٌ حرمها الله

فعن أسماء بنت يزيد . أنها كانت عند رسول الله ﷺ ، والرجال والنساء قعود عنده ، فقال : « لعل رجلا يقول ما فعل بأهله ، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها ؟ فأزَمَّ القوم - سكتوا وجلين - فقلت : أى والله يا رسول الله . إنهم ليفعلون ، وإنهن ليفعلن !! قال : فلا تفعلوا ، فإنما مثل ذلك شيطان لقى شيطانة فغشيها والناس ينظرون (٢) » .

وقال رسول الله ﷺ أيضا : « إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يُفْضِي إلى امرأته وتفضى إليه ، ثم ينشر سِرَّها (٣) » .

* * *

والودائع التى تدفع إلينا لنحفظها حيناً ، ثم نردَّها إلى ذويها حين يطلبونها هى من الأمانات التى نسأل عنها ؟ .

وقد استخلف رسول الله ﷺ عند هجرته ابن عمه على بن أبى طالب رضى الله عنه ليسلم المشركين الودائع التى استحفظها . مع أن هؤلاء المشركين كانوا بعض الأمة التى استفزته من الأرض ، واضطرته الى ترك وطنه فى سبيل عقيدته ، لكن الشريف لا يتّضع مع الصَّغار .

(١) أبو داود . (٢) أحمد (٣) مسلم

قال ميمون بن مهران : « ثلاثة يؤدَّينَ إلى البر والفاجر الأمانة ، والعهد ، وصلة الرحم » .

واعتبار الوديعة غنيمة باردة ، هو ضربٌ من السرقة الفاجرة .

عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال[١] : « القتل فى سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة ، قال : يؤتى بالعبد يوم القيامة - وإن قتل فى سبيل الله - فيقال أد أمانتك ! فيقول : أى رب ، كيف وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال : انطلقوا به الى الهاوية ، وتمثلُ له أمانته كهيئتها يوم دُفعت إليه ، فيراها فيعرفها ، فيهوى فى أثرها حتى يدركها فيحملها على منكبيه ، حتى إذا ظن أنه خارج زلت عن منكبيه ، فهو يهوى فى أثرها أبد الأبدين ، ثم قال : الصلاة أمانة ، والوضوء أمانة ، والوزن أمانة ، والكيل أمانة ، وأشياء عدَّدَها ، وأشدُّ ذلك الودائع » .

قال راوى الحديث : فأتيت البراء بن عازب ، فقلت : ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود ؟ قال : كذا ! قال - البراء - صدق ، أما سمعت الله يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [٢]

* * *

والأمانة التى تدعو إلى رعاية الحقوق ، وتعصم عن الدنايا ، لا تكون بهذه المثابة إلا إذا استقرت فى وجدان المرء ، ورست فى أعماقه ، وهيمنت على الداني والقاصى من مشاعره ؟ .

وذاك معنى حديث حذيفة بن اليمان عن رسول الله « إن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة »[٣] .

---

(١) أحمد (٢) النساء : ٥٨ (٣) مسلم

والعلم بالشريعة لا يغنى عن العمل بها ، والأمانة ضمير حىّ إلى جانب الفهم الصحيح للقرآن والسنة .

فإذا مات الضمير انتزعت الأمانة ، فما يغنى عن المرء ترديد للآيات ، ولا دراسة للسنن . وأدعياء الإسلام يزعمون للناس - وقد يزعمون لأنفسهم - أنهم أمناء . ولكن هيهات أن تستقر الأمانة فى قلب تنكر للحق .

ومن ثمَّ يستطرد حذيفة فى وصفه ، لتسرب الأمانة من القلوب التى تخلخل فيها اليقين ، فيروى عن الرسول : « ثم حدثَنا عن رفع الأمانة فقال ؛ ينام الرجل النومة فتنقبض الأمانة من قلبه فيظَل أثرها مثل الوَكْت - هو الأثر المغاير كالنقطة على الصحيفة - ثم ينام الرجل النومة فتنقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المَجْل - كالبثور التى تظهر فى اليد مثلا من استخدام الأدوات الخشنة - ثم قال : فيصبح الناس يتبايعون ، لا يكاد أحد يؤدى الأمانة ؛ حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلا أميناً ، وحتى يقال للرجل : ما أجلده . ما أظرفه . ما أعقله . وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » والحديث يصور انتزاع الأمانة من القلوب الخائنة تصويراً محرجاً فهى كذكريات الخير فى النفوس الشريرة ، تمر بها وليست منها ، وقد تترك فى مَرِّهاَ أثراً لاذعاً . بيد أنها لا تحيى ضميراً مات ، وأصبح صاحبه يزن الناس على أساس أثرته وشهوته ، غير مكترث بكفر أو إيمان !؟

إن الأمانة فضيلة ضخمة ، لا يستطيع حملَها الرجالُ المهازيل . وقد ضرب الله المثل لضخامتها ، فأبان أنها تُثْقل كاهل الوجود كله فلا ينبغى للإنسان أن يستهين بها ، أو يفرط فى حقها .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (١)

---

(١) الأحزاب : ٧٢

والظلم والجهل آفتان عَرضَتا للفطرة الأولى ، وعُلى الإنسان بجهادهما ، فلن يخلص له إيمان ، إلا إذا أنقاه من الظلم :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ﴾ (١)

ولن تخلص له تقوى إلا إذا نَقّاها من الجهاله :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ (٢)

ولذلك ـ بعد أن تقرأ الآية التى حملت الإنسان الأمانة ـ تجد أن الذين غلبهم الظلم والجهل ، خانوا ونافقوا وأشركوا ، فحق عليهم العقاب ، ولم تكتب السلامة إلا لأهل الإيمان والأمانة :

﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٣)

الوفـــاء

إذا أبرم المسلم عقداً فيجب أن يحترمه ، وإذا أعطى عهداً فيجب أن يلتزمه . ومن الإيمان أن يكون المرء عند كلمته التى قالها ، ينتهى إليها كما ينتهى الماء عند شُطآنه ؛ فيعرَفُ بين الناس بأن كلمته موثِقٌ غليظ ، لا خوف من نقضها ولا مطمع فى اصطيادها .

العهد لابد من الوفاء به ، كما أن اليمين لابد من البر بها . ومناط الوفاء والبر أن يتعلق الأمر بالحق والخير وإلا فلا عهد فى عصيان ولا يمين فى مأثم .

وقد قال رسول الله : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ، فليُكفِّر عن يمينه ، وليفعل الذى هو خير (٤) » .

ولا يسوغ لإمرىء الإصرارُ على الوفاء بيمين ؛ الحنث فيها أفضل .

وفى الحديث « لأن يَلجَّ أحدكم بيمينه فى أهله آثم له عند الله تعالى من أن يعطى كفارته التى افترض الله عليه »(٥) .

(١) الأنعام : ٨٢ (٢) : فاطر ٢٨ (٣) الأحزاب ٧٣

(٤) مسلم (٥) البخارى

ومن ثمَّ فلا تعهد إلا بمعروف . فإذا وثق الإنسان عهداً بمعروف فليصرف همته فى إمضائه ، مادامت فيه عين تطْرف ، وليعلم أن منطق الرجولة وهَدْى اليقين ، لا يتركان له مجالاً للتردد والانثناء .

روى أنس بن مالك قال(١) : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال « بدر » فقال : يا رسول الله غبتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين !! لئن أشهدنى الله مع النبى قتال المشركين ليرين ما أصنع !!!

فلما كان يوم « أُحد » انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المشركين - ثم تقدم .. فاستقبله سعد بن معاذ . فقال : يا سعد بن معاذ الجنةَ وربِّ النضر إنى لأجد ريحها من دون أحد !!

قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع ، ثم تقدم ..

قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورميةٍ بسهم ، ووجدناه وقد مثل به المشركون ، فما عرفه إلا أخته ، بشامةٍ فيه ، أو ببنانه ..

قال أنس : كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ (٢)

* * *

والوفاء بالعهد يحتاج إلى عنصرين ، إذا اكتملا فى النفس سَهل عليها أن تنجز ما التزمت به ، فإن الله أخذ على آدم أبى البشر ، عهداً مؤكداً ألا يقرَب الشجرة المحرَّمة ، لكن آدم ما لبث أن نسىَ وضعف ، ثم نكث فى عهده :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ (٣)

فضعف الذاكرة ، وضعف العزيمة ، عائقان كثيفان عن الوفاء الواجب .

---

(١) البخارى (٢) الأحزاب : ٢٣ (٣) طه : ١١٥

والإنسان - لتجدد الحوادث أمامه ، وترادف الهموم المختلفة عليه - يفعل الـزمان فعله العجيب فى نفسه ، فتخبو المعالم الواضحة ، ويمسى ما كان بارزاً فى نفسـه لا يكاد يبين .

ولهذا افتقر إلى مذكر دائم يغالب أمواج النسيان ، ويمسك أمام عينيه ما يوشك أن يذهل عنه . وما أكثر آىَ القرآن التى تواردت لتصون هذا الذكر :

﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١)

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٢)

﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٣)

﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤)

والذكر المطرد اليقظ ، ضرورة لازمة للوفاء . فمن أين لناسى العهد أن يفى به ؟ لذلك ختمت آية العهد بعنصر التذكير

﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٥)

فإذا ذكر المرء الموثق المأخوذ عليه ؛ يجب أن ينضمَّ إلى هذا الذكر عزمٌ مشدَّد على إنفاذه . عزم يذلل الأهواء الجامحة ، ويهوِّن الصعاب العارضة ، عزم يمضى فى سبيل الوفاء مهما تجشّم من مشاقٍّ ، وغرم من تضحيات .

وأقدار الرجال تتفاوت تفاوتاً شاسعاً فى هذا المضمار ؛ فإن ثمن الوفاء قد يكون فادحاً ، قد يكلف المال أو الحياة أو الأحبة .

بيد أن هذه هى تكاليف المجد المنشود فى الدنيا أو الآخرة .

لولا المشقةُ ساد الناس كلهُمُ   الجود يُفقر والإقدام قتَّال

ولقد استنكر القرآن الكريم على بعض الأفهام أن تطلب العلا بالراحة ، وأن ترقب الخير الكثير بالجهاد اليسير .

(١) الأعراف : ٣   (٢) الأنعام : ١٢٦   (٣) الأعراف : ٢٦
(٤) الأعراف : ٥٧   (٥) الأنعام : ١٥٢

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (١)

وعندما يستجمع الانسان الذهن الواعى ، والقلب الكبير ، فهو أهل الوفاء .

* * *

والعهود التى يرتبط المسلم بها درجات ، فأعلاها مكانة ، وأقدسها ذمامًا ، العهدُ الأعظم ، الذى بين العبد ورب العالمين .

فإن الله خلق الانسان بقدرته . ورباه بنعمته ، وطلب منه أن يعرف هذه الحقيقة ، وأن يعترف بها ، وألا تشرُد به المُغويات ، فيجهلَها أو يجحدَها .

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (٢)

وإذا كان هناك من البشر مَنْ لم يستمع إلى المرسلين ويستهدِ بما جاءوا به ، فإن له من فطرته سائقًا يحدوه إلى ربه ، ويبصره بخالقه ، مهما حفلت البيئة بصنوف الفساد ، وضروب التخريف ..

وهذا معنى الميثاق الذى أخذه الله على الناس كافة .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ * وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٣)

وليس هناك حوارٌ كما يوهم ظاهر العبارات . وإنما هذا تصوير لاتجاه الفطرة السليمة الى الله ، وتعرُّفها عليه ، وانتفاعها بالدلائل المبثوثة فى الكون لتوحيده وتمجيده ، وانفلاتها من التقاليد السفيهة التى تباعد عنا ، أو تشرك به .

(١) البقرة ٢١٤ . (٢) يس ٦٠ ـ ٦١ (٣) الأعراف ١٧٢ ـ ١٧٤ .

وهذا الأسلوب شائع عن ألسنةِ العرب :

ومنه المثل السائر « قال الجدار للوتد : لِمَ تَشُقُّنى ! قال : سل من يدقنى !! فإن الذى ورائى ما خلَّانى ورأيى »!!

ووفاء الإنسان بهذا العهد أساس كرامته فى الدنيا ، وسعادته فى الأخرى .

ومن سوء الظن بالله أن توفِى له ثم تتوقعَ الشر منه .

﴿ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ (١)

وقد كان رسول الله - وهو يدعو الناس إلى الاسلام - يبايع الوفود المقبلة عليه بتعاليم - يتخيرها من بين التعاليم الكثيرة التى حفل بها الدين - على حسب ما يرى من طاقتهم النفسية والعقلية .

فعن عوف بن مالك قال : « كنا عند النبى - تسعة أو ثمانية أو سبعة - فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟ فبسطنا أيدينا وقلنا : نبايعك يا رسول الله !

قال : على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، وتصلوا الصلوات الخمس ، وتسمعوا وتطيعوا ، وأسرَّ كلمة خفية قال : ولا تسألوا الناس شيئًا .

قال عوف بن مالك : « فلقد رأيتُ بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم ، فما يسأل أحدًا أن يناوله إياه »(٢) .

فأنظر إلى الوفاءِ بالبيعة ودقة تنفيذها . وليس هذا إلا نصحا لكل طائفة بما تعتبر أحوج إليه ، فالحاكم يُنصَح ألا يظلم ، والتاجر ألا يغش ، والموظف ألا يرتشى .. إلخ . وإلا فكل(٣) مسلم مكلف بالدين كله .. وقد ظهرت فى بلاد الاسلام فرق تعطى عهودًا خاصة ، لا ينبغى الاكترات بها ، فهم كأدعياء الطِّب الذين يصفون الأدوية المزوَّرة فلا تزيد المرضى إلا سقامًا .

---

(١) البقرة ٤٠ . (٢) مسلم . (٣) تعقيب على صدر الموضوع .

وتعاليم الاسلامى كل لا يتجزأ ، والعمل بها واجب مُحكم ، فى كل زمان ومكان .

* * *

وقد بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار : على أن يجندوا أنفسهم وأموالهم لحماية دعوته ، وحراسة رسالته ، حتى يستطيع إبلاغها للعرب ومَنْ وراءهم .

والعهد الذى قطعه الأنصار على أنفسهم يُعَدُّ ألمع المواثيق فى تاريخ العقائد وأدلها على التجرد لله ، والفناء فى الحق .

وقد تم فى ليلة رائعة من موسم الحج ، وعاد الناس بعدها يعالجون شئونهم المختلفة . غير أن تبعات هذا العهد لزمت أصحابه ، فقبلوها عن سماحة وطواعية .

وقدَّموا دماءهم سهلة فى معركة « بدر » وما أعقبها من قتال بين الاسلام والوثنية . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فى الأزمات العَضوض ـ يعتمد على هذا الموثق لِنصرة الدين وإعلاء كلمة الله . فلما انكشف المسلمون فى الجولة الأولى من معركة « حُنَينٌ » أهمل رسول الله الجموع الكثيرة التى دخلت ـ بعدُ ـ فى الاسلام ، وصاح بالأوفياء الذين بايعوه فى العقبة ليلة الموسم لينقذوا الموقف .

عن أنس قال : « لما كان يوم « حُنَين » أقبلت « هوازِن » و « غطفان » وغيرهم بذراريهم ونعمهم ومع رسوال الله يومئذ عشرة آلاف ، ومعه الطلقاء . فأدبروا عنه حتى بقى وحده ..!!

فنادى يومئذ نِداءين ، لم يخلط بينهما شيئا . التفت عن يمينه فقال : يا معشر الأنصار ، فقالوا : لبيك يا رسول الله ، نحن معك أبشر . ثم التفت عن يساره فقال : يا معشر الأنصار ، فقالوا لبيك يا رسول الله ، أبشر نحن معك ... وهو على بغلة بيضاء فنزل فقال : أنا عبدالله ورسوله .

فانهزم المشركون وأصاب غنائم كثيرة ، فقسمها بين المهاجرين والطلقاء . ولم يعط الأنصار منها شيئًا .. فقالوا : إذا كانت الشدة فنحن ندعى ويعطى الغنائم غيرنا ؟؟ فبلغه ذلك فجمعهم ، وقال : يا معشر الأنصار ،

ما شيء بلغني عنكم ؟ فسكتوا ، فقال : يا معشر الأنصار ، أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا ، وتذهبون بمحمد - صلى الله عليه وسلم - تحوزونه الى بيوتكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله رضينا ، فقال رسول الله : لو سلك الناس واديا ، وسلكت الأنصار شِعبا لسلكتُ شِعب الأنصار »[1] .

والحق أن الرسالات الكبرى أحوج ما تكون الى رجال على غرار الأنصار ، يفتدون كلمتهم بأرواحهم وما يملكون ، لا يشغلهم مأرب تافه ، ولا تتبع أنفسهم عرضًا زائلا .

ومسلك الرسول - معهم فى توزيع الغنائم - قام على تقدير إيمانهم وإخلاصهم . فقد تألفَ الأعرابَ بالمال الذى يشتهون ، حتى لا يضجروا من تكاليف الدين الذى اعتنقوه ، ووكل الأنصار إلى ما يَعرف فيهم من يقين راسخ .

وقد قال فى مثل هذه الحالات : « إنى لأعطى الرجل وغيرهُ أحبُّ إلَّى مخافة أن يَكبَّه الله فى النار »[2] .

* * *

ومن الوفاء المحمود أن يَذْكر الرجل ماضيه الذاهب لينتفع به فى حاضره ومستقبله ، فإن كان مُعسرًا فأغناه الله ، أو مريضًا فشفاه الله ، فليس يسوغ له أن يفصل بين أمسه ويومه بسور غليظ ، ثم يزعم أنه ما كان قط فقيرًا ولا مريضًا ، ويبنى على غروره بحاضره مسلكا ، كله فظاظة وجحود .

هذا نوع من الغدر ينتهى بصاحبه إلى النفاق . ربما انطرد به من رحمة الله فلم تتسع بعدئذ له .

رَوَوْا أن رجلا من أهل المدينة يدعى ثعلبة أتى مجلسًا من مجالس الأنصار فأشهدهم : « لئن آتانى الله من فضله آتيتُ منه كلَّ ذى حق حقه ، وتصدَّقت منه ووصلت القرابة . فمات ابن عم له ، فورث منه مالا . فلم يَفِ بشيء مما عاهد عليه ، فنزل قول الله : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن

(١ ٢) البخارى .

فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ (١)

ومن القصص الدالة على شؤم الغدر وعقوق النعمة ، ما رواه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إن ثلاثة من بنى إسرائيل : أبرص ، وأقرع ، وأعمى ، أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا ، فأتى الأبرص فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : لوْن حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عنى الذى قذرنى الناس ، فمسحه فذهب عنه قذَره وأعطى لونًا وجلدًا حسنًا ! فقال : أى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ! فأعطاه ناقة عشراء وقال : بارك الله لك فيها .

ثم أتى الأقرع فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عنى هذا الذى قذرنى الناس ! فمسحه فذهب عنه ، وأعطى شعرًا حسنًا . قال : فأى المال أحب إليك ! قال : البقر ، فأعطى بقرة حاملا وقال : بارك الله لك فيها .

ثم أتى الأعمى فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله علَّى بصرى فمسحه ، فرد الله عليه بصره . قال : فأى المال أحبُّ إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطى شاة والدا(٢) . فأنتج هذان ، وولد هذا . فكان لهذا وادٍ من الأبل ، ولهذا وادٍ من البقر ، ولهذا وادٍ من الغنم .

ثم إنه أتى أى الملكَ الأبرص فى صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن بعيرًا أتبَّلغ به فى سفرى . فقال :

(١) التوبة ٧٥ ـ ٧٨ .   (٢) شاة والدًا : حاملا .

الحقوق كثيرة فقال : كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيرًا فأعطاك الله ؟؟ قال : إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر ؟؟ قال : إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأقرع فى صورته ، فقال له مثل ذلك ، ورد عليه مثل مارد الأول فقال إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ماكنت .

ثم أتى الأعمى فى صورته وهيئته ، فقال له مثل ما قال . فقال : قد كنت أعمى فرد الله علىّ بصرى . فخذ ما شئت ودع ما شئت فو الله لا أجهدك اليوم لشيء أخذته لله !! فقال : أمسك مالك ، فإنما ابتليتم ؛ فقد رُضى عنك ؟ وسخط على صاحبيك (١) !».

والإسلام يوصى باحترام العقود ، التى تسجل فيها الالتزامات وغيرها ، ويأمر بإنفاذ الشروط التى تتضمنها .

وفى الحديث : « المسلمون عند شروطهم(٢)! » .

ولا شك أن انتشار الثقة فى ميدان التجارة وفى شتى المعاملات الاقتصادية أساسُه افتراض الوفاء فى أى تعهد .

ويجب أن تكون الشروط المكتوبة ، متفقة مع حدود الشريعة ، وإلا فلا حرمة لها ، ولا يكلف المسلم بوفائها .

وقد منح الإسلام عقد الزواج مزيداً من الرعاية فقال رسول الله : « إن أحق ما وفيتم به من الشروط ما استحللتم به الفروج » .

ومن ثَمَّ فليس يجوز لرجل بنى بامرأة ، أن يغتال درهما من حقها ، أو يستخف بالرباط الذى جمعه بها .

وفى الحديث : « أيما رجل تزوج امرأة - على ما قل من المهر أو كثر - ليس فى نفسه أن يؤدى إليها حقها ، خدعها ، فمات ولم يؤد إليها حقها لقى الله يوم القيامة وهو زان ! وأيما رجل استدان دينًا ، لا يريد أن يؤدى إلى صاحبه حقه .

---

(١) البخارى . (٢) البخارى .

خدعه حتى أخذ ماله ، فمات ولم يؤد إليه دَيْنه ، لقى الله وهو سارق (١) » !.

ولا غرو ، فقد تتابعت آيات القرآن ، تحض على الوفاء وتخوف من الغدر : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ (٢) وقال تعالى

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣)

وقد بين الله عز وجل أن الغدر ينزع الثقة ، ويثير الفوضى ، ويمزق الأواصر ، ويرد الأقوياءَ ضعافًا واهنين ، فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (٤)

إن الرجل قد يحل عقداً أبرمه ، ينتظر ربحاً أوفر من عقد آخر ، وإن الأمة قد تطرح معاهدة بينها وبين أمة أخرى ، جريا وراء مصلحة أحظى لديها .. والدين يكره أن تداس الفضائل فى سوق المنفعة العاجلة ، ويكره أن تنطوى دخائل الناس على هذه النيات المغشوشة ، ويوجب الشرف على الفرد والجماعة حتى تصان العقود على الفقر والغنى ، وعلى النصر والهزيمة .

ولذلك يقول الله ـ بعد الأمر الجازم باحترام العهود ـ

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٥)

* * *

والوفاء بالحق واجب مع المؤمن بالإسلام ومع الكافر به .

فإن الفضيلة لا تتجزأ ، فيكون المرء خسيساً مع قوم ، كريماً مع آخرين .

(١) الطبرانى . (٢) الإسراء ٣٤ . (٣ ، ٤) النحل :٩١ ، ٩٢ . (٥) النحل : ٩٤ ، ٩٥ .

والمدار على موضوع العهد ، فمادام خيراً فإقراره حتم مع كل فرد ، وفى كل حين

وقد قال رسول الله ﷺ - فى حلف الفضول[١] - : « لو دُعيتُ به فى الإسلام لأجبت » .

وعن عمرو بن الحمق قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أيما رجلٍ أمن رجلا على دمه ، ثم قتله ، فأنا من القاتل برىء ، وإن كان المقتول كافرًا [٢] » .

وهذا البيان الحاسم ، يكشف عن روح الإسلام فى معاملة من لم يدينوا به فبينا ترى اليهود ينكرون على غيرهم حق الوفاء ، ويضنون عليهم بنبل المعاملة ، ويحسبون أنهم وحدهم « أبناء الله وأحباؤه » وأن الله جعل رحمته وأمانه لشعب إسرائيل فقط ، ترى الإسلام يدفع - بحمية بالغة - عمن منحهم ذمته وأدخلهم فى عقده ، ويتحدث عن الكافرين إلى المسلمين حديثًا له مغزاه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [٣]

فانظر كيف صوّرت الآية وجهة نظر الكفار ، وتمشت مع مزاعمهم وهم وثنيون ، فاعتبرتهم طلاب فضل من الله ورضوان ، وطلبت من المسلمين - مهما قوُوا - أن يتعاونوا على البرِّ والتقوى ، لا على الإثم والعدوان ؟.

وقد تكلمنا فى موضوع آخر[٤] عن المعاهدات بين المسلمين وغيرهم ، وعن التعاليم التى انزل الله بشأنها ، فليرجع اليه من شاء .

* * *

(١) هو حلف تم فى الجاهلية . (٢) ابن حبان .

(٣) المائدة : ٢ (٤) كتابينا : تأملات فى الدين والحياة ،والتعصب والتسامح .

ومن الشئون التى اهتم الإسلام بها ، ونوَّه بقيمة الوفاء فيها ، الديون فإن سدادها من آكد الحقوق عند الله . وقد قطع الدِّين قطعًا عنيفًا وساوس الطمع التى تنتاب المدين وتغريه بالمطال ، أو إرجاء القضاء .

وأول ما شرعه الإسلام فى هذا أن حرم الاستدانة إلا للحاجة القاهرة فمن الورطات المخوفة ، أن يقترض المرء فى أمور ، يمكن الاستغناء عنها .

بل لقد روى أن ذلك من الآثام التى يلحقها القصاص :

« إن الدَين يُقتصُّ من صاحبه يوم القيامة إذا مات ، إلا من تدين فى ثلاث خلال : الرجل تضعف قوته فى سبيل الله ، فيستدين يتقوَّى به على عدوٍّ الله وعدوِّه ، ورجل يموت عنده مسلم ، فلا يجد ما يُكفنه ويواريه إلا بدين ! ورجل خاف على نفسه العزوبة ، فينكح خشية على دينه ! فإن الله يقضى عن هؤلاء يوم القيامة (١) » .

وفى رواية : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يدعو الله بصاحب الدَّين يوم القيامة ، حتى يوقف بين يديه . فيقال : يا ابن آدم ، فيم أخذت هذا الدين ؟ وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول : يارب إنك تعلم أنى أخذته فلم آكل ، ولم أشرب ، ولم ألبسَ ، ولم أضيِّع ؛ ولكن أتى علىَّ إما حرَق ، وإما سرَق ، وإما وضيعة ! فيقول الله : صدق عبدى ، أنا أحق من قضى عنك ، فيدعو الله بشيء فيضعه فى كفة ميزانه ، فيرجح حسناته على سيئاته ، فيدخل الجنة بفضل رحمته (٢) » .

ويظهر من هذا أن الله يعذُر من يُضطر إلى الدَّين لأزمات شداد ، ومن يعجز عن القضاء لمصائبَ جائحة .

أما الذى تمر بنفسه شهوة طارئة ، ويضعف عن إجابتها من ماله ، فيسارع

---

(١) ابن ماجة (٢) احمد

إلى الاقتراض من غيره ، غير ناظر إلى عقباه ، ولا مهتم بطريقة الخلوص من دَيْنه فهو - كما وصفته الآثار - سارق جرىء .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها ، أتلفه الله (١) » .

والإسلام يريد أن يوفر للديون ضمانات شتى ، حتى تعتبر أموالا حية ، وحتى يرى الوفاء بها ضربة لازب ، وحتى لا يحاول أحدٌ الفرار من أداء الحق المكتوب ، ولو بأداء عبادات أخرى رفيعة الأجر .

عن أبى قتادة رضى الله عنه : « قال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إن قتلت فى سبيل الله ، أتكفَّر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، إن قُتلْت وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر ! ثم قال : كيف قلت ؟ فأعاد . قال : نعم إلا الدَّيْن ، فإن جبريل أخبرنى بذلك (٢) » .

وفى رواية أخرى : « يغفر للشهيد كلُّ ذنب إلا الديَّن (٣) » .

ولما علمه العقلاء من خطر الدين على آخرة المسلم ومنزلته كانوا ينصحونه بالتخلص منه ، قبل أن يُقدم على أى مخاطرة ، قد تودى بحياته .

فعن أبى الدرداء : « أنه كان يقف حين ينتهى إلى الدرب فى ممر الناس إلى الجهاد ، فينادى نداء يُسمع الناس : يأيها الناس ، من كان عليه دَيْنٌ يظن أنه إن أصيب فى وجهه هذا لم يدع له وفاء فليرجع ، ولا يتبعنى فانه لا يعود كفافًا (٤) » .

وقد استهان المسلمون بالديون فاقترضوها لشهوات الغىّ فى البطون والفروج ، واقترضوها من اليهود والنصارى بالربا الذى حرَّمه الله تحريمًا باتًا ، فكان من آثار ذلك أن نُكبوا نكباتٍ جائحةً فى ديارهم وأموالهم .

---

(١) البخارى .
(٢) مسلم .
(٣) مسلم .
(٤) رزين .

ولا يزال الوفاء بالقروض مستعصيًا ..

ولولا سياط القانون لضاعت حقوق كثيرة ..

إن الله عزَّ وجلَّ يحب الأوفياء من عباده ، وما أهلك القرى الظالمة إلا بعد أن قال فى أهلها :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ (١)

الإخــلاص

إن البواعث التى تسوق المرء إلى العمل ، وتدفعه إلى إجادته ، وَتُغْريه بتحمل التعب فيه ، أو بذل الكثير من أجله ، كثيرة متباينة .

منها القريب الذى يكاد يُرَى مع العمل ، ومنها الغامض الذى يختفى فى أعماق النفس .

وربما لا يدركه العامل المتأثر به ، مع أنه سر اندفاعه فى الحقيقة إلى فعل ما فعل ، أو ترك ما ترك .

والغرائز البشرية المعروفة هى قواعد السلوك العام ، ومن اليسير أن ترى فى حركات رجل أمامك حُبَّهُ لنفسه ، أو طلبه للسلامة ، أو حرصه على المال ، أو ميله للفخر ، أو تطلعه للظهور .

وما أكثر ما تكون مشاعر الاعجاب أو الكراهية أو المحاكاة أو الكبرياء مصدر ما يدور بين الناس من حديث ، وما يقع بينهم تصرفات ..

والإسلام يرقب ، بعناية فائقة ، ما يقارن أعمال الناس من نيات ، وما يلابسها من عواطف وانفعالات .

وقيمة العمل عنده ترجع ـ قبل كل شيء ـ إلى طبيعة البواعث التى تمخضت عنه . قد يعطى الإنسانُ هبة جزيلة ، لأنه يريد بصنائع المعروف أن يستميل إليه القلوب ، وقد يعطيها لأنه يريد أن يجزى خيرًا من سبقوا فأسدَوا إليه خيرًا .

---

(١) الأعراف : ١٠٢ .

وكلا المسلكين كرم دفع إليه شعور المرءِ بنفسه : سلبًا أو إيجابًا كما يعبر علماء النفس ولكن الإسلام لا يعتد بالصدقة الا اذا خلصت من شوائب النفس ، وتمخضتْ لله وحده على ما وصف القرآن الكريم :

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (١)

﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ (٢)

ولتصحيح اتجاهات القلب ، وضمان تجرده من الأهواء الصغيرة ، قال رسوال الله ﷺ : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه(٣)» .

إن ألوف المسافرين يقطعون المسافة بين مكة والمدينة ، لأغراض شتى ولكن نية الانتصار للدين والحياة به ، هى التى تفرق بين المهاجر والمسافر ! وإن كانت صورة العملين واحدة !

فمن ترك مكة إلى المدينة ، فرارا بدينه من الفتن ، وإقامة لصرح الدولة الجديدة فى بلدها الجديد ، فهو المهاجر ، وأما من رحل لشئون أخرى فليس من الهجرة فى شيء .

إن صلاح النية وإخلاص الفؤاد لرب العالمين ، يرتفعان بمنزلة العمل الدنيوى البحت ، فيجعلانه عبادة متقبلة .

وإن خُبث الطوية ، يهبط بالطاعات المحضة ، فيقلبها معاصى شائنة فلا ينال المرء منها ، بعد التعب فى أدائها؛ إلا الفشل والخسار .

قد يبنى الإنسان قصرًا منيف الشُرفات ، فسيح الرَّدَهات ، وقد يغرس حديقة

---

(١) الإنسان : ٩ .   (٢) الليل : ١٨ - ٢١ .   (٣) البخارى .

ملتفة الأغصان متهدِّلة الأثمار ، وهو بين قصره المشيد ، وبستانه النضيد ، يعدُّ من ملوك الدنيا . بَيدَ أنه إذا قصد من وراء بنيانه وغراسه نفع الناس ، كان له فيهما ثوابٌ غير مقطوع .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من بنى بنيانًا فى غير ظلم ولا اعتداء أو غرس غرسا فى غير ظلم ولا اعتداء ، كان له أجرًا جاريًا ، ما انتفع به أحد من خلق الرحمن تبارك وتعالى »(١) !

وقال : « ما من مسلم يَغرس غرسًا ، أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان إلا كان له به صدقة »(٢) .

بل إن اللذاذات التى تتشهاها النفس ، إذا صاحبتها النية الصالحة والهدف النبيل ، تحوَّلت إلى قرُبات .

فالرجل يواقع امرأته ، يريد أن يحفظ عفافه ويصون دينه ، له فى ذلك أجر « وفى بضع أحدكم صدقة » .

وما يطعمه فى بدنه ، أو يُطعمه أولاده وزوجته ، له مثوبة بنية الخير التى تقارنه .

عن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « إنك لن تنفق نفقة ، تبتغى بها وجه الله ، إلا أجرت عليها ، حتى ما تجعله فى فم امرأتك »(٣) .

وقال : « ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة ، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة ، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة ، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة »(٤) .

والحق أن المرء ما دام قد أسلم لله وجهه وأخلص نيته ، فإن حركاته وسكناته ونوْماته ويقظاته ، تحتسب خطوات إلى مرضاة الله ؛ وقد يعجز عن عمل الخير الذى يصبو إليه ، لقلة ماله أو ضعف صحته ؛ ولكن الله المطلع على خبايا

---

(١) أحمد .
(٢) مسلم .
(٣) البخارى .
(٤) أحمد .

النفوس يرفع الحريص على الإصلاح إلى مراتب المصلحين ، والراغبَ فى الجهاد الى مراتب المجاهدين لأن بعدَ همتهم أرجحُ لديه من عجز وسائلهم ؟

حدث فى غزوة العسرة ، أن تقدم إلى رسول الله رجال يريدون أن يقاتلوا الكفار معه ، وأن يجودوا بأنفسهم فى سبيل الله ، غير أن الرسول لم يستطع تجنيدهم ، فعادوا وفى حلوقهم غصة ؛ لتخلفهم عن الميدان وفيهم نزل قوله عز وجل

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ (١)

أترى أن الله يهدر هذا اليقين الراسخ ، وهذه الرغبة العميقة فى التضحية ؟ كلا ؟ ولذلك نوَّه النبىّ صلى الله عليه وسلم بإيمان أولئك القوم وإخلاصم .

فقال للجيش السائر : « إن أقوامًا خلفنا بالمدينة ، ما سلكنا شِعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا ؛ حبسهم العذر »(٢) ؟

إن النية الصادقة سجلت لهم ثواب المجاهدين ، لأنهم قعدوا راغمين .

ولئن كانت النية الصالحة تضفى على صاحبها هذا القبول الواسع ، إن النية المدخولة تنضم إلى العمل الصالح - فى صورته - فيستحيل بها إلى معصية تستجلب الويل .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ (٣)

إن الصلاة مع الرياء ، أمست جريمة ، وبعد ما فقدت روح الإخلاص باتت صورة ميتة لا خير فيها ، وكذلك الزكاة ، إنها إن صدرت عن قلب يسخو لله ويدخر عنده قبلت ، وإلا فهى عمل باطل :

﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ﴾ (٤)

(١) التوبة . ٩٢ . (٢) البخارى . (٣) الماعون . ٤ - ٧ . (٤) البقرة : ٢٦٤ .

إن القلب المقفر من الإخلاص ، لا ينبت قبولاً ، كالحجر المكسوّ بالتراب لا يخرج زرعًا ؟

والقشور الخادعة ، لا تغنى عن اللباب الردىء شيئًا ؟

ألا ما أنفس الإخلاص ، وأغزر بركته ، إنه يخالط القليل فينميه حتى يزن الجبال ، ويخلو منه الكثير فلا يزن عند الله هباءة ؛

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « أخلص دينك يكفك العملُ القليل »(١) .

ويظهر أن تفاوت الأجور التى رُصدت للحسنات ، من عشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف ، إلى . يعود إلى سر الإخلاص الكامن فى أطواء الصدور وهو ما لا يطلع عليه إلا عالم الغيب والشهادة .

فعلى قدر نقاء السريرة ، وسعة النفع تكتبُ الأضعاف .

وليس ظاهر الإنسان ، ولا ظاهر الحياة الدنيا ، هو الذى يمنحه الله رضوانه ، فإن الله تبارك وتعالى يقبلُ على عباده المخبتين المخلصين ، ويقبل منهم ما يتقربون به إليه . أما ما عدا ذلك من زخارف الدنيا وتكلفات البشر فلا قيمة له ولا اكتراث به .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم (٢) » .

وفى الحديث : « إذا كان يومُ القيامة جىء بالدنيا ، فيميز منها ما كان لله وما كان لغير الله ، رُمى به فى نار جهنم »(٣) .

فمن ربط حياته بهذه الحقائق ، فقد استراح فى معاشه ، وتأهب لمعاده ، فلا يضيره ما فقد ، ولا يحزنُه ما قدم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، فارقها والله عنه راض »(٤) .

---

(١) الحاكم . (٢) مسلم . (٣) البيهقى . (٤) ابن ماجه .

وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ (١)

* * *

والإخلاص يسطع شعاعه فى النفس ، أشد ما يكون تألقًا فى الشدائد المحرجة ، إن الإنسان عندها ينسلخ من أهوائه ، ويتبرأ من أخطائه ويقف فى ساحة الله أوابا ، يرجو رحمته ويخاف عذابه .

وقد صور القرآن الكريم ، فزع الإنسان عند الحيرة ، وانقطاعه إلى ربه يستنجد به ، ليخرجه من مأزقه الذى وقع فيه :

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ (٢)

إن هذا الإخلاص حالٌ طارئة ، والأحوال التى تنتاب المرء وتفارقه ليست خُلقًا ، والله تبارك وتعالى يريد من الناس أن يعرفوه حق المعرفة ، وأن يقدروه حق قدره ، فى السراء والضراء جميعًا ، وأن يجعلوا الإخلاص له مكينًا فى سيرتهم فلا تهى صلتهم به ، ولا يقصدون بعملهم غيره .

وحرارة الإخلاص تنطفىء رويدًا رويدًا ، كلما هاجت فى النفس نوازع الأثرة وحب الثناء ، والتطلع إلى الجاه وبعد الصيت ، والرغبة فى العلو والافتخار ، وذلك لأن الله يحب للعمل النقىَّ من الشوائب المكدِّرة .

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ (٣)

وطبيعة الفضيلة كطبيعة الثمرة الناضجة ، يجب لسلامتها والابقاء على نظافتها وحلاوتها ، أن تكون خالية من العطوب والآفات !!

---

(١) البينة : ٥ . (٢) الأنعام : ٦٣ ، ٦٤ (٣) الزمر : ٣ .

وقد أعلن الإسلام كراهيته العنيفة للرياء فى الأعمال الصالحة ، واعتبره شركاً بالله رب العالمين .

والحق أن الرياء من أفتك العلل بالأعمال . وهو إذا استكمل أطواره وأتم دَوْرته فى النفس ، كما تستكمل جراثيم الأَوبئة أطوارها ودروتها . أصبح ضَرْباً من الوثنية ، التى تقذف بصاحبها فى سواء الجحيم .

قال رسول الله ﷺ : « اليسير من الرياء شرك ، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء ، الذين إن غابوا لم يفتقدوا ، وإن حضروا لم يعرفوا : قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة »(١) .

وعن ابن عباس : قال رجل : يا رسول الله إنى أقف الموقف أريد وجه الله ، وأريد أن يرى موطنى . فلم يردّ عليه رسول الله ﷺ حتى نزلت :

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (٢)

وإنما كانت حملات الإسلام على الرياء - وغيره من العلل الناشئة عن فقد الاخلاص - على ما هى عليه من الشدة ، لأنها فساد معقد ، وطريقة ملتويةٌ فى التنفيس عن الشهوات المكبوتة .

فالرذيلة السافرة تولد جريمة ، وتسير فى المجتمع جريمة ، فهى منكورة محقورة . ولعل صاحبها ، لشعوره بسوئها ، يتوب منها على عجل أو على مهل . .

أما الرذيلة التى تظهر فى لباس من الطاعة المطلوبة ، فهى رذيلة مرهوبة الشر على صاحبها وعلى المجتمع .

ذلك أن صاحبها يقترفها وهو يشبع نهمَ نفسه ، فى الوقت الذى يتوهم فيه أنه يرْضِى الله . . فكيف يحس أنه ارتكب إثماً ؟ وكيف يتوب مما يفترض أنه خير ؟

أما المجتمع العام فمصائبه من الفضلاء المنافقين ، أنْكى من مصائبه التى ينزلها به معتادوا الاجرام من الصعاليك .

---

(١) الحاكم .   (٢) الكهف . ١١٠ .

إن ضعف الاخلاص عند كثير من ذوى المواهب ، جعل البلاد تشقى بمواهبهم وترجع القهقرى .

ثم إن تلويث الفضيلة بأقذار الهوى عدْوان على منزلتها ، ومحاولة متعمدة لاسقاط قيمتها . وهذا جرْمٌ آخر ، ينشأ عن فقدان الاخلاص ، والرجل الذى يقصد بعمله وجه الناس ، ويذهل عن وجه ربه ، رجل لا يدرى - لسفاهته - حطة ما يصنع . إنه ينصرف عن القوى الغنى ، ذى الجلال والاكرام إلى الضعاف الفقراء الذين لا حول لهم ولا طول ولذلك قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ، ليوم لا ريب فيه ، نادى مناد : من كان أشرك فى عمله لله أحداً ، فليطلب ثوابه من عنده ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك »[1] .

* * *

على العسكريين - جنوداً أو قادة - أن يجعلوا جهادهم منزها عن الشوائب ، فقد ربطوا حياتهم ومماتهم بواجب مقدَّس ، تصغر إلى جانبه الألقاب والرتب والشارات ، فليؤثروا ما عند الله ، وليقفوا أمانيهم على التضحية المرتقبة والفداء العزيز .

عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، قلت : يا رسول الله ، أخبرنى عن الجهاد والغزو فقال : « يا عبدالله بن عمرو ، إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً . وإن قاتلت مرائياً مكاثراً ، بعثك الله مرائياً مكاثراً . يا عبدالله بن عمرو : على أى حال قاتلت أو قتلت ، بعثك الله على تلك الحال »[2] .

* * *

وعلى الموظف ، وهو فى ديوانه ، أن يعتد ما يكتبه ، وما يحسبه ، وما يَكدُّ فيه عقله ، ويتعب فيه يده ، عملا يقصد به مصلحة البلاد ورضا الله .

إن الدابة قد تكدح سحابة النهار ، نظير طعامها . والإنسان قد يهبط بقيمة جهده إلى مستوى الحيوان ، فيكون عمله لقاء راتبه فحسب .

---

(١) للترمذى   (٢) أبو داود

لكن الرجل العاقل يغالى بتفكيره ونشاطه ، فيجعلهما لشىء أجلّ .

ومن المؤسف أن هناك جمهوراً من الموظفين لا يفقهون إلا منطق المال والدرجة والترقية . ويحتبسون بدينهم ودنياهم داخل هذا النطاق ، ويربطون رضاهم وسخطهم ، وفتورهم ونشاطهم بميزانه المضطرب .

قال رسول الله ﷺ : « إذا كان آخر الزمان صارت أمتى ثلاث فرق : فرقة يعبدون الله خالصاً ، وفرقة يعبدون الله رياء ، وفرقة يعبدون الله ليستأكلوا به الناس فإذا جمعهم الله يوم القيامة قال للذى يستأكل الناس : بعزّتى وجلالى ما أردت بعبادتى ؟ فيقول : وعزتك وجلالك أستأكل بها الناس . قال : لم ينفعك ما جمعت ، انطلقوا به إلى النار . ثم يقول للذى كان يعبد رياء : بعزّتى وجلالى ما أردت بعبادتى ؟ قال : بعزّتك وجلالك رياء الناس ! قال لم يصعد إلّى منه شيء ، انطلقوا به إلى النار . ثم يقول للذى كان يعبده خالصاً : بعزّتى وجلالى ما أردت بعبادتى ؟ قال : بعزّتك وجلالك أنت أعلم بذلك من أردت به ، أردت به ذكرك ووجهك . قال صدق عبدى ، انطلقوا به الى جنة »[1] .

* * *

والإخلاص العميق ، ألزم ما يكون لميادين العلم والثقافة ، فإن العلم أشرف ما ميز الله به الأكرمين من خلقه . فمن الزراية الشنيعة به أن يُسَخّر لعوامل الشر ، وأن تختلط به الأهواء والفتن ، والعالم لم تصبه الجراحات القاتلة إلا على أيدى علماءَ ، فقدوا الخلق الفاضل ، والنزاهة المحمودة .

وقد أوجب الإسلام على الأستاذ والطالب جميعاً ، أن يتجردا للعلم ، وأن ينظرا قبل كل شيء إلى المثل العالية والمصلحة العامة . والتعلم والتعليم ابتغاء المال وحده وتَلهُّفاً على المنفعة الشخصية المحضة ، كما هو ديدن الألوف اليوم ، هو فى الحقيقة استهانة بقيمة العلم ، وإضاعة لرسالته الجليلة .

---

(١) الطبرانى .

قال رسول الله ﷺ : « من تعلم علماً مما يُبتغَى بــه وجَــه الله تعــالى ، لا يتعلمه إلا ليصيب عَرضاً من الدنيا ، لم يجد عَرْف(١) الجنة يوم القيامة »(٢) .

وقد كره الإسلام كذلك أن يطلب المرء العلم ، حتى إذا نبغ فيه استكبر به على الناس ، واتخذه وسيلة للشغب والمراء .

وفى الحديث : « لا تعلموا العلم لتُباهوا بــه العلمــاء ، ولا تمــاروا بــه السفهاء ، ولا تخيّروا به المجالس ، فمن فعل ذلك فالنار النار »(٣) .

إن العلم ـ على اتساع فنونه الدنيوية والأخروية ـ لم يزدهر ويصل إلى المـرحلة التى بلغها إلا بالتجرد الحق ، والتعالى عن الأغراض الصغيرة . وهـذا لا يعنـى ألبتة أن يكلف العلماء والمتعلمون بتحمـل مشـاق العيش . والتعـرض لـلأزَمات المحرجة ، فإن إخلاص النية ، لا يستلزم إعنات المخلص ، وتحميله الأذى .

والعلل الناشئة عن فقدان الإخلاص كثيرة ، وهـى إذا اسـتفحلت استأصلت الإيمان ، وإذا قَلّت تركت به ثُلما شتى ، ينفذ منها الشيطان .

وإنما يسخَط الله عز وجل ، على ذوى الأغراض والمرائين وغيرهم ، من عباد المال والجاه ، لأن المفروض فى المسـلم ، أن يضـحى بـالأغراض والعـلاقات والشهوات فى سبيل الله ، لا أن يَذهل عن وجه ربه فى سبيلها .

وقد كان سحرة فرعون ، آية فى اليقين الصحيح والإخلاص العـالى ، عنـدما رفضوا الإغراء ، وحقروا الإرهاب ، وداسوا حب المال والجـاه ، وقـالوا للملك الجبار :

﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (٤)

وشتان بين هؤلاء الذين يستهينون بالدنيا فى سبيل الله ، وبين الذين يسـخّرون الدين نفسه فى التقرب من كبير ، أو الاستحواذ على عرض حقير .

---

(١) عرف الجنة : ريحها (٢) أبو داود . (٣) ابن ماجه . (٤) طه ٧٢ ، ٧٣

أدب الحديث

نعمة البيان من أجلّ النعم التى أسبغها الله على الإنسان ، وكرّمه بها على سائر الخلق :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾(١)

وعلى قدر جلال النعمة يعظم حقها . ويُستوجب شكرها ، ويُستنكر كنودها .

وقد بَيَّنَ الإسلام كيف يستفيد الناس من هذه النعمة المسداة ، وكيف يجعلون كلامهم الذى يتردد سحابةَ النهار على ألسنتهم طريقاً إلى الخير المنشود . فإن أكثر الناس لا ينقطع لهم كلام ولا تهدأ لألسنتهم حركة .

فإذا ذهبتَ تحصى ما قالوا . وجدت جُلة اللغوَ الضائع أو الهذَر الضارّ ، وما لهذا ركّبَ الله الألسنة فى الأفواه ، ولا بهذا تُقدَّر الموْهبة المستفادة :

﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢)

وقد عُنىَ الإسلام عناية كبيرة ، بموضوع الكلام ، وأسلوب أدائه ، لأن الكلام الصادر عن إنسان ما ، يشير إلى حقيقة عقله وطبيعة خُلقه ، ولأن طرائق الحديث فى جماعة ما ، تحكم على مستواها العام ، ومدى تغلغل الفضيلة فى بيئتها .

* * *

ينبغى أن يسائل المرء نفسه قبل أن يتحدث إلى الآخرين .

هل هناك ما يستدعى الكلام ؟ فإن وجَد داعياً إليه تكلم ، وإلا فالصمت أولى به . وإعراضه عن الكلام حيث لا ضرورة له عبادة جزيلة الأجر .

قال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه : « والذى لا إله غيره ، ما على ظهر الأرض شىء أحوج إلى طول سجن من لسان »(٣) .

وقال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما : « خمس ، لهم أحسنً من الدُّهم

(١) الرحمن ١ ـ ٤ (٢) النساء : ١١٤ (٣) الطبرانى .

الموَقفة(١) : لا تتكلم فيما لا يَعنيك ، فإنه فضل ، ولا آمن عليك الوزر . . ! ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً . فإنه رب متكلم فى أمر يعنيه قد وضعه فى موضعه ، فعيب . . !

ولا تُمار حليما ولا سفيهاً فإن الحليم يَقليك ، وإن السفيه يؤذيك . . ! وأذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به ، وأعفه مما تحب أن يُعفيك منه . !

واعمل عمل رجل يرى أنه مُجازَى بالاحسان ، مأخوذٌ بالإجرام »(٢) .

والمسلم لا يستطيع هذا إلا إذا ملك لسانه ، وسيطر على زمامه بقوة ، فكبحه حيث يجب الصمت ، وضبطه حين يريد المقال .

أما الذين تقودهم ألسنتهم فإنما تقودهم إلى مصارعهم . . !

* * *

إن للثرثرة ضجيجاً يذهب معه الرشد ، وأكثر الذين يتصدرون المجالس . ويتحدَّر منهم الكلام متتابعا ، يجزم مستمعهم بأنهم لا يستمدون حديثهم من وعَى يقظ ، أو فكر عميق ، وربما ظن أن هناك انفصالا بين العقل وهذا الكلام المسترسل !

والمرء حين يريد أن يستجمع أفكاره ويراجع أعماله يجنَح إلى الصمت ، بل إنه حين يريد أن يبصر نفسه ويرتب ذهنه ، يفر من البيئة الصاخبة إلى ريف صامت ، أو ضاحية هادئة . فلا جرم أن الإسلام يوصى بالصمت ، ويعدُّه وسيلة ناجحة من وسائل التربية المهذِّبة .

فمن نصائح رسول الله ﷺ لأبى ذر : « عليك بطول الصمت ، فإنه مطردة للشيطان ، وعون لك على أمر دينك (٣) » .

أجلْ إن اللسان حبْلٌ مُرخى فى يد الشيطان يصرِّف صاحبه كيف شاء ، فإذا لم يملك الإنسان أمره ، كان فمه مدخلا للنُّفايات التى تُلوِّث قلبه وتضاعف فوقه حجب الغفلة .

---

(١) الموقف من الخيل الجيد منها . (٢) ابن أبى الدنيا . (٣) أحمد .

وقال قال رسول الله ﷺ : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه »(١) .

وأول مراحل هذه الاستقامة ، أن ينفض يديه مما لا شأن له به ، وألا يُقحم نفسه فيما لا يُسأل عنه : « من حُسن ايمان المرء تركه مالايعنيه »(٢)

* * *

والبعد عن اللغو من أركان الفلاح ، ودلائل الاكتمال ، وقد ذكره القرآن الكريم بين فريضتين من فرائض الإسلام المحكمة ، هما الصلاة والزكاة :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ (٣)

ولو أن العالَم أجمعَ . أحصى ما يشغل فَراغه من لغو فى القول والعمل ، لرَاعهُ أن يجد أكثر القصص المنشورة ، والصحف المشهورة ، والخطب واذاعات لغواً مطرداً ، تعلق به الأعين ، وتميل إليه الآذان ، ولا ترجع بطائل !

وقد كره الإسلام اللغو ؛ لأنه يكره التفاهات وسفساف الأمور . ثم هو مضيعة للعمر ، فى غير ما خلق الإنسان له من جدٍّ وإنتاج .

وبقدر تنزّه المسلم عن اللغو ، تكون درجته عند الله .

عن أنس بن مالك قال : توفى رجل ، فقال رجل آخر - ورسول الله ﷺ يسمع : أبشر بالجنة . فقال رسول الله : أو لا تدرى ؟ فلعله تكلم فيما لا يعنيه ، أو بخل بما لا ينقصه »(٤).

واللاغى ، لضعف الصلة بين فكره ونطقه ؛ يرسل الكلام على عواهنه : فربما تذف بكلمة سببت بوَاره ودمرت مستقبله ، وقد قيل : من كثر لغطه كثر غلطه ؛ وقال الشاعر :

يموت الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرّجل

وفى الحديث : « إن العبد ليقول الكلمة ، لا يقولها إلا ليضحك بها

---

(١) أحمد . (٢) الترمذى . (٣) المؤمنون . ١ - ٤ (٤) الترمذى .

المجلس ؛ يهوى بها أبعد ما بين السماء والأرض ؟ وإن المرء ليزلُّ عن لسانه أشدَّ مما يزلُّ عن قدميه ؟ (١) » .

* * *

فإذا تكلم المرء فليقل خيراً وليعوّد لسانه الجميل من القول ، فإن التعبير الحسن عما يجول فى النفس أدبٌ عال ؛ أخذ الله به أهل الديانات جميعاً .

وقد أوضح القرآن أن القول الحسن من حقيقة الميثاق المأخوذ على بنى إسرائيل على عهد موسى .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (٢)

والكلام الطيب العفُّ ، يجمل مع الأصدقاء والأعداء جميعاً ، وله ثماره الحلوة .

فأما مع الأصدقاء فهو يحفظ مودَّتهم ، ويستديم صداقتهم ، ويمنع كيد الشيطان أن يُوهى حبالهم ويفسد ذات بينهم :

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (٣)

إن الشيطان متربص بالبشر ، يريد أن يُوقع بينهم العدواة والبغضاء ، وأن يجعل من النزاع التافه ، عراكاً دامياً ولن يَسدَّ الطريق أمامه كالقول الجميل .

وأما حسن الكلام مع الأعداء فهو يطفىء خصومتهم ، ويكسرْ حِدَّتهم أو هو على الأقل يقف تطور الشر واستطارة شَرَره .

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٤)

---

(١) البيهقى . (٢) البقرة ٨٣ . (٣) الإسراء ٥٣ (٤) فصلت ٣٤

وفى تعويد الناس لطف التعبير مهما اختلفت أحوالهم يقول رسول الله :

« إنكم لن تَسعُوا الناس بأموالكم فليسعَهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق»(١). بل أنه يرى الحرمان مع الأدب أفضل من العطاء مع البذاءة .

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾(٢)

والكلام الطيب خصلة تسلك مع ضروب البر ومظاهر الفضل ، التى ترشح صاحبها لرضوان الله ، وتكتب له النعيم المقيم .

روى عن أنس قال : قال رجل للنبى ﷺ : « علمنى عملا يدخلنى الجنة ! قال : أطعم الطعام ، وأفش السلام ، وصل بالليل والناس نيام ، تدخل الجنة بسلام (٣)» .

وقد أمر الله عزَّ وجل ، بأن يكونَ حجاجُنا مع أصحاب الأديان الأخرى فى هذا النطاق الهادىء الكريم ، لا عنف فيه ولا نكر ، إلا أن يجور علينا امرؤ أثيم ، فيجب كبحُ جماحه ، ومنع اعتدائه :

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾(٤)

وعظماء الرجال يلتزمون فى أحوالهم جميعاً ألا تبدو منهم لفظة نابية ، ويتحرجون مع صنوف الخلق ، أن يكونوا سفهاء أو متطاولين .

روى مالك أنه بلغه عن يحيى بن سعيد أنعيسى عليه السلام مرَّ بخنزير على الطريق ، فقال له : أنفذ بسلام ! فقيل له : تقول هذا لخنزير ؟ فقال : إنى أخاف أن أعوّد لسانى النطق بالسوء ! .

* * *

ومن الناس من يعيش صفيق الوجه شَرس الطبع لا يحجزه عن المباذل يقين ، ولا تلزمه المكارم مروءة ، ولا يبالى أن يتعرض للآخرين بما يكرهون ؛

---

(١) البزار . (٢) البقرة ٢٦٣ . (٣) البزار . (٤) العنكبوت ٤٦ .

فإذا وجد مجالا يشبع فيه طبيعته النزقة الجهول ، انطلق على وجهه لا ينتهى له صياح ، ولا تنحبس له شِرَّة .

والرجل النبيل لا ينبغى أن يشتبك فى حديث مع هؤلاء ، فإن استثارة نزقهم فساد كبير ، وسد ذريعته واجب . ومن ثم شرع الاسلام مداراة السفهاء .

حدث أن وقف رجل من أولئك الجهال أمام بيت الرسول يريد الدخول ، فرأى النبى أن يحاسنه حتى صرفه . ولم يكن من ذلك بدٌّ - فالحلم فدامُ(١) السفيه - ولو تركه يسكب ما فى طبيعته الفظة لسمع ما تتنزه عنه أذناه !!

وعن عائشة قالت : استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال : « بئس أخو العشيرة هو » فلما دخل انبسط أليه وألان له القول فلما خرج قلت : يا رسول الله ، حين سمعت الرجل قلت كذا وكذا . ثم تطلقت فى وجهه وانبسطت إليه ! فقال : « يا عائشة متى عهدتنى فاحشا ؟ إن من شر الناس عند الله تعالى منزلة يوم القيامة ، من تركه الناس اتقاء فحشه»(٢) .

وهذا مسلك تصدقه التجارب ، فان الرجل لا يسوغ أن يَفقد خلقه مع من لا خلق لهم . ولو أنه شغل بتأديب كل جهول يلقاه لأعيته الحيل من كثرة ما سوف يلقى . ولذلك عدَّ القرآن الكريم فى أوائل الصفات التى يتحلى بها عباد الرحمن ، هذه المداراة العاصمة :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (٣)

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (٤)

وقد يكظم الإنسان غيظه مرة أو مرتين ثم ينفجر .

بيدَ أن المطلوب من المسلم الفاضل ، أن يطاول الأذى أكثر من ذلك حتى لا يدع الشر يسيطر على الموقف آخر الأمر .

---

(١) الفدام : ما يشد على الفم . (٢) البخارى . (٣) الفرقان ٦٣ . (٤) القصص ٥٥ .

عن سعيد بن المسيب قال : « بينما رسول الله ﷺ جالس فى أصحابه وقع رجل بأبى بكر ، فآذاه ، فصمت عنه أبو بكر ، ثم آذاه الثانية فصمت عنه ، ثم آذاه الثالثة ، فانصرف أبو بكر رضى الله عنه ، فقام رسول الله ﷺ . . فقال أبو بكر : أوَجدْتَ علىَّ يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولكن نزل ملك من السماء يكذبه بما قال ، فلما انتصرت ، ذهب الملك ، وقعد الشيطان ، فلم أكن لأجلس إذ قعد الشيطان(١) » .

* * *

ومدارة السفهاء لا تعنى قبول الدَّنية . فالفرق بين الحالين بعيد !

الأولى ضبط النفس أمام عوامل الاستفزاز ، ومنعها طوعًا أو كرهاً من أن تستجيشها دواعى الغضب وإدراك الثأر .

أما الأخرى فهى بلادة النفس ، واستكانتها إلى الهون ! وقبولها مالا يرضى به ذو عقل أو مروءة .

وقد أعلن القرآن محبته لمداراة السفهاء وكراهيته لقبول الدنية .

﴿ لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ (٢)

* * *

ومن الضمانات التى اتخذها الإسلام لصيانة الكلام عن النزق والهوى تحريمه الجدل ! وسدُّه لأبوابه ، حقًا كان أو باطلا .

ذلك أن هناك أحوالا تستبد بالنفس ، وتغرى بالمغالبة ، وتجعل المرء يناوش غيره بالحديث ، ويصيد الشبهات التى تَدْعم جانبه ، والعبارات التى تروج حجته ، فيكون حب الانتصار عنده أهَّم من إظهار الحق ، وتبرز طبائع العناد والأثرة فى صورَ منكرة ، لا يبقى معها مكان لتبينٍّ أو طمأنينة !!

---

(١) أبو داود .	(٢) النساء ١٤٨ - ١٤٩ .

والإسلام ينفر من هذه الأحوال ويعدُّها خطرًا على الدين والفضيلة .

قال رسول الله ﷺ : « من ترك المراء وهو مبطل بنى لـه بيـت فى رَبَض الجنة . ومن تركه وهو محق بنى له فى وسطها ، ومن حَسُنَ خُلقه بنى لـه فى أعلاها »(١) .

وهناك أناس أوتوا بسطة فى ألسنتهم ، تغـريهم بـالاشتباك مـع العـالم والجاهل ، وتجعل الكلام لديهم شهودة غالبة ، فهم لا يملونه أبدًا .

وهذا الصنف إذا سلط ذلاقته على شئون الناس أساء ، وإذا سلطها على حقائق الدين شوّه جمالها وأضاع هيبتها .

وقد سخط الاسلام أشد السخط على هذا الفريق الثرثار المتقعّر .

قال النبى صلى الله عليـه وسـلم : « إن أبغض الـرجال إلى الله الألـدُّ الخَصِمُ »(٢) . وقال : « ما ضل قوم بعد هـدى كانـوا عليـه إلا أوتُـوا الجدل »(٣) .

هذا الصنف لا يقف ببسطة لسانه عند حد ، إنه يريد الكلام فحسب ، يريد أن يباهى به ويستطيل ، إن الألفاظ تأتى فى المرتبة الأولى ، والمعـانى فى المـرتبة الثانية ، أما الغرض النبيل ، فربما كان له موضوع أخير ، وربما عزَّ له موضع ، وسط هذا الصخب .

ولقد حدث أن واحدًا من أولئك الأغرار وَفدَ إلى النبـى صلى الله عليـه وسـلم « . . . عليه شارة حسنة » فجعل النبى لا يتكلم بكلام إلا كلفتـه نفسـه أن يـأتى بكلام يعلو كلام النبى ﷺ .!! فلمـا انصرف . قـال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : « إن الله لا يحب هذا وأضرابه ، يَلوْون ألسنتهم للناس لَىَّ البقر بلسانها المرعى ، كذلك يلوى الله تعالى ألسنتهم ووجوههم فى النار »(٤) .

والجدال فى الدين ، والجدال فى السياسة ، والجـدال فى العلـوم والآداب ، عندما يتصدَّى له هذا النفر من الأدعياء البلغاء ، يفسد به الدين ، وتفسد السياسة والعلوم والآداب . ولعل السبب فى الانهيـار العمـرانى ، والتحـزب الفقهـى ،

---

(١) أبو داود . (٢) البخارى . (٣) الترمذى . (٤) الطبرانى .

والانقسام الطائفى ، وغير ذلك مما أصاب الأمة الاسلامية ، هو هذا الجدل الملعون فى حقائق الدين ، وشئون الحياة .

والجدل أبعد شيء عن البحث النزيه والاستدلال الموفق .

وروى عن عدد من الصحابة ، قالوا : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا ونحن نتمارى فى شيء من أمور الدين . فغضب غضبًا شديدًا لم يغضب مثله ، ثم انتهرنا فقال : مهلا يا أمة محمد ، إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ذروا المراء لقلة خيره ، ذروا المراء فإن المؤمن لا يمارى . ذروا المراء فإن الممارِىَ قد تمت خسارته . ذروا المراء فكفى إثماً ألّا تزال ممارِيًا . ذروا المراء فإن الممارىَ لا أشفع له يوم القيامة . ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات فى الجنة ، رياضها ، ووسطها ، وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق ، ذروا المراء ، فإن أول ما نهانى عنه ربى بعد عبادة الأوثان المراء »[١] .

* * *

وللناس مجالس يتجاذبون أطراف الحديث فيها . والإسلام يكره مجالس القاعدين ، الذين يقضون أوقاتهم فى تسقط الأخبار وتتبع العيوب ، لأن لهم فضولَ أموال يستريحون فى ظلها ، وليسوا يجدون شغلا إلا فى التسلى بشئون الآخرين .

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ * كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴾ [٢]

وقد فشا فى عصرنا هذا جلوس الجماهير فى النوادى والمشارب .

وتلك آفة أصابت المجتمع بعلل شتى . وقد كثرت فى المدائن والقرى لغير ضرورة مشروعة .

وفى الحديث : « إياكم والجلوس فى الطرقات . قالوا : يا رسول الله ، ما لنا بُدٌّ من مجالسنا . نتحدث فيها . قال : إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه . قالوا : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر »[٣] .

---

(١) الطبرانى . (٢) الهمزة ١ - ٤ . (٣) مسلم .

سلامة الصدر من الأحقاد

ليس أروح للمرء ، ولا أطرد لهمومه ، ولا أقرَّ لعينه من أن يعيش سليم القَلب ، مبرأ من وساوس الضغينة ، وثوران الأحقاد . إذا رأى نعمة تنساق إلى أحد رضى بها ، وأحس فضل الله فيها و فقرَ عباده إليها ، وذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر »(١) ، وإذا رأى أذى يَلحق أحدًا من خلق الله رثى له ، ورجا الله أن يفرج كربه ويغفر ذنبه ، وذكر مناشدة الرسول ربه :

إن تغفر الَّهُمَّ تغفِرْ جَمَّا وأىُّ عبدٍ لك ما ألَمَّا

وبذلك يحيا المسلم ناصع الصفحة ، راضيًا عن الله وعن الحياة ، مستريح النفس من نزعات الحقد الأعمى ، فإن فساد القلب بالضغائن داء عَياء ، وما أسرع أن يتسرب الإيمان من القلب المغشوش ، كما يتسرب السائل من الإناء المثلوم !.

ونظرة الإسلام إلى القلب خطيرة . فالقلب الأسود يفسد الأعمال الصالحة ويَطْمس بهجتها ويعكر صفوها .

أما القلب المشرق فإن الله يبارك فى قليله . وهو إليه بكل خير أسرع :

عن عبدالله بن عمرو « قيل : يا رسول الله أىّ الناس أفضل ؟ قال : كل مخموم القلب صدُوقِ اللسان . قيل : صدوقُ اللسان نعرفه ، فما مخموم القلب ؟ قال : هو التقىّ النقى ، لا إثم فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد »(٢) .

ومن ثَمَّ كانت الجماعة المسلمة حقًّا هى التى تقوم على عواطف الحب المشترك ، والود الشائع ، والتعاون المتبادل ، والمجاملة الدقيقة ، لا مكان فيها للفردية المتسلطة الكنود ، بل هى كما وصف القرآن ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو

(١) أبو داود . (٢) ابن ماجه .

مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾
﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

* * *

إن الخصومة إذا نمتْ وغارت جذورها ، وتفرعت أشواكها شَلَّتْ زهرات الإيمان الغض ، وأذْوَتْ ما يوحى به من حنان وسلام .

وعندئذ لا يكون فى أداء العبادات المفروضة خير ، ولا تستفيد النفس منها عصمة .

وكثيرًا ما تطيش الخصومة بألباب ذويها . فتتدلى بهم إلى اقتراف الصغائر المسقطة للمروءة والكبائر الموجبة للَّعنَة . وعين السخط تنظر من زاوية داكنة ، فهى تَعْمى عن الفضائل ، وتضخم الرَذائل . وقد يذهب بها الحقد إلى التخيل وافتراض الأكاذيب . وذلك كله مما يَسخطه الإسلام ويحاذر وقوعه ، ويرى منعه أفضل القربات .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى ! قال : إصلاح ذات البَين ، فإن فساد ذات البين هو الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدِّين» (٢) .

ربما عجز الشيطان أن يجعل من الرجل العاقل عابد صنم . ولكنه ـ وهو الحريص على إغواء الإنسان وإيراده المهالك ـ لن يعجز عن المباعدة بينه وبين ربه ، حتى يجهل حقوقه أشد ما يجهلها الوثنىُّ المخرِّف ، وهو يحتال لذلك بإيقاد نيران العداوة فى القلوب . فإذا اشتعلت استمتع الشيطان برؤيتها وهى تحرق حاضر الناس ومستقبلهم ، وتلتهم علائقهم وفضائلهم :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ، ولكنه لم ييأس من التحريش بينهم »(٣)

ذلك أن الشر إذا تمكن من الأفئدة فتنافر وُدُّها ، وانكسرت زجاجتها ارتد

---

(١) الحشر : ١٠ . (٢) الترمذى . (٣) مسلم .

الناس إلى حال من القسوة والعناد ، يقطعون فيها ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض .

* * *

وقد تيقظ الإسلام لبوادر الجفاء ، فَلاَحَقَها بالعلاج ، قبل أن تستفحل وتستحيل إلى عداوة فاجرة . والمعروف أن البشر متفاوتون فى أمزجتهم وأفهامهم ، وأن التقاءهم فى ميادين الحياة قد يتولد عنه ضيق وانحراف ، إن لم يكن صدامٌ وتباعد . ولذلك شرع الإسلام من المبادىء ما يرد عن المسلمين عوَادِىَ الانقسام والفتنة ، وما يمسك قلوبهم على مشاعر الولاء والمودة ، فنهى عن التقاطع والتدابر .

نعم قد يحدث أن تشعر بإساءة موجهة إليك ، فتحزن لها وتضيق بها ، وتعزم على قطع صاحبها .

ولكن الله لا يرضى أن تنتهى الصلة بين مسلم ومسلم إلى هذا المصير .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تَقاطَعُوا ولا تَدَابَرُوا ، ولاتَباغَضوا ولا تحاسدوا ، وكونوا عبادَ الله إخوانًا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث[٢] » .

وفى رواية : « لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمنًا فوق ثلاث . فإن مرت به ثلاث فَلْيلقَه فليُسلم عليه . فإن ردَّ عليه السلام فقد اشتركا فى الأجر . وإن لم يرد عليه فقد باء بالإثم ، وخرج المسلم من الهجرة[٣] » وهذا التوقيت فترة تهدأ فيها الحدة وينفثىءُ[٣] الغضب ، ثم يكون لزامًا على المسلم بعده أن يواصل إخوانه ، وأن يعود معهم سيرته الأولى ، كأن القطيعة غيمة ، ما إن تجمعت حتى هبت عليها الريح فبددتها ، وصفا الأفق بعد عُبوس .

والإنسان فى كل نزاع ينشب ، أحد رجلين . إما أن يكون ظالمًا ، وإما أن يكون مظلومًا ، فإن كان عاديًا على غيره ، ناقصًا لحقه ، فينبغى أن يُقلع عن غيه

(١) البخارى . (٢) أبو داود . (٣) ينفثىء : من قولهم فثا الغضب سكن .

وأن يصلح سيرته . وليعلم أنه لن يستلّ الضّغن من قلب خصمه ، إلا إذا عاد عليه بما يطمئنه ويرضيه . وقد أمر الإسلام المرء ـ والحالة هذه ـ أن يستصلح صاحبه ويطيب خاطره :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شيء فَليتحلَّلْهُ منه اليوم ، من قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذَ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه(١) » .

ذلك نصح الإسلام لمن عليه الحق أما من له الحق فقد رغب إليه أن يلين ويسمح ، وأن يمسح أخطاء الأمس بقبول المعذرة ، عندما يجيء له أخوه معتذراً ومستغفراً ، ورفض الاعتذار خطأ كبير .

وفى الحديث : « من اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يقبل منه كان عليه مثل خطيئة صاحب مَكْسٍ(٢) » .

وفى رواية : « من تُنُصِّلَ إليه فلم يقبل لم يَرِدْ علَّى الحوض(٣) » .

وبهذا الإرشاد المبين للطرفين جميعاً يحارب الإسلام الأحقاد ، ويقتل جرثومتها فى المهد ، ويرتقى بالمجتمع المؤمن إلى مستوى رفيع ، من الصداقات المتبادلة ، أو المعاملات العادلة :

وقد اعتبر الإسلام من دلائل الصَّغار وخسة الطبيعة ، أن يرسب الغلُّ فى أعماق النفس فلا يخرج منها ، بل يظل يموج فى جوانبها كما يموج البركان المكتوم .

وكثير من أولئك الذين يحتبس الغلُّ فى أفئدتهم يتلمَّسون متنفسَّاً له فى وجوه من يقع معهم ؛ فلا يستريحون إلا إذا أرْغوْا وازبدُوا ؛ وآذوا وأفسدوا :

روى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ؛ ألا أنبئكم بشراركم ؟ قالوا : بلى ، إن شئت يا رسول الله . قال : إن شراركم الذى ينزل

---

(١) البخارى (٢) إبن ماجه : المكس نوع خبيث من نهب المال . (٣) الطبرانى .

وحده ، ويجلده عبده ويمنع رِفْدَهُ أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى ، إن شئت يا رسول الله ، قال : من يُبغض الناس ويُبغضونه ، قال : أفلا أُنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى ، إن شئت يا رسول الله ، قال : الذين لا يُقيلون عثرة ، ولا يَقبلون معذرة ، ولا يغفرون ذنباً ، قال : أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى ، يا رسول الله ، قال : من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره (١) » .

والأصناف التى أحصاها هذا الحديث ، أمثلة لأطوار الحقد عندما تتضاعف علته وتفتضح سوأته ، ولا غرْو ، فمن قديمٍ أحسّ الناس ، حتى فى جاهليتهم ، أن الحقد صفة الطبقات الدنيا من الخلق ! وأن ذوى المروءات يتنزهون عنه ! قال عنترة :

لا يحْملُ الحقد من تعْلو به الرُّتبُ ولا ينال العلا من طَبعهُ الغضبُ

* * *

وهناك رذائل رهَّب الإسلام منها ، وليسَ يفوت النظرَ القريبَ أن تعرف مصدرها الدفين .

إنها على اختلاف مظاهرها ، تعود إلى عملة واحدة هى الحقد .

فالافتراء على الأبرياء جريمة ، يدفع إليها الكرْه الشديد . ولما كان أثرها شديداً فى تشويه الحقائق ، وجرح المستورين ، عدَّها الإسلام من أقبح الزور :

روت عائشة أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « أتدرون أُربى الربا عند الله ؟ قالوا ، الله ورسوله أعلم ؟ قال : فإن أُربى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم ، ثم قرأ رسول الله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (٢)

ولاشك أن تلمس العيوب للناس ، وإلصاقها بهم عن تعمد يدل على خُبث ودناءة ، وقد رَّتب الإسلام عقوبات عاجلة لبعض جرائم الافتراء وما يبيتُ فى الآخرة لصنوف الافتراء كلها أشدُّ وأنكى .

---

(١) الطبرانى .

(٢) الأحزاب ٥٨

قال رسول الله : « من ذكر امرأ بشيء ليس فيه ، ليعيبه به ، حبسه الله فى نار جهنم حتى يأتى بنفاد ما قال فيه (١)» .

وفى رواية : « أيما رجلٍ أشاع على رجل مسلم كلمة ، وهو منها برىء ، يشينه بها فى الدنيا ، كان حقاً على الله أن يُذيبه يوم القيامة فى النار ، حتى يأتى بنفاد ما قال » .

ومادام الذى قاله بهتاناً ، فكيف يستطيع أن يثبت عند الله باطلا ؟ وكيف يتنصلُ من تبعتهِ ؟

إن سلامة الصدر تفرض على المؤمن أن يتمنى الخير للناس ، إن عجز عن سوْقه إليهم بيده .

أما الذى لا يجد بالناس شراً فينتحله لهم انتحالا ، ويُزوِّرُه عليهم تزويراً فهو أفاك صفيق :

قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

ومن فضل الله على العباد : أنه استحبَّ ستر عيوب الخلق ، ولو صدَق اتصافهم بها .

وما يجوز لمسلم أن يتشفىّ بالتشنيع على مسلم ولو ذكره بما فيه فصاحب الصدْر السليم يأسى لآلام العباد ، ويشتهى لهم العافية . أما التلهى بسرد الفضائح ، وكشف الستور ، وإبداء العورات ، فليس مسلك المسلم الحق .

ومن ثمَّ حرّم الإسلام الغيبة ، إذ هى متنفس حقد مكظوم ، وصدر فقير إلى الرحمة والصفاء :

عن أبى هريرة أن رسول الله قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ! قال ذكرُك أخاك بما يكره . قيل : أرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ . قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته(٣)» .

(١) الطبرانى . (٢) النور : ١٩ . (٣) مسلم .

ومن آداب الإسلام التى شرعها لحفظ المودَّات ، واتقاء الفرقة ، تحريم النميمة ، لأنها ذريعة إلى تكدير الصفو وتغيير القلوب .

وقد كان النبىّ ينهى أن يُبلغ عن أصحابه ما يسوءه ، قال : « لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئاً ، فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر (١) » .

وعلى من سمع شيئاً من ذلك ألا يوسع الخرق على الراقع ، فرب كلمة شر تموت مكانها لو تركت حيث قيلت ! ورب كلمة شر سعرت الحروب ، لأن غراً نقلها ونفخ فيها ، فأصبحت شرارة تنتقل بالويلات والخطوب :

قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة نمَّام (٢) »، وفى رواية « قتات » .

قال العلماء : هما بمعنى واحد . وقيل : النمام الذى يكون مع جماعة يتحدثون فينقل عنهم ، والقتات ، الذى يتسمع عليهم من حيث لا يشعرون ثم ينمّ .

وروى فى الحديث : « إن النميمة والحقد فى النار ، لا يجتمعان فى قلب مسلم (٣) » .

ومن لوازم الحقد سوء الظن ، وتتبع العورات ، واللمز ، وتعيير الناس بعاهاتهم ، أو خصائصهم البدنية والنفسية .

وقد كره الإسلام ذلك كله كراهية شديدة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من علم من أخيه سيئة فسترها ، ستر الله عليه يوم القيامة (٤) » .

وقال : « من ستر على مؤمن عورة فكأنما أحيا موؤودة (٥) » .

وكثيراً ما يكون متتبعو العورات لفضحها أشد إجراماً ، وأبعد عن الله قلوباً من أصحاب السيئات المكتشَفة ، فإن التربص بالجريمة لنشرها ، أقبح من وقوع الجريمة نفسها :

---

(١) أبو داود . (٢) البخارى . (٣) الطبرانى .
(٤) الطبرانى . (٥) الطبرانى .

وشتان بين شعورين ، شعور الغيرة على حرمات الله والرغبة فى حمايتها . وشعور البغضاء لعباد الله والرغبة فى إذلالهم !!

إن الشعور الأول قد يصل فى صاحبه إلى القمة ، ومع ذلك فهو أبعد ما يكون عن التشفى من الخلق ، وانتظار عثراتهم ، والشماتة فى آلامهم .

* * *

وسلامة الصدر فضيلة تجعل المسلم لا يربط بين حظه من الحياة ومشاعره مع الناس ، ذلك أنه ربما فشل حيث نجح غيره ، وربما تخلف حيث سبق آخرون .

فمن الغباء أو من الوضاعة أن تلتوى الأثرة بالمرء ، فتجعله يتمنى الخسار لكل إنسان ، لا لشىء ، إلا لأنه هو لم يربح !

ثم إن المسلم يجب أن يكون أوسع فكرة ، وأكرم عاطفة ، فينظر إلى الأمور من خلال الصالح العام ، لا من خلال شهواته الخاصة .

وجمهور الحاقدين ، تغلى مراجل الحقد فى أنفسهم ، لأنهم ينظرون إلى الدنيا فيجدون ما يتمنونه لأنفسهم قد فاتهم ، وامتلأت به أكفٌّ أخرى .

وهذه هى الطامة التى لا تدعُ لهم قراراً !!

وقديما رأى إبليس أن الحظوة التى يتشهاها قد ذهبت إلى آدم ، فآلى ألا يترك أحداً يستمتع بها بعد ما حرمها .

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (١)

هذا الغليان الشيطانى هو الذى يضطرم فى نفس الحاقدين ويفسد قلوبهم ، وقد أهاب الإسلام بالناس أن يبتعدوا عن هذا المكر ، وأن يسلكوا فى الحياة نهجاً أرقى وأهدأ .

---

(١) الأعراف : ١٦ ، ١٧ .

عن أنس بن مالك قال : كنا جلوساً عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة ، فطلع رجل من الأنصار ، تنطف لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه بيده الشمال . فلما كان الغدُ قال النبىُّ مثلَ ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثلَ المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث قال النبى مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثال حاله الأولى .

فلما قام النبى تبعه عبدالله بن عمرو - تبع الرجل - فقال : إنى لاحيت أبى ، فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً . فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت ! قال : نعم .

قال أنس : فكان عبد الله يُحدِّث أنه بات معه تلك الثلاث الليالى ، فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تعارَّ - تقلب فى فراشه - ذكر الله عز وجل حتى ينهض لصلاة الفجر قال عبدالله : غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيراً .

فلما مضت الليالى الثلاث وكدْت أحتقر عمله ، قلت يا عبدالله لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجرة . ولكنى سمعت رسول الله يقول لك - ثلاث مرات - يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث المرات فأردتُ أن آوى إليك . فأنظر ما عملك فأقتدى بك . فلم أرك عملت كبير عمل ! فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت . قال عبدالله : فلما وليتُ دعانى فقال : ما هو إلا ما رأيت ، غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه . فقال عبدالله : هذه التى بلغت بك(١) » .

وفى رواية : « ما هو إلا ما رأيت يا ابن أخى ، إلا أنى لم أبتْ ضاغناً على مسلم(٢) » .

* * *

وقد حرّم الإسلام الحسد ، وأمر الله رسوله أن يستعيذ من شرور الحاسدين لأن الحسد جمرة تتقد فى الصدر ، فتؤذى صاحبها وتؤذى الناس به .

---

(١) أحمد .

(٢) البزار .

والشخص الذى يتمنى زوال النعم آفةٌ تحذر غوائلها على المجتمع ، ولا يُطمأنّ إلى ضميره فى عمل .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يجتمع فى جوف عبدٍ غبارٌ فى سبيل الله وفيحُ جهنم . ولا يجتمع فى جوف عبد ، الايمانُ والحسد (١) » .

وقال : « إياكم والحسد ، فإن الحسدَ يأكل الحسناتِ كما تأكل النارُ الحطب (٢) » .

والرجل الذى يكره المنعم عليهم ، ويودّ لو يمسون محرومين ويصبحون ضائعين ، رجل ضللته عن حقيقة الحياة ، ظلماتٌ شتى .

إنه أولا محصور بالدنيا ومتاعها ، يقاتل عليه ويبكى وراءه ، ويتبع بالغيظ من نالوا نصيباً ضخماً منه .

وهذا خطأ فى تقدير الحياتين ، بل لعله جهل أو ذهول عن الحياة الأخرى وما ينبغى لها من استعدادٍ ، يجب أن يتأهبَّ المرء له ، ويأسى لفواته .

قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٣)

ثم إن الحاسد بعد ذلك ، شخص واهنُ العزم ، كليل اليد ، جاهل بربه وبسننه فى كونه .

ذلك أنه لما فاته الخير لأمر ما تحوَّل يكيد للناجحين !

حَسَدُوا الفتَى إذ لم يَنالوا سَعْيَهُ ... فالْكلُ أعْداءٌ له وخُصُومُ

وكان أجدى عليه أن يتحول إلى ربه ، يسأله من فضله ، فإن خزائنه ليست حكراً على واحد بعينه ، ثم يستأنف السعى فى الحياة بعدئذ .

فلعلّ ما عجز عنه فى البداية يدركه ثانية . إن هذا لا ريب أشرف من الضغينة على الآخرين .

(١) البيهقى . (٢) أبو داود . (٣) يونس : ٥٧ ، ٥٨ .

والبون بعيد بين الحسد والطموح ، وبين الحسد والغبطة ، وبين الحسد واستنكار العوج فى الأوضاع والخلط فى المنع والعطاء .!

فالطموح رغبة فى الرفعة وسعى إليها . وذلك شأن الصالحين من عباد الله . قال سليمان :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (١)

وقال عباد الرحمن : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٢)

والتطلع إلى فضل الله مع الأخذ فى أسباب اكتسابه شىء ، غير كراهية فضل الله عندما ينزل بإنسان معين .

والغبطة رغبة المرء فى الحصول على نعمة مماثلة لما أكرم الله به الآخرين .

ولما كان تطلع الإنسان إلى غيره ، قد يكون فتحاً لأبواب الفتنة ، وتعلقاً بالمنى الباطلة ، واشتهاء لما يحسبه الشخص نافعاً له ، وهو فى الحقيقة ضارٌ به ، أرشد الإسلام إلى ما ينبغى طلبه ، والتنافس فيه ، فقال رسول الله ﷺ :

« لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها (٣) » .

والحسد فى الحديث تمنى مثيل النعمة ، لا تمنى زوالها .

والمقصود أن يكون المثل الأعلى الذى يستهدفه الإنسان جليلا رائعاً ، فإن من سقوط الهمة أن ترتبط الآمال بالتافه من الأحوال .. وهناك شئون يعتبر التشبث بطلبها عبثاً لا يورث إلا الحسرة ، وقد ينتهى بالحقد على الناس ، لا لشىء إلا لأن الله خصهم بمواهب فطرية أو بمنافع تقوم على هذه المواهب .

وفى هذه الشئون وأمثالها يقول الله تعالى ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ

(١) ص : ٣٥ . (٢) الفرقان : ٧٤ . (٣) البخارى .

﴿ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾(١)

وأما استنكار العوج فى الأوضاع ، فهو إقرار للعدالة الواجبة ، وليس من قبيل الحسد المذموم .

فإذا غضبنا لأن هذا أخذ الكثير على جُهد قليل ، أو رفع إلى درجة لا ترشحه لها كفايته ، فهذا الغضب مفهوم ومحمود ، وهو ضَرْبٌ من رعاية المصالح العامة ، لا صلة للحقد الشخصى به .

إن الإسلام يتحسَّسُ النفوس بين الحين والحين ، ليغسلها من أدران الحقد الرخيص ، وليجعلها حافلة بمشاعر أزكى وأنقى نحو الناس ونحو الحياة .

فى كل يوم ، وفى كل اسبوع ، وفى كل عام تمر النفوس من آداب الإسلام فى مِصفاة تحجز الأكدار ، وتنقى العيوب ، ولا تبقى فى الأفئدة المؤمنة أثارة من ضغينة .

أما فى كل يوم ؛ فقد أوضح الإسلام أن الصلوات المكتوبة لا يحظى المسلم بثوابها إلا إذا اقترنت بصفاء القلب للناس ، وفراغه من الغش والخصومات .

قال رسول الله : « ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رءوسهم شبرًا : رجل أمَّ قومًا وهم له كارهون ، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط ، وأخوان متصارمان(٢) » .

وأما فى كل أسبوع ، فإن هناك إحصاء لما يعمله المسلم ، ينظر الله فيه ليحاكم المرء إلى ما قدمت يداه ، وأسرَّه ضميره . فإن كان سليم الصدر نجا من العثار . وإن كان ملوثًا بمآثم الغضب والحسد والسخط ، تأخر فى المضمار .

قال رسول الله ﷺ : « تعرض الأعمال فى كل اثنين وخميس : فيغفر الله عزَّ وجل فى ذلك اليوم لكل امرىء لا يشرك بالله شيئًا ، إلا امرءًا كانت بينه وبين أخيه شحناء . فيقول : أتركوا هذين حتى يصطلحا(٣) .

---

(١) النساء : ٣٢ . (٢) ابن ماجه . ومتصارمان . متقاطعان . (٣) مسلم .

وأما فى كل عام فبعد تراخى الليالى وامتداد الأيام ، لا ينبغى أن يبقى المسلم حبيسًا فى سجن العداوة ، مغلولا فى قيود البغضاء .

فإن لله فى دنيا الناس نفحات لا يظفر بخيرها إلا الأصفياء السمحاء !

ففى الحديث : « إن الله عزَّ وجل يطلع على عباده ، ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين ، ويرحم المسترحمين ، ويُؤخر أهل الحقد كما هم (١) » !

فمن مات بعد هذه المصافى المتتابعة ، والبغضاء لاصقة بقلبه لا تنفك عنه ، فهو جدير بأن يَصلى حرَّ النار فإن ما عجزت الشرائع عن تطهيره ، لا تعجز النار عن الوصول إلى قراره ، وكيِّ أضغانه وأوزاره . .

* * *

والشحناء التى كرهها الإسلامُ وكره ما يدفع إليها أو ينشأ عنها ، هى التى تنشب من أجل الدنيا وأهوائها ، والطماعية فى اقتناص لذائذها والاستئثار بمتاعها .

أما البغض لله ، والغضب للحق ، والثورة للشرف ، فشأن آخر . . .

وليس على المسلم جناح فى أن يقاطع حتى الموت ، من يفسقون عن أمر الله ، أو يعتدون على حدوده ، وليس عليه من لائمة فى أن يُكنَّ لهم البغضاء ، ويعالنهم بالعداء .

بل إن ذلك من أمارات الإيمان الصحيح . والإخلاص لله وحده .

وقد أمر الله عزَّ وجل أن نجافى أعداءه ، ولو كانوا أقرب الناس إلينا :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٢)

وابتعاد المسلم عمن تسوء صحبتهم أو من يغرون بالتهاون والهزل واجب .

وابتعاده عمن أخطأ فى حق الله عقابًا له ، إلى أجل محدود أو ممدود ، لا شىء فيه ، فقد هجر النبى بعض نسائه أربعين يومًا . وهجر عبدالله بن عمر ولدًا له حتى مات ، لانه ردَّ حكمًا لرسول الله ، كان أبوه يرويه فى إباحة خروج النساء إلى المساجد . . .

---

(١) البيهقى . (٢) التوبة . ٢٣ .

الـــقـــوة

العقيدة المكينة . مَعين لا ينضُب للنشـــاط المـــوصول ، والحمـــاسة المذخورة ، واحتمال الصعاب ، ومواجهة الأخطار ، بل هى سائق حثيث يـدفع إلى لقاء الموت دون تهيب ، إن لم يكن لقاء محب مشتاق !!

تلك طبيعة الإيمان إذا تغلغل واستمكن ، إنه يضفى على صاحبه قوة تنطبع فى سلوكه كله ، فإذا تكلم كان واثقًا من قوله ، وإذا اشتغل كان راسخًا فى عملـه ، وإذا اتجه كان واضحًا فى هدفه ، ومادام مطمئنا إلى الفكرة التى تملأ عقله ، وإلى العاطفة التى تعمر قلبه ، فقلما يعرف التردد سـبيلا إلى نفسـه ، وقلمـا تـزحزحه العواصف العاتية عن موقفه ، بل لا عليه أن يقول لمن حوله :

﴿ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (١)

هذه اللهجة المقرونة بالتحدّى . وهـذه الـروح المسـتقلة فى العمـل ، وتلك الثقة فيما يرى أنه الحق . . . ذلك كله يجعله فى الحياة رجل مبدأ متميـز ، فهـو يعاشر الناس على بصيرة من أمره . إن رآهـم على الصـواب تعـاون معهـم ، وإن وجدهم مخطئين نأى بنفسه واستوحى ضميره وحده .

قال رسول الله : « لا يكن أحدكم إمعة . يقـول : أنـا مع النـــاس ، إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت !! ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن النـاس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم (٢) » .

والرجل الضعيف ، هو الذى يستعبده العرف الغـالب ، وتتحـكم فى أعمـاله التقاليد السائدة ، ولو كانت خطأ يجر معه متاعب الدنيا والآخرة .

---

(١) الزمر : ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) الترمذى .

وقد أحدث الناس فى أفراحهم وأحـزانهم بـدعًا شـتى ، وتـواضعوا على الاستمساك بها أشدّ من استمساكهم بحقائق الدين نفسها .

ولكن المؤمن الحق ، لا يكترث بأمر ليس له من دين الله سناد . وهو ، فى جرأته على العرف والتقاليد ، سوف يلاقى العنت . بيد أنه لا ينبغى أن يخشى فى الله لومة لائم ، وعليه أن يمضى إلى غايته ، لا تعنيه قسوة النقد ، ولا جراحات الألسنة .

والباطل الذى يروج حينًا ، ثم يثور الأقوياء عليه فيسقطون مكانته . لا يبقى على كثرة الاشياع أمدًا طويلا ، ورب مخاصم اليوم من أجل باطل انخدع به ، أمسى نصيرًا لمن خاصمهم ، مستريحًا إلى ما علم منهم ، مؤيدًا لهم بعد شقاق :

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أسخط الله فى رضا الناس سخط الله عليه ، وأسخط عليه من أرضاه فى سخطه ! ومن أرضى الله فى سخط الناس رضى الله عنه . وأرضى عنه من أسخطه فى رضاه !! حتى يزينه ويزين قوله وعمله فى عينيه(١) »

فَليجمد المسلم على ما يوقن به وليستخفَّ بما يلقاه من سخرية واستنكار عندما يشذ عن عرف الجهال ، ويخط لنفسه نهجًا ، يلتمس به مثوبة الله عزَّ وجل . ولئن كان الإيمان بالأوهام يُغرى البعض ، بأن يسخر ويتهكم ، إن الإيمان بالإسلام يجب أن يجعل أصحابه أقوياء راسخين .

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٢)

أجل . يجب أن يكون المسلم شاعرًا بقوة اليقين فى شخصه ، وروعة الإيمان فى نفسه . إن لم يستطع فرْضَ ذلك على ما حوله بقى كالطود الأشم ،

---

(١) الطبرانى .   (٢) الفرقان ٤١ ، ٤٢ .

لم تجرُفه الغمار السائدة ، ولم تطوه اللجج الصاخبة . وماذا عسى يفعل الناس لامرىء اعتز بإيمانه ، واستشعر القوة لصلته بربه واستقامته فى دينه ؟ إنهم لو تألبوا عليه جميعًا ما نالوا منه قليلا ولا كثيرًا .

عن ابن عباس قال : كنت رديف رسول الله ﷺ ، فقال : « يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدّة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لك لم يقدروا على ذلك . ولو اجتمعوا على أن يضروُك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك جفت الأقلام وطويت الصحف » .

والحق أن فضيلة القوة ترتكز فى نفس المسلم على عقيدة التوحيد ، كغيرها من الفضائل التى تجعله يرفض الهوان فى الأرض ، لأنه رفيع القدر بانتسابه إلى السماء ، ولأنه يستطيع فى نطاق إيمانه أن يكون أمة وحده . وفى فهم قول الله عز وجل :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١) ﴾

* * *

ومن فضائل القوة التى يوجبها الإسلام أن تكون وثيق العزم ، مجتمع النية على إدراك هدفك بالوسائل الصحيحة التى تقربك منه ، باذلا قصارى جهدك فى بلوغ مأربك ، غير تارك للحظوظ أن تصنع لك شيئًا ، أو للأقدار أن تدبر لك ما قصرت فى تدبيره لنفسك !! فإن هناك أقوامًا يجعلون من اللجأ إلى ستارًا يوارى تفريطهم المعيب وتخاذلهم الذميم ، وهذا التواء كرهه الإسلام .

فعن عوف بن مالك قال : قضى رسول الله بين رجلين . فلما أدبرا قال المقضىُّ عليه : حسبى الله ونعم الوكيل ! فقال صلى الله عليه وسلم : إن الله يلوم على العجز !! ولكن عليك بالكيس . فإذا غلبك أمر فقل : حسبى الله ونعم الوكيل (٢) » .

---

(١) الأنعام ١٤ .

(٢) أبو داود .

أى أن المرء مكلف بتعبئة قواه كلها لمغالبة مشاكله حتى تنزاح من طريقه . فإن ذللها حتى استكانت له فقد أدى واجبه .

وإن غلب على أمره أمامها بعد استفراغ جهده كان ركونه إلى الله عندئذ معاذًا يعتصم به من غوائل الانكسار ، فهوى على الحالين قوىٌّ ، بعمله أولا وبتوكله آخرًا .

إن الإسلام يكره لك أن تكون مترددًا فى أمورك ، تحار فى اختيار أصوبها وأسلمها ، وتكثر الهواجس فى رأسك فتخلق أمامك جوًا من الريبة والتوجس ، فلا تدرى كيف تفعل . وتضعف قبضتك فى الإمساك بما ينفعك فيفلت منك ثم يذهب سدى .

إن هذا الاضطراب لا يليق بالمسلم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفى كلٍّ خير . أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل . لو أنى فعلت كذا لكان كذا . ولكن قل : قدّر الله ، وما شاء فعل ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان (١)» .

وعمل الشيطان هو تشييع الماضى بالنحيب والإعوال ، هو ما يلقيه فى النفس من أسىً وقنوط على ما فات . إن الرجل لا يلتفت وراءه إلا بمقدار ما ينتفع به فى حاضره ومستقبله ، أما الوقوف مع هزائم الأمس ، واستعادةُ أحزانها والتعثر فى عقابيلها ، وتكرار لو ، وليت ، فذلك ليس من خلق المسلم بل لقد عده القرآن الكريم من مظاهر الحسرة التى تتلجلج فى قلوب الكافرين :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٢)

---

(١) مسلم .

(٢) آل عمران : ١٥٦ .

وقد جاء فى الحديث : « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله » .

والتوكل الذى يقوى الإنسان به ضرب من الثقة بالله . ينعش الإنسان عندما تكتنفه ظروف محرجة . ويلتفت حوله فلا يرى عونًا ولا أملا !

فالمكافح عدوًّا قوى الشكيمة ، شديد البأس ، على ضعف العدة وقلة الناصر ، يحس عندما يتوكل على الله أنه أوى إلى ركن شديد ، ويستمد من هذا التوكل ثباتًا ورباطًا ، ويظل يقاوم حتى تبرق بشائر النصر خلال جو مكفهر ، وقد بين الله تبارك وتعالى أن هذا التوكل كان غذاء الكفاح الطويل الذى قاوم به النبيون وأتباعهم مظالم الطغاة وبغى المستبدين .

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (١)

وقد كان الحكام الفجرة وأشياعهم يسمون تشبث المؤمنين بما لديهم ، وتأميلهم الخير فى المستقبل : وطمأنينتهم إلى أن ضعفهم الحاضر سيتحول قوة غالبة .. كانوا يسمون ذلك غروراً !!

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢)

فالتوكل الحق قرين الجهد المضنى والإرادة المصممة : ولم ينفرد التوكل عن هذه المعانى إلا فى العصور التى . مُسخ فيها الإسلام ، وأصبح بين أتباعه لهوًا ولعبًا .

ومما يجعل المسلم قويًا أن يبتعد عن حياة الخلاعة والفجور ، وأن يألف مسالك النزاهة والاستقامة فان الرجل الخرب الذمة أو الساقط المروءة لا قوة له ولو لبس جلود السباع ، ومشى فى ركاب الملوك .

وقد نصح الله قوم هود فأرشدهم إلى أسباب القوة الصحيحة ، وكانوا عمالقة

(١) إبراهيم . ١٢ .
(٢) الأنفال ٤٩ .

جبارين ، فقال : ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ (١)

وأراد رسول الله أن يزين الطاعات للناس ، وأن يغريهم بأداءها ، وأن يشرح لهم عظمة الإنسان عندما يفعل الخير ويراغم الشيطان ويسمو إلى الملأ الأعلى ، فضرب لهم هذا المثل فى سياق حديث له . قال : « لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتتكفأ فأرساها بالجبال فاستقرت . فتعجب الملائكة من شدة الجبال فقالت : يا ربنا هل خلقت خلقًا أشد من الجبال ؟ قال : نعم ، الحديد . قالوا : فهل خلقت خلقًا أشدّ من الحديد ؟ قال : نعم ، النار . قالوا : فهل خلقت خلقاً أشدّ من النار ؟ قال : نعم ، الماء ، قالوا : فهل خلقت خلقاً اشدّ من الماء ؟ قال : نعم ، الريح ، قالوا : فهل خلقت خلقاً شدّ من الريح ؟ قال : نعم ، ابن آدم إذا تصدق صدقة بيمينه فأخفاها عن شماله »(٢) !

إن الانسان ، هذا الكائن العجيب ، يعتبر سيدًا لعناصر الكون كلها ، يوازن أعتاها وأقساها فيرجحه ويربو عليه ، يوم يكون شخصًا فاضلا ! ولكنه يلعن فى الأرض والسماء ويرجحه الذر والهباء يوم يكون شخصًا ساقطًا .

والمثل الذى ذكره الحديث ليس إلا إبرازًا لقيمة الرجل المحسن وتصويرًا لرسوخه وشموخه عندما يسبق فى ميدان الخير .

ومن عناصر القوة أن يكون المسلم صريحًا ، يواجه الناس بقلب مفتوح ومبادىء معروفة ، لا يصانع على حساب الحق بما يغضّ من كرامته وكرامة أنصاره . بل يجعل قوته من قوة العقيدة التى يمثلها ويعيش لها . ولا يحيد عن هذه الصراحة أبدًا فى تقرير حقيقة ما .

حدث أن كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات ابنه إبراهيم ، فقال الناس كسفت الشمس لموت إبراهيم !! فقام رسول الله ﷺ يخطب الناس ، فقال :

---

(١) هود ٥٢ . (٢) الترمذى .

« إن الشمس والقمر لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله تعالى يريهما عباده . فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة(١) » .

ذلك أن الشخص الذى يحيا فى الحقائق لا يتاجر بالأباطيل ، فهو غنى عنها . وصراحته دليل على ثروة عريضة من الشرف ، تغنى صاحبها عن الدجل والاستغلال ، وتقيم سيرته على ركائز ثابتة من الفضيلة والكمال .

وقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تنبثق من هذا السموّ النفسى ، لأنها تعتمد على مصارحة المخطئين بما فرَط منهم ابتغاء محوه لتثبت مكانه الصواب والخير .

وقد شرحنا فى كتبنا(٢) الأخرى الغايات الاجتماعية والسياسية التى ناطها الإسلام بقاعدة الأمر والنهى .

والذى نريد توكيده هنا أن المسلم يجب أن يكون نقادة للعيوب الفاشية ، جريئاً فى الحملة عليها ، لا يتهيب كبيراً ولا يستحى من قريب ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم . .

وقد كره الإسلام أن يضعف الرجل أمام العصاة من الكبراء ، وأن يناديهم بألفاظ التكريم :

قال رسول الله ﷺ : « إذا قال الرجل للمنافق : يا سيد فقد أغضب ربه(٣) » .

وإنها لجريمة مضاعفة أن ينتهك امرؤ الحرمات المصونة . ثم يستمع إلى من يُبجِّلونه لا إلى من يحقِّرونه .

﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (٤)

وتحريم الإسلام للغيبة فيه محافظة على رجولة المسلم ، وإمساك لعنصر القوة فيه . فإن الشخص الذى ينخنس ليُنفس عن أحقاده فى الخفاء بذكر المعايب المستورة أو المعروفة . هو لاشك شخص وضيع .

(١) البخارى (٢) الإسلام والاستبداد السياسى (٣) الحاكم (٤) الحج ١٨

والرجل الذى يأنس من نفسه قوة الاستجابة لدواعى الحق يواجه من شاء بما شاء ، ولا يتوارى ليطعن من وراء ستار .

وليس معنى ذلك أن نجابه بالسوء من نودُّ مساءتهم . بل إذا وجدنا فى امرىء ما عيبا فنحن بإزائه بين أمور معينة : إن كان هذا العيب عاهة فى بدنه ، أو ضآلة فى مرتبته ، فمن السفاهة التشنيع عليه به . عيانا أو غيابا .

وإن كان ذنبا انزلق إليه وليس من شأنه أن يفارقه ، إنما هى كبوة الجواد . فمن الدناءة أن نفضح مثله ، وأن نشهر بين الناس به .

وإن كان العيب الذى وجدناه جرأة مستهتر أو معصية مجاهر . فهذا الذى يجب أن يقابل بكلمة الحق . تقرع أذنيه دون مبالاة .

ولكيما تكون هذه الكلمة خالصة ينبغى أن تبتعد عن مشاعر الشماتة وحب الأذى . وأن تقترن بالرغبة المجردة فى تغيير القبيح ، وإصلاح الفرد والجماعة . وليس من هذا ألبتة أن تذكر العاصى بشر عند أعدائه لتقترب من قلوبهم . أو لتطعم من موائدهم . أو لتتظاهر بالبراءة من الخصال التى ذممتها فيه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها من جهنم . ومن كُسِىَ ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم ومن قام برجل مسلم مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة(١) » .

إن الغيبة شيمة الضعاف « وكل اغتياب جهد من لا جُهد له » .

* * *

والإسلام يكره أولئك الذين يعيشون فى الدنيا أذنابا . تغلب عليهم طبائع الزلفى والتهافت على خيرات الآخرين . ويحبون أن يكونوا فى هذه الحياة كالثعالب التى تقتات من فضلات الأسود .

(١) أبو داود .

إن المسلم أكبر من أن يربط كيانه بغيره على هذا النحو الوضيع . بل يجب أن ينأى عن مواطن الهون . وأن يضرب فى فجاج الأرض يبتغى العزة والكرامة .

وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحاب الجنة وخلالهم ، وأصحاب النار وخلالهم ، فعد فضائل القوة والكرامة والنبل فى الأولين ، وقرن رذائل الهوان والاختلاس والعجز والتلاعب بالآخرين قال :

« . . أهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسطٌ متصدق موفق . ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم . وعفيف متعفف ذو عيال . وأهل النار : الخائن الذى لا يخفى(١) له طمع - وإن دق - إلا خانه . ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك . وذكر البخل والكذب ، والشّنظير(٢) الفحّاش ، وإن الله أوحى إلَّى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد(٣) » .

* * *

على أن هناك أموراً قد تعرض للمسلم فينوء بها ، وربما يهون فى نفسه مادامت مصاحبة له : فالتعاسة النفسية والهوان الاجتماعىّ قد يضغطان على الانسان ضغطا يُقعده ، ويجعله سيِّء التفكير ، كثير التشاؤم ، قليل الانتاج ، وواجب المسلم أن يبذل كل جهد للتملُّص من هذه القيود الكئيبة ، والخروج من مآزقها القابضة .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يستعيذ بربه من هذه المصائب الهدامة :

« اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال(٤) » .

والصبر والرجاء ، هما عدَّة اليوم والغد ، يتحمل المرء فى ظلمهما المصائب الفادحة فلا يذل ، بل يظل محصناً من نواحيه كلها ، عاليا على الأحداث والفتن لأنه مؤمن ، والمؤمن لا يضرع إلا لله .

---

(١) يخفى لفظ يستعمل فى الظهور (٢) الشنظير . سيء الخلق . الفحاش . والشنظرة . الشتم .
(٣) مسلم (٤) أبو داود .

الحلم والصفح

تتفاوت درجات الناس فى الثبات أمام المثيرات ، فمنهم من تستخفه التوافه فيستحمق على عجل ، ومنهم من تستفزه الشدائد فيبقى على وقعها الأليم محتفظا برجاحة فكره وسجاحة خلقه (١) .

ومع أن للطبع الأصيلة فى النفس دخلا كبيراً فى أَنصبة الناس من الحدة والهدوء ، والعجلة والأناة ، والكدر والنقاء ، إلا أن هناك ارتباطا مؤكدا بين ثقة المرء بنفسه وبن أناته مع الآخرين ، وتجاوزه عن خطئهم . فالرجل العظيم حقا كلما حلق فى آفاق الكمال اتسع صدره ، وامتد حلمه ، وعذر الناس من أنفسهم ، وإلتمس المبررات لأغلاطهم ! فإذا عدا عليه غرٌ يريد تجريحه ، نظر إليه من قمته كما ينظر الفيلسوف إلى صبيان يعبثون فى الطريق وقد يرمونه بالأحجار .

وقد رأينا الغضب يشتط بأصحابه إلى حد الجنون ، عندما تقتحم عليهم نفوسهم ، ويرون أنهم حقرُوا تحقيرا لا يعالجه إلا سفك الدم .

أفلو كان الشخص يعيش وراء أسوار عالية من فضائله يحس بوخز الألم على هذا النحو الشديد ؟ كلا . إن الإهانات تسقط على قاذفها قبل أن تصل إلى مرماها البعيد .

وهذا المعنى يفسر لنا حلم هود وهو يستمع إلى إجابة قومه بعد ما دعاهم إلى توحيد الله :

قالوا : ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ (٢)

إن شتائم هؤلاء الجهال لم يطش لها حلم هود ، لأن الشقة بعيدة بين رجل اصطفاه الله رسولا فهو فى الذؤابة من الخير والبر ، وبين قوم سفهوا أنفسهم

(١) سجاحة الخلق ، لينه وحسنه (٢) الاعراف . ٦٦ - ٦٨

وتهاووا على عبادة الأحجار يحسبونها - لغبائهم - تضر وتنفع !

كيف يضيق المعلم الكبير بهرف هذه القطعان ؟

وقد أراد رسول الله محمد ﷺ أن يعلم أصحابه هذا الدرس فى الأناة وضبط النفس ، فروى أن أعرابيا جاءه يطلب منه شيئاً ، فأعطاه ثم قال له : أحسنت إليك ؟ قال الأعرابى : لا ، ولا أجملت ! فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفُّوا . . ثم قام ودخل منزله ، فأرسل إليه وزاده شيئاً ، ثم قال له أحسنت إليك ؟؟ قال نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فقال له النبى : إنك قلت ما قلت آنفا ، وفى نفس أصحابى من ذلك شىء ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدىَّ حتى يذهب ما فى صدورهم عليك !! قال نعم : فلما كان الغد جاء ، فقال النبى ﷺ : إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه . فزعم أنه رضى ، أكذلك ؟ قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عليه فأتبعها الناس[1] فلم يزودها إلا نفوراً . فناداهم صاحبها ، فقال لهم : خلوا بينى وبين ناقتى . فإنى أرفق بها منكم وأعلم . فتوجه لها بين يديها فأخذ من قمام الأرض ، فردها حتى جاءت ! واستناخت . وشد عليها رحلها ، واستوى عليها .

« وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال ، فقتلتموه ، دخل النار » .

إن الرسول الحليم لم تأخذه الدهشة لكنود الأعرابى أول الأمر ، وعرف فيه طبيعة صنف من الناس مَرَدَ على الجفوة فى التعبير والاسراع بالشر ، وأمثال هؤلاء لو عوجلوا بالعقوبة لقضت عليهم ، ولما كانت ظلماً .

لكن المصلحين العظماء لا ينتهون بمصاير العامة إلى هذا الختام الأليم ، إنهم يفيضون من أناتهم على ذوى النزق حتى يلجئوهم إلى الخير إلجاء . ويطلقوا ألسنتهم تلهج بالثناء .

---

(١) أى جروا خلفها .

وثمن ذلك لا يضن به الواجد الأريب ، ولو كان عطاء سخيا ، فما بذل المال إلى جانب ملك الأنفس ؟

إن الأعرابى الذى اشترى رضاه بما علمت لا يبعد أن تراه بعد أيام وقد كلف بعمل خطير . يقدم فيه عنقه عن طيب خاطر !! وما المال فى أيدى المصلحين الكبراء إلا حاجة العفاة (١) من الوافدين الطامعين، أو هو قمام الأرض تستناخ به الرواحل الجامحة . لتفطع عليها المفازات الشاسعة .

وقد كان النبى ﷺ يستغضب أحياناً غير أنه ما يجاوز حدود التكرم والإغضاء .

والمحفوظ من سيرته أنه ما انتقم لنفسه قط ، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها .

ولما قال له أعرابىٌّ جلف وهو يقسم الغنائم : اعدل ، فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، لم يزد فى جوابه أن بين له ما جهله ، ووعظ نفسه وذكرها بما قال له فقال : « ويحك فمن يعدل إن لم أعدل ؟ خبتُ وخسرت إن لم أعدل » .

ونهى أصحابه أن يقتلوه حين همَّ بعضهم بذلك .

خطب النبى ﷺ فى الناس عصر يوم من الأيام فكان مما قاله لهم :

إن بنى آدم خلقوا على طبقات شتى :

« ألا وإن منهم البطىء الغضب سريعَ الفىء . والسريع الغضب سريع الفيء ، والبطىء الغضب بطىء الفيء فتلك بتلك . ألا وإن منهم الفىء سريع الغضب ألا وخيرهم بطىء الغضب سريع الفىء ، وشرهم سريع الغضب بطىء الفىء ، ألا وإن منهم حسن القضاء حسن الطلب ، ومنهم سيىء القضاء حسن الطلب ، ومنهم سيىء الطلب حسن القضاء فتلك بتلك ألا وإن منهم سيىء القضاء سيىء الطلب ، ألا وخيرهم الحسن القضاء الحسن الطلب ، وشرهم سيىء القضاء سيىء الطلب .

(١) طلاب العطايا .

« ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه . فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض[١] » أى فليبق مكانه وليجلس .

فإنه إذا استطير وراء لهب الغيظ أفسد الأمور فى غيبة وعيه وغلبة عاطفته فلم يدع لإصلاحها مكاناً .

وقد شرح الحديث الشريف صنوف الخلق ومنازلهم فى الفضل ، والمؤمن يضع نفسه حيث يجب .

إن الشخص الغضوب كثيراً ما يذهب به غضبه مذاهب حمقاء ، فقد يسب الباب إذا استعصى عليه فتحه وقد يكسر آلة تضطرب فى يده ، وقد يلعن دابة جمحت به .

وحدث أن رجلا نازعته الريح رداءه فلعنها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تلعنها فانها مأمورة مسخرة . وإنه من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه[٢] » .

وسيئات الغضب كثيرة ونتائجه الوخيمة أكثر ، ولذلك كان ضبط النفس عند سوراته دليل قدرة محمودة وتماسك كريم .

عن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماتعدُّون الصُّرعة فيكم ؟ قالوا : الذى لا تصرعه الرجال . قال : ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب[٣] » .

وقال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم : أوصنى ولا تكثر على لعلى لا أنسى ! قال : « لا تغضب[٤] » وهذه الإجابة المقتضبة خير ما يرد به على سؤال يصاغ فى هذه العبارة !

وقد كان صلى الله عليه وسلم ينصح من جاءوه مسترشدين بما يلائم طباعهم ويوافق بيئتهم ، وقد يوجز أو يطنب وَفْقَ ما تقضى به الأحوال .

والجاهلية التى عالج رسول الله صلى الله عليه وسلم محوها كانت تقوم على ضربين من الجهالة ، جهالة ضد العلم وأخرى ضد الحلم ، فأما الأولى فتقطيع

(١) الترمذى (٢) الترمذى (٣) مسلم (٤) مالك

ظلامها يتم بأنواع المعرفة وفنون الارشاد ، وأما الأخرى فكف ظلمها يعتمد على كبح الهوى ومنع الفساد . وقد كان العرب الأولون يفخرون بأنهم يلقون الجهل بجهل أشد .

الا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فجاء الإسلام يكفكف من هذا النزوان . ويقيم أركان المجتمع على الفضل ، فان تعذر فالعدل . ولن تتحقق هذه الغاية إلا إذا هيمن العقل الراشد على غريزة الغضب .

وكثير من النصائح التى أسداها الرسول للعرب كانت تتجه إلى هذا الهدف . حتى اعتبرت مظاهر الطيش والتعدى انفلاتا من الإسلام ، وانطلاقا من القيود التى ربط بها الجماعة فلا تميد وتضطرب !

« سباب المسلم فسوق وقتاله كفر[١] » .

وقال عبدالله بن مسعود : « ما من مسلمين إلا وبينهما ستر من الله عز وجل ، فاذا قال أحدهما لصاحبه كلمة هجر خرق ستر الله » .

ووفد أعرابى على رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يتعلم الإسلام ، ولم تكن له معرفة سابقة بالنبى صلى الله عليه وسلم . ولا بما يدعو إليه قال الأعرابى ـ واسمه جابر بن سليم ـ رأيت رجلا يصدر الناس عن رأيه ، لا يقول شيئا إلا صدروا عنه ، قلت : من هذا ؟ قالوا : رسول الله ! قلت : عليك السلام يا رسول الله ! قال : لا تقل عليك السلام ، « عليك السلام تحية الميت . قل : السلام عليك » !!

قال : قلت أنت رسول الله ؟ قال : أنا رسول الله الذى إذا أصابك ضُر فدعوته كشفه عنك . وإن أصابك عام سنة (جدب) فدعوته أنبتها لك ، وإذا كنت بأرض قفر فضلّت راحلتك فدعوته ردَّها عليك . .

قال : قلت . اعهد إلَّى . قال : لا تبُن أحداً ـ فما سببت بعده حرا ولا عبداً ولا بعيراً ولا شاة ـ قال : ولا تحقرن شيئاً من المعروف . وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهُك ، إن ذلك من المعروف . . ثم قال : وإن امروٌ

(١) البخارى

شتمك وعيَّرك بما يعلم فيك ، فلا تعيره بما تعلم فيه . فإنما وبال ذلك عليه [١] » .

* * *

ومن الناس من لا يسكت عنه الغضب ، فهو فى ثورة دائمة ، وتغيظ يَطبع على وجهه العُبوس . إذا مسه أحد ارتعش كالمحموم ، وأنشأ يُرغى ويزبد ويلعن ويطعن . والإسلام برىء من هذه الخلال الكدرة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس المؤمن بطعَّان ولا لعَّان ولا فاحش ولا بذىء [٢] » .

واللعن من خصال السِّفلة ، والذين يستنزلون اللعنات على غيرهم لأتفه الأسباب يتعرضون لبلاء جسيم ، بل إن المرء يجب أن يتنزه عن لعن غيره ، ولو أصابه منه الأذى الشديد .

وكلما ربا الإيمان فى القلب ربت معه السماحة وازداد الحلم ، ونفر المرء من طلب الهلاك والغضب للمخطئين فى حقه .

قيل لرسول الله ﷺ : ادع الله على المشركين والعنهم ! فقال : « إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا [٣] » وعلى قدر ما يضبط المسلم نفسه ، ويكظم غيظه ويملك قوله ، ويتجاوز عن الهفوات ، ويرثى للعثرات ، تكون منزلته عند الله .

ومن ثم استنكر رسول الله ﷺ على أبى بكر أن يلعن بعض رقيقه وقال : « لا ينبغى لصدِّيق أن يكون لعاناً [٤] » .

وفى رواية : « لا يجتمع أن تكونوا لعانين وصديقين [٥] » فأعتق أبو بكر أولئك الرقيق كفارة عما بدر منه لهم ، وجاء إلى النبى ﷺ يقول له : لا أعود !! ذلك أن اللعن قذيفة طائشة خطرة ، يدفع إليها الغضب الأعمى أكثر مما

(١) أبو داود . (٢) الترمذى . (٣) مسلم
(٤) مسلم (٥) الحاكم

يدفع إليها استحقاق العقاب ، واستهانة الناس بهذه الدعوات الشداد لا تليق ، لأنه لا يفلت من وبالها أحد .

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا لعن شيئا صعدت اللعنة إلى السماء ، فتغلق أبواب السماء دونها ، ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها ، ثم تأخذ يميناً وشمالا ، فإن لم تجد مساغا رجعت إلى الذى لعن . فإن كان أهلا . . وإلا رجعت إلى قائلها(١) » .

وقد حرم الإسلام المهاترات السفيهة وتبادل السباب بين المتخاصمين .

وكم من معارك تبتذل فيها الأعراض وتعدو فيها الشتائم المحرمة على الحرمات العزيزة ، وليس لهذه الآثام الغليظة من علة إلا تسلط الغضب وضياع الأدب .

وأوزار هذه المعارك الوضيعة تعود على الموقد الأول لجمرتها . كما جاء فى الحديث : « المستبَّان ما قالا فعلى البادىء منهما حتى يعتدى المظلوم(٢) » .

وملاك النجاة من هذه المنازعات الحادة تغليب الحلم على الغضب ، وتغليب العفو على العقاب ولاشك أن الإنسان يحزنه أى تهجم على شخصه أو على من يحب ، وإذا واتته أسباب الثأر سارع إلى مجازاة السيئة بمثلها . ولا يقر له قرار إلا إذا أدخل من الضيق على غريمه بقدر ما شعر به هو نفسه من ألم .

لكن هناك مسلكا أنبل من ذلك وأرضى لله . وأدلَّ على العظمة والمروءة . أن يبتلع غضبه فلا ينفجر ، وأن يقبض يده فلا يقتصَّ ، وأن يجعل عفوه عن المسىء من شكر الله الذى أقدره على أن يأخذ بحقه إذا شاء .

عن ابن عباس قال : لما قدم عيينة بن حصن نزل على ابن أخيه الحر ابن قيس ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ، إذ كان القراء أصحاب مجلس أمير المؤمنين عمر ومشاورته ، كهولا كانوا أو شبانا .

---

(١) أبو داود (٢) مسلم

فقال عيينة : يا ابن أخى استأذن لى على أمير المؤمنين . فاستأذن له فلما دخل قال : هيه يا ابن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به .

فقال الحر : يا أمير المؤمنين . إن الله يقول لنبيه : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وإن هذا من الجاهلين : فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله (١) » .

وإنما غضب عمر لتطاول الأعرابىّ وهمّ بردعه ، لأنه لم يدخل عليه ناصحاً بخير أو طالباً لحق ، وإنما دخل على حاكم فى سلطانه ليشتمه دون مبرر وليسأله عطاء جزلا على غير عمل !! فلما ذكر بأن الرجل من الجهال أعرض عنه وتركه ينصرف سالماً .

وفى الحديث : « من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره فى أى الحور شاء (٢) » .

وعن عبادة بن الصامت قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بما يشرف الله به البنيان ويرفع الدرجات ؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال : تحلم على من جهل عليك وتعفو عمن ظلمك . وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك (٣) » .

وقد عدّ القرآن الكريم هذه الشمائل الرقيقة طريق الفلاح التى تسرع بصاحبها إلى الجنات العلا :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (٤)

* * *

ومن قصص العفو التى لا مثيل لها بين الناس ، عفو رسول الله ﷺ عن

(١) البخارى (٢) أبو داود (٣) الطبرانى (٤) آل عمران ١٣٣ : ١٣٤

زعيم المنافقين عبدالله بن أبيّ . فإن عبدالله هذا كان عدوًّا لدوداً للمسلمين يتربص بهم الدوائر ، ويحالف عليهم الشيطان ، ويحيك لهم المؤامرات ، ولا يجد فرصة للطعن عليهم والنيل من نبيهم إلا انتهزها ، وهو الذى أشاع قالة السوء عن أم المؤمنين عائشة ، وجعل المرجفين يتهامسون بالإفك حولها ، ويهزون أركان المجتمع الإسلامى هزاً بهذا الاتهام الدنىء ، وتقاليد الشرق من قديم تجعل عرض المرأة فى الذروة من القداسة ، وتربط به كرامتها وكرامة أهلها الأبعدين والأقربين :

ولذلك كان حز الألم قاسياً فى نفس الرسول وأصحابه ، وكانت الغضاضة من هذا التلفيق الجرىء تملأ نفوسهم كآبة وغماً ، حتى نزلت الآيات آخر الأمر تكشف مكر المنافقين وتفضح ما اجترحوا وتنوه بطهر أم المؤمنين ونقاء صفحتها .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١)

ولقد أقيم الحد على من كانوا مخالب القط فى هذه المأساة ، أما جرثومة الشر فإنه نجا . . ليستأنف كيده للمسلمين وسوق الأذى لهم ما استطاع !!

وكتب الله الفوز لرسوله وجنده واكتسح الإسلام مخلفات القرون المخرفة ، وانحصر أعداؤه فى حدود أنفسهم ؛ بل لقد دُخلتْ عليهم من أقطارها وانكمش ابن أبى ثم مرض ومات ، بعد ما ملأت رائحة نفاقه كل فج ، وجاء ولده إلى رسول الله ﷺ يطلب منه الصفح عن أبيه فصفح ، ثم طلب منه أن يكفن فى قميصه فمنحه إياه ، ثم طلب منه أن يصلى عليه ويستغفر له ، فلم يردَّ له الرسول الرقيق العفوُّ هذا السؤال ، بل وقف أمام جثمان الطاعن فى عرضه بالأمس يستدر له المغفرة .

لكن العدالة العليا حسمت الأمر كله فنزل قوله تعالى :

(١) النور : ١١

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (١)

ومما يتصل بحادثة الإفك أن قريباً لأبى بكر كان يعيش على إحسانه لم يتورع عن الخبط فى عرض السيدة التى يكفله أبوها ، فنسى بذلك حق الإسلام وحق القرابة وحق الصنيع القديم ، مما أحفظ أبا بكر وجعله يحلف أن يترك قريبه هذا ، ولا يصله كما كان يصله .

فنزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢)

فعاد أبو بكر بعطائه الأول قائلا : إنى أحب أن يغفر الله لى .

الجــود والكــرم

الإسلام دين يقوم على البذل والإنفاق ، ويضيع على الشح والإمساك ، ولذلك حبب إلى بنيه أن تكون نفوسهم سخية ، وأكفُّهم ندية ، ووصاهم بالمسارعة إلى دواعى الإحسان ووجوه البر . وأن يجعلوا تقديم الخير إلى الناس شغلهم الدائم . لا ينفكون عنه فى صباح أو مساء :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣)

ومن الواجب على المسلم أن يقتصد فى مطالب نفسه حتى لا تستنفد ماله كله . فإن عليه أن يشرك غيره فيما آتاه الله من فضله ، وأن يجعل فى ثروته متسعاً يسعف به المنكوبين ويريح المتعبين .

---

(١) التوبة ٨٠ (٢) النور ٢٢ (٣) البقرة ٢٧٤

قال رسول الله ﷺ : « يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك . وإن تمسكه شر لك . ولا تلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى (١) » .

وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى حين قرن النهى عن التبذير بأمر الانفاق على القرابة والمساكين . فإن المبذر متلاف سفيه ، يضيع فى شهواته الخاصة زبدة ماله . فماذا يبقى بعدُ للحقوق الواجبة والعون المفروض ؟؟

قال الله تعالى : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ (٢)

ومضى السياق فى الإيصاء بالمحتاجين وصيانة وجوهم فأمر المسلم أن يُرجِّيهَم الخيرَ ، وأن يردَ بميسور من القول إذا كان لا يملك إيتاءهم ما يبتغون .

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ (٣)

ودعوة الإسلام إلى الجود والإنفاق مستفيضة مطردة ، وحرْبُه على الكزازة والبخل موصولة متقدة .

وفى الحديث : « السخىُّ قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار ، ولجاهلٌ سخىٌّ أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل (٤) » .

إنه لم يوجد فى الدنيا ـ ولن يوجد ـ نظام يستغنى البشر فيه عن التعاون والمواساة ، بل لابد لاستتباب السكينة وضمان السعادة من أن يعطف القوى على الضعيف ، وأن يَرفق المكثر بالمقل ، مادامت طبيعة المجتمع البشرىّ أن تتجاور فيه القوة والضعف والإكثار والإقلال ! .

ولو كان المال فى وفرته وندرته يتبع ما أوتى الناس من مواهب معنوية لاكتنز

(١) مسلم (٢) الاسراء ٢٦ . ٢٧ (٣) الاسراء ٢٨ (٤) الترمذى

البعض الكثير ، وعاش البعض على الكفاف فتلك سنن الخليقة التى لا افتعال فيها ، وإنما يتسرب الشقاء إلى الناس عندما يحيون متقاطعين لا يعرفون إلا أنفسهم ومطالبها فحسب ، مع أن الله عز وجل خلط الناس بعضهم ببعض ، وجعل اختلاطهم على اختلاف أحوالهم اختباراً عويصاً يمحص به الإيمان ويوزع به الفضل : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (١)

ولن تنجح أمة فى هذا المضمار إلا إذا وثقت الصلات بين أبنائها ، فلم تبق محروماً يقاسي ويلات الفقر ، ولم تبق غنياً يحتكر مباهج الغنى .

وفى الإسلام شرائع محكمة لتحقيق هذه الأهداف النبيلة ، من بينها تنشئة النفوس على فعل الخير وإسداء العون وصنائع المعروف ، ونتائج هذه التنشئة السمحة لا يسعد بها الضعاف وحدهم ، بل يرتد أمانها واطمئنانها إلى الباذلين أنفسهم ! فتقيهم زلازل الأحقاد وعواقب الأثرة العمياء :

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ (٢)

إن الفقر معرَّة إذا لصقت بالإنسان أحرجته ، وهبطت به دون المكانة التى كتب الله للبشر ، وإنها لتوشك أن تحرمه الكرامة التى فضل الله بها الإنسان على سائر الخلق ، وإنه لعزيز على النفس أن ترى شخصا مشقوق الثياب ، تكاد فتوقه تكشف سوءته ، أو حافى الأقدام أبلى أديمُ الأرض كعوبه وأصابعه ، أو جوعان يمد عينيه إلى شتى الأطعمة ثم يرده الحرمان وهو حسير ..

والذين يرون هذه الصور الفاحشة ثم لا يكترثون بها ليسوا بشراً وليسوا مؤمنين ، فبين البشر عامة رحم يجب أن توصل وألا تمزقها الفاقة .

---

(١) الفرقان ٢٠ (٢) القتال « محمد » ٣٨

وقضية الإيمان أن يرهب المرء ربه فى أمثال أولئك البائسين .

ولقد حدث أن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد هذه المناظر الحزينة فشق عليه مرآها ، فجمع المسلمين ثم خطبهم ، فذكرهم بحق الإنسان على الإنسان وخوفهم بالله واليوم الآخر ، ومازال بهم حتى جمعوا ما أغنى وستر .

عن جرير قال : كنا فى صدر النهار عند رسول الله ﷺ ، فجاءه قوم عراة ، مجتابى النمار - مشقوقى الملابس - عامتهم من مضر ، فتمعر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى بهم من الفاقة - تغير وحزن - فدخل ثم خرج ، فأمر « بلالا » فأذن وأقام فصلى ، ثم خطب فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾

ثم قال : ليتصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره ، حتى قال : ولو بشقِّ تمرة .

قال : فجاءه رجل من الأنصار بصرَّة كادت كفه تعجز عنها ، بل لقد عجزت ! ثم تتابع الناس . حتى رأيت كومين من طعام وثياب . حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهللُ كأنه مُذَهبَةٌ (١) ، فقال رسول الله ﷺ :

« من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شىء » .

ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى غير أن من الحديث ينقص من أوزارهم شىء (٢) .

(١) مذهبه . صفحة مطلية بالذهب (٢) مسلم

وهذا الكلام البليغ دعوة إلى التنافس فى الخير ، والتسابق فى افتتاح مشروعاته النافعة ، كقطار الرحمة ، ومعونة الشتاء ، وأشباه ذلك ، وهو تحذير كذلك لأولئك الذين ينشئون التقاليد السمجة ويعقدون بها شئون الجماعة ، ويتركون مَنْ بعدهم يضطرب فى شرورها ومتاعبها .

* * *

لكن الإنسان مجبول على حب المال والحرص على اقتنائه ، يضرب فى مناكب الأرض وللأثرة فى نفسه إيحاء شديد ، أكثر تفكيره فى نفسه وأقله فى الآخرين .

لو أنه أوتى ما فى الأرض جميعًا ، بل لو أنه امتلك خزائن الرحمة العليا لما طوَّعت له نفسه أن تنفق منها بسعة ، ولقامت له من طبيعته الضيقة علل شتى تضع فى يديه الأغلال ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ (١)

وقد عد الإسلام هذا الشعور من النزعات الخسيسة التى يجب أن تخاصم بعنف ، وأن تقاوم دسائسها بيقظة ونشاط ، وبين أن الفوز بخيرى الدنيا والآخرة لا يحرزه إلا من نجح فى قمع دوافع البخل فى نفسه حتى عودها التكرم والسخاء :

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢)

إن الأموال المستخفية فى الخزائن ، المختبىء فيها حقُّ المسكين والبائس ، شر جسيم على صاحبها فى الدنيا والآخرة ، إنها أشبه شيء بالثعابين الكامنة فى جحورها كأنها رصيد الأذى للناس ، بل إن الأسلام أبان أنها تتحول فعلا إلى حيات قد أمرقَّتْ واحتدَّفت أنيابها . تطارد صاحبها لتقضم يده التى غلها الشح .

« .. ولاصاحب كنز لا يفعل فيه حقه إلا جاء كنزه يوم القيامة شجاعًا أقرع(٣)

---

(١) الإسراء : ١٠٠ . (٢) التغابن : ١٦ . (٣) الشجاع الأقرع : الثعبان المسن .

يتبعه فاتحًا فاه ، فإذا فرَّ منه يناديه . خذ كنزك الذى خبأت ، فأنا عنه غنىّ فإذا رأى أنه لابد له منه سلك يده فى فمه ، فيقضمُها قضم الفحل (١) » .

وقد أخذ الإسلام يفهم الأنسان بالحسنى والإقناع أن محبته الشديدة لما له قد تورده المتالف ، وأنه لو فكر فى حقيقة ما يملك وفى عاقبته معه لرأى السماحة أفضل من الأثرة ، والعطاء خيرًا من البخل .

« يقول العبد : مالى مالى : وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأقنى (٢) . وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس (٣) » .

وعجيب أن يشقى أمرؤ فى جمع ما يتركه لغيره ، وإذا لم يستفد المسلم من ماله فيما يصلح معاشه ويحفظ معاده فممَّ يستفيد بعد ؟ .

وقد أماط الرسول اللثام عن هذه الحقيقة فقال : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ قالوا : يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه . قال : فإن ماله ما قدَّم ومال وارثه ما أخر (٤) » !! .

ومع ذلك ، فإن النبىَّ عندما أعلن عن جمع الزكاة تحسس برفق مشاعر الحرص فى الناس وتلطف فى علاجها فقال : « سيأتيكم رُكيبٌ مبغضون - يعنى جامعى الزكاة - فإذا جاءوكم فرحبوا بهم وخلوا بينهم وبين ما يبتغون فإن عدلوا فلأنفسهم وإن ظلموا فعليهم ، وأرْضوهم فإن تمام زكاتكم رضاهم وليدعوا لكم (٥) » .

ونجاح الإنسان فى إزاحة عوائق البخل التى تعترض مشاعر الخير فيه هو فى نظر الإسلام فضيلة كاملة ، إذ المعروف أن المرء يشتد أمله فى الحياة ، وتتوثق أواصره بها عندما يكون صحيح البدن ، طامحاً فى المستقبل ، يقتصد فى نفقته ويضاعف فى ثروته ، ليطمئن إلى غد أرغد له ولذريته ، فإذا غالب هذه العوامل كلها وبسط كفه فى ماله ، ينفق عن سعة ولا يخشى إقلالاً ولا ضياعًا ، فهو يفعل الخير العظيم .

---

(١) البخارى (٢) يقال : أقناه بمعنى ملكه . (٣) مسلم . (٤) البخارى (٥) أبو داود

جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أى الصدقة أعظم أجرًا ؟ قال : « أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى أذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان كذا[1] » .

* * *

والبذل الواسع عن إخلاص ورحمة يغسل الذنوب ويمسح الخطايا :

قال الله تعالى : ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[2]

وقال : ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[3]

فإذا انزلق المسلم إلى ذنب وشعر بأنه باعد بينه وبين ربِّه ، فإن الطهور الذى يعيد إليه نقاءه ويرد إليه ضياءه ويلفهُ فى ستار الغفران والرضا ، أن يجنح إلى مال عزيز عليه فينخلعَ عنه للفقراء والمساكين ، زلفى يتقرَّب بها إلى أرحم الراحمين :

عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال : « تعبد عابد من بنى إسرائيل فعبد الله فى صومعة ستين عامًا ، فأمطرت الأرض فاخضرّت ، فأشرف الراهب من صومعته ، فقال : لو نزلت فذكرت الله فازددت خيرًا !! فنزل ومعه رغيف أو رغيفان ، فبينما هو فى الأرض لقيته امرأة فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها ، ثم أغمى عليه .

فنزل الغدير يستحم ، فجاءه سائل ، فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين ، ثم مات .. فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته ، ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته ، فرجحت حسناته ، فغفر له[4] » .

ومن أروع الأمثلة فى بيان ما للعطاء والجود من أثر فى الغفران والنجاة ، ما أوحى الله به إلى نبيه يحيى ليعلمه أمته : « .. وآمركم بالصدقة . ومثل ذلك

---

(١) البخارى (٢) البقرة : ٢٧١ (٣) التغابن : ١٧ - ١٨ (٤) ابن حبان

كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه ، وقربوه ليضربوا عنقه ، فجعل يقول : هل لكم أن أفدى نفسى منكم ؟ وجعل يعطى القليل والكثير حتى فدى نفسه [١] » .

* * *

إن الصدقات التى نبذلها ، على اختلاف صنوفها ، من زكاة أو هبة أو نفقة أو غير ذلك جليلة الخطر فى معاش الإنسان ومعاده ، وهى فى أساسها تضعف أو تقوى صلة المسلم بدينه ، ولن يحرم المرء كبخله فى الحقوق وسوء ظنه بالله . ولن يسبق به كجوده وثقته فى فضل الله .

قال رسول الله ﷺ : « صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، وصدقة السر تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد فى العمر [٢] » .

وقال : « حصِّنوا أموالكم بالزكاة ، وداوُوا مرضاكم بالصدقة ، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرُّع [٣] » .

وما من شىء أشق على الشيطان ، وأبطل لكيده ، وأقتل لوساوسه من إخراج الصدقات . ولذلك يقذف فى النفوس الوهن حتى يثبطها عن البذل ، ويعلقها بالحطام الفانى .

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٤]

وفى الحديث : « لا يخرج رجل شيئًا من الصدقة ، حتى يفك عنها لِحَى سبعين شيطانًا ، كلهم ينهى عنها [٥] » .

إن الإنسان عندما يقسم راتبه أو دخله على مصارفه ومطالبه يجعل جزءًا ـ قل أو كثر ـ للمستهلكات المعدومة ، وينظر إليه على أنه مغارم لازمة وقد نبه الإسلام إلى أن المرء

---

(١) الحاكم . (٢) الطبرانى . (٣) أبو داود
(٤) البقرة : ٢٦٨ . (٥) أحمد .

قد يسوغ له أن يعد طعامه وشرابه ودواءه فى هذا الجزء المفقود ..!
أما ما أنفقه فى سبيل الله فلا ...

روى عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فقال النبى ﷺ : ما بقى منها ؟ قالت ما بقى منها إلا كتفها . قال : بقى كلها إلا كتفها(١) » .

وهذا مصداق قوله عزَّ وجل : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ (٢)

ويروى الرسول عن ربه هذا الحديث : « يا ابن آدم أفرغ من كنزك وعندى لا حَرَقٌ ، ولا غَرَقٌ ولا سَرَقٌ ، أوفيكه أحوج ما تكون إليه(٣) » .

* * *

وقد يسبق الظن إلى أن السخاء ينقص الثروة ويقرب من الفقر ، ويسلب الرجل نعمة الطمأنينة فى ظل ماله الممدود ، وخيره المشهود . وهذا الظن من وساوس الشيطان التى يلقيها فى نفوس الكازِّين الأدنياء .

والحق أن الكرم طريق السعة ، وأن السخاء سبب النماء ، وأن الذى يجعل يديه ممرًّا لعطاء الله يظل مبسوط اليد بالنعمة ، مكفول اليوم والغد بالغدق الدائم من رحمة الله وكرمه .

وفى الحديث : « ثلاثة أقسم عليهن .. ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها ، إلا زاده الله بها عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة(٤) إلا فتح الله عليه باب فقر(٥) » .

فليستمسك الأنسان بعرا السماحة ، وليسارع إلى سداد ما يلقاه من ثغرات ، ولينظر إلى المحتاجين الذين يقصدونه نظرته إلى أسباب التجارة الرابحة .

إن بذل اليوم القليل فسيرجع غدًا أو بعد غد بالكثير ..

وقد اعتبر الله العطاء الجميل قرضًا حسنا ، لا يرده لصاحبه مِثْلَا أو مثلين بل يردُّه أضعافًا مضاعفة . وأغرى العبد بالإنفاق ، فكشف له أن نفقته على غيره

(١) الترمذى ، وكانوا قد تصدقوا بها ما عدا كتفها . (٢) النحل : ٩٦ .
(٣) البيهقى . (٤) مسألة : تسول . (٥) ابن ماجه .

وسيلة جُلى ليتولى الله الإغداق عليه من خزائنه التى لا يلحقها نفاد .

وفى الحديث عن الله تبارك وتعالى : « يا عبدى أنفق أنفق عليك ، يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يغض ما بيده ، وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع(١) » . وقال عزَّ وجل :

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (٢)

إن المنفقين هم - على السراء والضراء - بعين الله ، وفى كنفه ، تصلى عليهم الملائكة ويرتقب لهم المزيد ، أما الكانزون فلا يتوقع لهم إلا الضياع . وهل يخلدون مع المال أو يخلد معهم المال ؟ إن المال عارية انتقل إلينا من غيرنا ، وسينتقل منا إلى غيرنا ، فلم التشبث به والتفانى فيه ؟

إن كل ما يتعلق البشر به من حطام الدنيا سوف يدعونه لوارث السموات والأرض ، وسينقلبون إلى ربهم عراة ، لا مال ولا جاه كما خلقوا أول مرة ، وسيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة فلا غرو إذا نقم الملأ الأعلى على من ينسى هذه الحقائق ، وينطلق فى ربوع الأرض ، لا هم له إلا جمع ما يضره ، ونسيان ما يفيده .

قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط مُنفقًا خلفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا(٣) » .

* * *

وقد يحرص المرء على المال لأنه يريد ترك أولاده فى ثراء يحميهم تقلب الأيام وأحداث الليالى ، وهذا قصد حسن ، والمسلم مكلف أن يصون ذريته ، وأن يمنع عنهم العيلة ، وأن يراهم بمأمن من الحاجة إلى الناس ، والإسلام الذى يأمرك أن تحارب الفقر فى بيت الغريب لا يرضى لك أن تجره إلى بيتك :

---

(١) البخارى . (٢) سبأ . ٣٩ . (٣) مسلم .

وفى الحديث : « .. لأن تذر ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تَدَعهم عالة يتكففون الناس[١] » .

لكن كفالة المرء لأولاده وضمانه لمستقبلهم لا يصح أن يتم على حساب دينه وخلقه : وإنها لحماقة أن يضحى الإنسان بنفسه ، وبمروءته ، وبرضوان الله عليه ، ليقتر من كسبه ما يبقيه لعقبه :

وقد كشف الإسلام عن أن أولاد المسلم وأمواله كسائر النعم التى تساق إليه ليُمتحن فيها ، فإن وقف عندها ، وذهل عن الواجبات المكتوبة والتضحيات المطلوبة فإن هذه النعم تكون مصدر بلائه ، بل تكون أنكى أعدائه :

وهذا تفسير قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[٢]

نعم ! إن قعد الرجل عن الجهاد ليظل قريبًا من زوجه ، أو نكص عن البذل ليدخر الكثير لولده ، فهو مسىء فى شكر النعم التى يسِّرتْ له ، وقد جعل منها بغبائه نقمة عليه .

وعن خولة بنت حكيم قالت : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم وهو محتضن أحد ابنى بنته ، وهو يقول : « إنكم لتبُخِّلون وتُجبِّنون وتُجهِّلون ، وإنكم لمن ريحان الله تعالى[٣] » !!

فمن استفاد من ولده أن يكون بخيلا جبانًا جهولا فقد خسر ومن عرف حقوق الله وعباده قبل كل شىء فقد أفلح .

على أن البخل بالحقوق وكنزها للأولاد لا يمحو فقرًا ولا يضمن غنى ولا يُقبل من صاحبه يوم القيامة عذر .

(١) البخارى . (٢) التغابن : ١٤ ، ١٥ . (٣) الترمذى .

روى عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « شر الله عبدين ممن أكثر لهما من المال والولد . فقال لأحدهما : أى فلانُ بنَ فلان . قال : لبيك رب وسَعديك . قال : ألم أكثر لك من المال والولد ؟ قال : بلى ، أى رَبْ قال : وكيف صنعت فيما آتيتك ؟ قال : تركته لولدى مخافة العيلة !! قال : أما إنك لو تَعْلم العلم لضحكت قليلا ولبكيت كثيرًا . أما إن الذى تخوفت عليهم قد أنزلت بهم .

ويقول للآخر : أَىْ فلانُ بنَ فلان ، فيقول لبيك أَىْ رَبِّ وسعديك قال له : ألم أكثر لك من المال والولد ؟ قال : بلى أى رب ، قال • فكيف صنعت فيما آتيتك ؟ قال : أَنفقتَ فى طاعتك ، ووثقت لولدى من بعدى بحسن طولك ! قال : أما إنك لو تَعْلم العلم لضحكت كثيرًا ولبكيت قليلا . أما إن الذى وثقت به قد أنزلت بهم[(١)] » .

والإسلام يوصى بأن يكرم المرء نفسه ثم أهل بيته ثم ذوى رحمه ثم سائر الناس .

ومعنى كرم المرء مع نفسه أن يشبع نَهَمتها[(٢)] من الحلال فيصدَّها عن الحرام ، وأن يصونها عن مظاهر الفاقة التى تخدش مكانتها فى المجتمع ، وتهبط بها دون المستوى الواجب لعزة المسلم ، وذلك كله فى نطاق القصد الذى لا إسراف فيه ولا شطط ، للمسلم أن يمسك لديه من المال ما يبلغه هذه الأهداف المشروعة ، فإذا لم يجدها فهو فقير .

عن أبى سعيد الخدرىّ « دخل رجل المسجد بهيئة بَذّة[(٣)] والنبى ﷺ يأمر بالصدقة فتصدَّق الناس . فأعطاه النبىُّ ثوبين ثم قال : تصدقوا ، فطرح الرجل أحد ثوبيه . فقال النبى ﷺ : أترون إلى هذا الذى رأيته بهيئة بذة فأعطيته ثوبين ؟ ثم قلت : تصدقوا فطرح أحد ثوبيه !! خذ ثوبك !! وانتهره . [(٤)] » .

إن رسول الله ﷺ يريد أن يمحو من المجتمع مناظر العُرى والفاقة والبؤس ، وقد لا يبالى بعض الناس أن يعيش طاويًا عارياً بيد أن أمثال هؤلاء لا ينبغى أن

---

(١) الطبرانى . (٢) نهمتها : حاجتها . (٣) أى رثة . (٤) أبو داود .

يفرضوا مذهبهم فى الحياة على تعاليم الدين نفسه ، فإن الإسلام يـوجب أن يملك الإنسان من متاع الحياة ما يرفع رأسه ويحقن وجهه .

عن جابر قال : جاء رجل بمثل بيضة من ذهب ، فقال : يا رسول الله أصبت هذه من معدن فخذها فهى صدقة ما أملك غيرها ! فأعرض عنـه ، فـأتاه من قبل ركنه الأيمن فقال مثل ذلك . فأعرض عنه . فأتاه مـن قبـل ركنـه الأيسر فقال مثل ذلك فأعرض عنه ، ثم أتاه من خلفه فقال مثـل ذلك ، فـأخذها النبى ﷺ فحذفه بها ، فلو أصابته لأوجعته . .

وقال : « يأتى أحدكم بجميع ما يملك فيقول : هـذه صـدقة ، ثـم يقعـد يتكفف الناس ، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى . . [١] » .

* * *

وعلى رب البيت أن يتعرف المطالب المعقولة لأهله وولـده ، وأن ينفـق عـن سعة فى قضائها ، فليس من الدين أن يدع المرء زوجته أو بنيه وبناته فى حال قلقـة من الاحتياج والضيق ، ثم يضع ماله فى مصرف آخر مهمـا كان خـطره ، فـروابط الأسرة أولى بالعناية وأحق بالتوثيق من غيرها :

قال رسول الله ﷺ : « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقتـه فى رقبـة ، ودينار تصدقت به على أهلك ، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك [٢] » .

ذلك ، وقد مضى فى « الإخلاص » ذكر قوله صلى الله عليـه وسـلم : « إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة [٣] » .

والإسلام بهذا الإرشاد الدقيق يريد أن يرتب النفقات المشروعة الترتيب المثمر الصالح ، فإن الأسرة قوام المجتمع الكبير والخلية الحيـة التـى تـكون بنـاءه الضخم ، فتوجيه العناية إليها أولا أجدى على الأمة كلهـا مـن حـرمانها وتحـويل حقوقها عنها .

ثم إن فى هذا الإرشاد زجراً لطائفة مـن النـاس يجنحـون إلى السرف خـارج بيوتهم وبين أصدقائهم أو الغرباء عنهم ، فإذا خلوا إلى أهلهـم كانـوا أمثلـة سـيئة للتقتير والعسف !

* * *

(١) أبو داود (٢) مسلم (٣) البخارى

وأقرباء المسلم أجدر الناس بالإفادة من فضول ماله ، ومن حقهم أن ينصرف إليهم أى عطاء تجود به يده ، وذلك أَول ما يتبادر إلى الفهم السليم ، فإنه إذا كان إلى جنب الإنسان محتاج فلا معنى لمجاوزته والذهاب بالخير إلى آخر قصىٍّ ، بل إن ذلك قد يزرع الضغينة فى قلوب المحرومين ، ويشعرهم بأن إهمالهم متعمد للنكاية بهم والإزراء عليهم ، فإذا كان هذا التنكيل بذوى القربى ما يقصده المعطى ، فإن صدقته تُرد عليه وتتحول وبالا :

وفى الحديث : « يا أمة محمد والذى بعثنى بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة محتاجون إلى صلته ويصرفها إلى غيرهم ، والذى نفسى بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة(١) » .

وعن زينب الثقفية امرأة عبدالله بن مسعود رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « تصدَّقن يا معشر النساء ولو من حليكنَّ قالت : فرجعتُ إلى عبدالله ابن مسعود فقلت له : إنك رجل خفيفُ ذات اليد ، وإن رسول الله قد أمرنا بالصدقة فأته فسله ، فإن كان ذلك يجزى عنى وإلا صرفتها إلى غيركم ، فقال عبدالله : بل أئته أنت !!

قالت : فانطلقت فإذا امرأة من الأنصار ، حاجتها حاجتى ، وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة ، فخرج علينا بلال ؛ فقلت له : أئت رسول الله فأَخبره أن امرأتين بالباب يسألانك : أتجزى الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام فى حجورهما ؟ ولا تخبره من نحن .

قالت : فدخل بلال على رسول الله فسأله ، فقال رسول الله ﷺ : من هما ؟ فقال : امرأة من الأنصار وزينب ، فقال رسول الله ﷺ : أى الزيانب ؟ قال : امرأة عبدالله بن مسعود ، فقال : لهما أجر القرابة وأجر الصدقة(٢) » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى القريب صدقتان ، صدقة وصلة(٣) » .

---

(١) الطبرانى . (٢) البخارى . (٣) الترمذى

الصـــبر

« الصبر ضياء »(١) . .

إذا استحكمت الأزمات وتعقدت حبالها ، وترادفت الضوائق وطال ليلها ، فالصبر وحده هو الذى يشع للمسلم النور العاصم من التخبط ، والهداية الواقية من القنوط . والصبر فضيلة يحتاج إليها المسلم فى دينه ودنياه ، ولابد أن يبنى عليها أعماله وآماله وإلا كان هازلا . . يجب أن يوطن نفسه على احتمال المكاره دون ضجر ، وانتظار النتائج مهما بعدت ، ومواجهة الأعباء مهما ثقلت ، بقلب لم تعلق به ريبة ، وعقل لا تطيش به كُربة ، يجب أن يظل موفور الثقة بادى الثبات ، لا يرتاع لغَيْمة تظهر فى الأفق ولو تبعتها أخرى وأخرى ، بل يبقى موقناً بأن بوادر الصفو لابد آتية ، وأن من الحكمة ارتقابها فى سكون ويقين .

وقد أكد الله أن ابتلاء الناس لا محيص عنه ، حتى يأخذوا أهبتهم للنوازل المتوقعة ، فلا تذهلهم المفاجآت ويضرعوا لها(٢) .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٣)

وذلك على حد قول الشاعر :

عرفنا الليالى قبل ما نزلت بنا　　فلما دهتنا لم تزدنا بها علما !

ولاشك أن لقاء الأحداث ببصيرة مستنيرة واستعداد كامل أجدى على الإنسان ، وأدنى إلى إحكام شئونه .

قال تعالى :

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (٤)

* * *

والصبر يعتمد على حقيقتين خطيرتين :

(١) مسلم (٢) أى : بذلوا　(٣) القتال « محمد » ٣١　(٤) ال عمران ١٨٦

أما الأولى فتتعلق بطبيعة الحياة الدنيا ، فإن الله لم يجعلها دار جزاء وقرار ، بل جعلها دار تمحيص وامتحان ، والفترة التى يقضيها المرء بها فترة تجارب متصلة الحلقات يخرج من امتحان ليدخل فى امتحان آخر ، قد يغاير الأول مغايرة تامة ، أى أن الإنسان قد يمتحن بالشيء وضده ، مثلما يصهر الحديد فى النار ثم يرمى فى الماء . وهكذا .

وكان سليمان عالماً بطبيعة الدنيا عندما رزق التمكين الهائل فيها فقال :

﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (١)

والابتلاء بالأحزان مبهم الأسباب ! ويحسن أن نفهم أن أوضاع الناس فى الحياة كجيش عبئ للقتال ، وقد تكلفُ بعض فرقه بالقتال حتى الموت ، لإنقاذ فرق أخرى ، وإنقاذ الفرق الباقية يكون للقذف بها فى معارك جديدة ، ترسمها القيادة حسبما توحى به المصلحة الكبرى ، فتقدير فرد مَّا فى هذه الغمار المائجة لا ينظر إليه ، لأن الأمر أوسع مدى من أن يرتبط بكيان فرد معين .

كذلك قد يكتب القدر على البعض صنوفاً من الابتلاء ربما انتهت بمصارعهم . وليس أمام الفرد إلا أن يستقبل البلاء الوافد بالصبر والتسليم ، ومادامت الحياة امتحاناً فلنكرس جهودنا للنجاح فيه .

وامتحان الحياة ليس كلاماً يكتب أو أقوالا توجه ، إنه الآلام التى قد تقتحم النفس وتفتح إليها طريقاً من الرعب والحرج ، إنها النقائض التى تجعل الدنيا تتخم بطون الكلاب ، وتنيم صدّيقين على الطوى ، إنها المظالم التى تجعل قوماً يدعون الألوهية ، وآخرين يستشهدون وهم يدافعون عن حقوقهم المنهوبة .

إن تاريخ الحياة من بدء الخلق إلى اليوم مؤسف ! ومن الحق أن يشق المرء طريقه فى الحياة وهو موقن بأنه غاص بالأشواك والأقذاء .

---

(١) النمل ٤٠

وأما الحقيقة الأخرى فتتعلق بطبيعة الإيمان :

فالإيمان صلة بين الإنسان وبين الله عزَّ وجل ، وإذا كانت صلات الصداقة بين الناس لا يُعتدّ بها ولا ينوه بشأنها إلا إذا أكدها مر الأيام ، وتقلب الليالى ، واختلاف الحوادث ، فكذلك الإيمان ، لابد أن تخضع صلته للابتلاء الذى يمحصها ، فإما كشف عن طيبها ، وإما كشف عن زيفها .

قال الله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ (١)

ولا ريب فى أن علم الله محيط بظواهر الأمور وبواطنها ، وأن هذا الامتحان لم يأت بجديد بالنسبة إلى الكشف الإلهى ، المستوعب للبدايات والنهايات ، غير أن الإنسان لا يحاسب على ما فى علم الله ، بل حسابه على عمله الشخصى ، وإذا كان بعض المجرمين سينكرون ما اقترفوا من سيئات ، فكيف تقام عليهم الحجة إلا بامتحان تشهده جوارحهم ، وتنطق به أركانهم ؟

قال تعالى فى هؤلاء : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ (٢)

فكيف يُكتفى بحساب هؤلاء على مقتضى العلم الإلهى ؟ إن جزاءهم العدل لا يقضى به عليهم إلا من أعمالهم التى تثبت لهم ولغيرهم فسادهم وسوء صنيعهم .

* * *

على هاتين الحقيقتين يقوم الصبر ، ومن أجلهما يطالب الدين به . بيد أن

---

(١) العنكبوت ٢ ، ٣ (٢) الأنعام ٢٢ - ٢٤

الإنسان - ومن عادته تجاهل الحقائق - يدهش للصعاب إذا لاقته ، ويتبرم بالآلام إذا مسته ، ويقوم له من طبعه الجزوع ما يبغض له الصبر ، ويجعله فى حلقه كريه المذاق . فإذا أحرجه أمر ، أو صدمته خيبة ، أو نزلت به كارثة ، ضاقت عليه الأرض بما رحُبت ، وضاقت عليه الأيام مهما امتدت !! وحاول أن يخرج من حالته بأسرع من لمح البصر . . وهى محاولة قلما تنجح ، لأنها ضد طبيعة الدين والدنيا ، وأولى بالمسلم أن يدرب نفسه على طول الانتظار ، قال تعالى :

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ (١)

وفى الحديث : « . . ومن يتصبر يصبّره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر(٢) » .

والصبر من معالم العظمة وشارات الكمال ، ومن دلائل هيمنة النفس على ما حولها ، ولذلك كان « الصَّبور » من أسماء الله الحسنى ، فهو يتمهل ولا يتعجل ويبطىء بالعقاب إن أسرع الناس بالجريمة ، ويرسل أقداره لتعمل عملها على اتساع القرون ، لا على ضيق الأعمار ، وفى نطاق الزمن الرحب ، لا فى حدود الرغبات الفائرة ، والمشاعر الثائرة :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٣)

والصبر من عناصر الرجولة الناضجة والبطولة الفارعة ، فإن أثقال الحياة لا يطيقها المهازيل . والمرء إذا كان لديه متاع ثقيل يريد نقله ، لم يستأجر له أطفالا أو مرضى أو خوارين ؛ إنما ينتقى له ذوى الكواهل الصلبة ؛ والمناكب الشداد !! كذلك الحياة ، لا ينهض برسالتها الكبرى ، ولا ينقلها من طور إلى طور إلا رجال عمالقة وأبطال صابرون . .

ومن ثَمَّ كان نصيب القادة من العناء والبلاء مكافئاً لما أوتوا من مواهب ، ولما أدوا من أعمال .

---

(١) الأنبياء ٣٧ (٢) البخارى (٣) الحج ٤٧

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل . يبتلى الناس على قدر دينهم ، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه ، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه . وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشى على الأرض ما عليه خطيئة[١] » .

فاختلاف أنصبة الناس من الجهد والتبعة والهموم الكبيرة يعود إلى طاقتهم فى التحمل والثبات .

وسنة العظمة والاعتداد هى التى أوحت لقائد أمريكى كبير أن يقول : « لا تسأل الله أن يخفف حملك ، ولكن اسأل الله أن يقوى ظهرك » إن خفة الحمل : وفراغ اليد ، وقلة المبالاة صفات قد يظفر الأطفال منها بقسط كبير لكن مشاغل العيش وهموم الواجب ، ومرارة الكفاح ، واستدامة السعى ، هى أخلاق الجاهدين البنائين فى الحياة والرجل القاعد فى داره لا يصيبه غبار الطريق ، والجندى الهارب لا يشوكه سلاح ، ولا يروعه زحف . أما الذين أسهموا فى معركة الحياة وخاضوا غمارها ، فستغبرهم وعثاؤها ، وتنالهم جراحاتها ، ويدركهم من النصب والكلال ما يدركهم .

ومن هنا كرم الاسلام المنتصبين لأعراض الدنيا[٢] وواسى المتعبين مواساة تطمئن بالهم وتخفف آلامهم .

« مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تُفيئها الريح ، تصرمها مرة وتعدلها أخرى حتى يأتيه أجله . ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذبة على أصلها لا يصيبها شيء حتى يكون انجعافها[٣] مرة واحدة[٤] » .

فالمؤمن السارب فى الحياة هدف لمشاكلها الجمة ، أما العاجز الهارب من الميدان فماذا يصيبه ؟ :

وذاك سر قوله ﷺ : « مَن يُرد الله به خيراً ، يصب منه[٥] » وقوله : « إذا

(١) ابن حبان (٢) أى أهل بلائها (٣) انجعافها : قلعها (٤) مسلم (٥) البخارى

أحب الله قوماً ابتلاهم . فمن رضى فله الرضا ، ومن سَخِط فله السخط[١] » فالمتعرض لآلام الحياة ، يدافعها وتدافعه ، أرفع عند الله درجات من المنهزم القابع بعيداً ، لا يخشى شيئاً ولا يخشاه شيء .

وما ادخره الله لأولئك العانين الصابرين يفوق ما ادخره لضروب العبادات الأخرى من ثواب جزيل :

« يود أهل العافية يوم القيامة ، حين يعطى أهل البلاء الثواب ، لو أن جلودهم كانت قرضت بالمقاريض[٢] » .

* * *

ومن الغرائب أن بعض الناس فهم أن الإسلام يمجد الآلام لذاتها ويكرم الأوجاع والأوصاب لأنها أهل التكريم والموادة .

وهذا خطأ بعيد ، فعن أنس بن مالك قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيخاً يهادى بين ابنيه ، فقال : ما بال هذا ؟ قالوا نذر أن يمشى ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغنى » وأمره أن يركب[٣] .

وعن ابن عباس أن أخت عقبة نذرت الحج ماشية وذكر عقبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنها لا تطيق ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لغنىٌّ عن مشى أختك ، فلتركب ولتُهد بدنة[٤] » .

وقال الله عزَّ وجل :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾[٥]

إنما يحمد الإسلام لأهل البلوى وأصحاب المتاعب رباطة جأشهم وحسن يقينهم ، وهو إذ يذكر لهم الأسقام التى يعانونها ، أو الضوائق التى يواجهونها ، لا يعنيه منها إلا ما تنطوى عليه من امتحان يجب اجتيازه بقوة وتسليم ، لا باسترخاء وتسخُّط على القدر :

(١) الترمذى (٢) الترمذى (٣) البخارى (٤) أبو داود (٥) النساء ١٤٧

ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على امرأة مريضة فوجدها تلعن الداء وتسبُّ الحمى ، فكره منها هذا المسلك وقال لها مواسياً : « إنها - أى الحمى - تذهب خطايا بنى آدم كما يذهب الكيرُ خبَثَ الحديد(١) » :

فهل معنى ذلك أن نربى جراثيم المرض ونهديها الى من نحب ؟. كذلك يريد بعض الناس أن يفهم . والجنون فنون ؟.

والإنسان فى إبان المعركة قد يمرّغ فى التراب ، وقد يضطره الحرج إلى اقتحام المذاهب المعنتة ، ولكنه فى تقلبه على الخشن من أحوال الحياة لا يزيد من الله إلا قربا ، مادام وثيق الإيمان ، رفيع الرأس .

ومن الخطل أن يحسب المسلم تلاحق الأذى عليه آية على نسيان الله له ، وإبعاده من رحمته ، لكن هذا الفهم ساد بين المسلمين للأسف فى عصور الانحلال والاضمحلال ، وقد أسلفنا القول أن مصاعب الحياة تتمشى مع همم الرجال علوًا وهبوطًا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسفُ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم »(٢) .

فهو نبى تربى فى حجور أنبياء ، وتحدر من شجرة عريقة ، وهو كريم على الله بالاجتباء والرسالة . فانظر إلى هذا الكريم كيف قضى مراحل حياته الأولى وهو يخرج من ضائقة ليدخل فى أختها . فقد أمه وهو طفل ، ثم تآمر عليه إخوته فاختطفوه من أحضان أبيه ورموا به فى البئر ، ليلقى فى غيابتها مصيره المجهول .

واستنقذه السيارة ليمتلكوه عبدًا ، ثم يبيعوه فى سوق الرقيق بثمن بخس دراهم معدودة .

وابتاعه ملك مصر ، فما إن آواه فى القصر حتى تعرض للدسائس الماكرة ، فاتُّهم وهو العفيف المحصن ، بأنه يبغى السوء . ومع ظهور براءته فقد طرح فى السجن مع الأشقياء لا أياما أو شهورًا ، بل بضع سنين !!

ولو أن شخصًا آخر نظر إلى ماضيه فوجده مثقلا بالآلام على هذا النحو لضاق

---

(١) مسلم . (٢) البخارى .

بالأرض وتنكر للسماء ، بيد أن يوسف الصديق بقى متألق اليقين وراء جدران السجن يذكّر بالله من جهلوه ، ويبصّر بفضله من جحدوه .

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۞ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (١)

وذلك شأن أولى الفضل من الناس ، لا يفقدون صفاء دينهم إن فقدوا صفاء دنياهم ، ولا يهونون أمام أنفسهم لنكبة حلّت بهم .. وإنك لترى شاعرًا من الطامحين إلى أمجاد الدنيا يغالب الحرمان بالمغالاة فى تفخيم نفسه فيقول مفتخرًا بهمومه :

أفاضل الناس أغراضٌ لذا الزمن ... يخلو من الهم أخلاهم من الفِطَن

وما رأيناه فى سير الأنبياء والصدِّيقين والشهداء والصالحين يؤكد أن عظم المنزلة مع ثقل الأحمال ومعاناة الصعاب .

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة فلم يبلغها بعمل ، ابتلاه الله فى جسده أو ماله ، أو فى ولده . ثم صبر على ذلك ، حتى يبلغه الْمنزلة التى سبقت له من الله عز وجل (٢) » .

فكأن تكاثر المصائب إشارة إلى ما يرشَّح له المرء من خير ، وما يراد له من كرامة . وكثيرًا ما تكون الآلام طهورًا يسوقه القدر إلى المؤمنين ليصادر ما يستهوى ألبابهم من متع الدنيا ، فلا تطول خدعتهم بها أو ركونهم إليها . ورب ضارة نافعة ، وكم من محنة فى طيها منح ورحمات !!

* * *

والتريث والمصابرة والانتظار خصال تتسق مع سنن الكون القائمة ونظمه

---

(١) يوسف . ٣٩ : ٤٠ .

(٢) أحمد .

الدائمة ، فالزرع لا ينبت ساعة البذر ، ولا ينضج ساعة النبت ؛ بل لابد من المكث شهورًا حتى يجتنى الحصاد المنشود . والجنين يظل فى بطن الحامل شهورًا حتى يستوى خلقه ، وقد أعلمنا الله عز وجل أنه خلق العالم فى ستة أيام ، وما كان ليعجز أن يقيم دعائمه فى طرفة عين أو أقل . وتراخى الأيام والليالى على الناس هو المدى الذى تقتطع منه أعمارهم ؛ وتستبين فيه أحوالهم ، وتنضح على لهبه الهادىء طباعهم . ثم ينقلبون بعدُ إلى بارئهم .

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ﴾ (١)

فالزمن ملابس لكل حركة وسكون فى الوجود ، فإذا لم نصابره اكتوينا بنار الجزع ، ثم لم نغير شيئاً من طبيعة الأشياء التى تسير حتما على قَدرَ :

* * *

والصبر أنواع : صبر على الطاعة ، وصبر على المعصية ، وصبر على النوازل :

فأما الصبر على الطاعة ، فأساسه أن أركان الإسلام اللازمة تحتاج فى القيام بها والمداومة عليها إلى تحمل ومعاناة .

فالصلاة مثلا فريضة متكررة يقول الله فيها :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ (٢)

ويقول تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴾ (٣)

وعشرة المؤمنين والإبقاء على مودّتهم والإغضاء عن هفواتهم ، خصال تعتمد على الصبر الجميل :

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ (٤)

---

(١) الأعراف ٢٩ ، ٣٠ . (٢) طه : ١٣٢ . (٣) البقرة ٤٥ . (٤) الكهف ٢٨

والتواصى بالصبر قرين التواصى بالحق ، وقد أقسم الله عز وجل على أن فلاح البشر منوط بهما :

﴿ وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ (١)

والصبر عن المعاصى ، هو عنصر المقاومة للمغويات التى بثت فى طريق الناس ، وزينت لهم اقتراف المآثم المحظورة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حُفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار الشهوات(٢) » .

والإقبال على المكاره والإدبار عن الشهوات لا يتأتى إلا لصبور . والصبر هنا أثر اليقين الحاسم والاتجاه الحازم الى ما يرضى الله . . . وهو روح العفاف الذى يحمى المؤمن أوضار الدنايا ، ومكر السيئات .

﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (٣)

وهناك الصبر على ما يصيب المؤمن فى نفسه أو ماله ، أو منزلته ، أو أهله . وتلك كلها أعراض متوقعة ، وهيهات أن تخلو الحياة منها ، وإذا لم يُصب أحد بسيلها الطامِّ ضربه رشاشها المتناثر .

على أن المسلم إذا احتمى بالله ولجأ إليه فلّ حدّ الحوادث ، فضعف حزُّها فى بدنه . وكثيرًا ما يكون اليقين البالغ طاغيًا على الآلام الحادة طغيان « المغيِّب » فى العمليات الجراحية الخطيرة ، ولن تفارق المؤمن رحمة الله ما دام دينه لا يَهى فى الأزمات ، ويقينه لا يزيغ لدى الشدائد .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ *

---

(١) العصر . (٢) مسلم . (٣) الأعراف ١٢٦ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [١]

وعن أم العلاء ـ وهى من المبايعات ـ قالت : دعانى رسول الله ﷺ وأنا مريضة فقال : « يا أم العلاء ، أبشرى فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه كما تذهب النار خبث الحديد والفضة [٢] » .

وفى الحديث : « إن الله لا يرضى لعبده المؤمن ، إذا ذهب بصفيِّه من أهل الأرض فصبر واحتسب بثواب دون الجنة [٣] » .

وينبغى أن لا يعزب [٤] عن البال أن كل شىء نرتبط به ونزعم لأنفسنا حقًا فيه ، فإن رباط الله به أوثق ، وحق الله فيه أسبق . مَنْ أقرب للمرء من ولده ؟ إن ولد الإنسان آثر شىء لديه ، وأحبه إليه . عن طريقه وجد ، وفى حجره عاش ، وإنه ليرى فيه امتداد نفسه ، وقطعة من حسه ، فإذا سطا عليه الموت هتف الأب الثاكل : ولدى .

ولكن صوت الحق قبل هتاف الحزن يجعلنا نقول : إذا كان الأب فقد ولده ، فإن الملك استرد عبده . إن الذى فتح هذه العيون على أنوار الحياة هو الذى أغمضها ، والذى نمّى هذا البدن بضروب النعماء هو الذى يعيده إلى معدنه الأول .. إلى التراب .

إذا قال الوالد : ولدى . قال الموجد : عبدى ، أنا ـ قبل غيرى ـ أولى به وأحق .

عن القاسم بن محمد قال : « هلكت امرأة لى ، فأتانى محمد بن كعب القرظىّ يعزينى بها فقال : إنه كان فى بنى إسرائيل رجل فقيه ، عالم عابد مجتهد ، وكانت له امرأة وكان بها معجبًا فماتت . فوجد عليها وَجْدًا [٥] شديدًا حتى دخل فى بيت وأغلق على نفسه واحتجب ، فلم يكن يدخل عليه أحد . فسمعت به امرأة من بنى إسرائيل فجاءته فقالت : إن لى إليه حاجة أستفتيه فيها ،

---

(١) البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧ . (٢) أبو داود . (٣) النسائى .

(٤) يعزب : يغيب . (٥) وجد : حزن :

ليس يجزينى إلا أن أشافهه بها ولزمت بابه ! فأخبر بها . فأذن لها . فقالت : أستفتيك فى أمر . قال : وما هو ؟ قالت : إنى استعرت من جارة لى حليًّا : فكنت ألبسه زمانًا ، ثم إنها أرسلت تطلبه ، أفأرده إليها ؟ قال : نعم والله !! قالت : إنه قد مكث عندى زمانًا !! فقال : ذاك أحق لردك إياه !!

فقالت له : يرحمك الله ، أفتأسف على ما أعارك الله ثم أخذه منك ، وهو أحق به منك ؟؟ فأبصر ما كان فيه ، ونفعه الله بقولها(١) » .

القصد والعفاف

تضمن الإسلام طائفة من الإرشادات المتصلة بحياة المسلمين الخاصة ، قصد بها إلى تنظيم شئونهم البدنية والنفسية ، ووضعها على أساس كريم . هى آداب تتعلق بمطعم الإنسان وملبسه ومسكنه ، وسائر آماله التى يسعى إليها فى هذه الحياة ، لا يَجْنحُ بها إلى الرهبانية المغرقة ولا إلى المادية الجشعة ، فهى تقوم على التوسط والاعتدال ومن ثم ، فتنفيذها سهل قريب .

إن الإسلام يَقرِن بين مطالب الجسم والنفس فى تعاليمه ، ويكف طغيان أحدهما على الآخر ، ويرى فى تنسيق حاجاتهما عونًا للمرء على أداء رسالته فى هذه الحياة وما بعدها . والفلسفات التى نبتت فى الأرض ، والتى اصطنعها الناس ليَحيَوا فى نطاقها عندما غابت عنهم هدايات السماء ، هذه الفلسفات قلما نجحت فى التوفيق بين ضرورات البدن وأشواق الروح ، وبين كفالة الآخرة التى سنصير إليها ، ورعاية الدنيا التى بدأنا المسير منها !!

إن بعضها يقوم على هدم الجسم زاعمًا أن الروح لا يحلق فى أوْجه إلا إذا أفلت من قيوده ، وبعضها الآخر استهدف الملذات ودار فى حدودها المهينة ساخرًا بما وراء ذلك .

أما الإسلام فلن تجد فيه الرهبانية التى يضيق الناس ذرعا بها ، ويتحرجون من صرامتها . كما أنك لن تجد فيه الحيوانية القائمة على عبث الشهوات ومطاوعة الأهواء

---

(١) مالك .

وينبغى أن نذكر حقيقة حاسمة فى هذا الشأن ، هى أن حياة المؤمن المصدق بالدار الآخرة ليست كحياة الكافر الذى يعتبر عمره فوق ظهر الأرض هو دنياه وآخرته معًا ، هو فرصته الأولى والأخيرة لقضاء لباناته وإدراك غاياته .

وأكثر الذين يفقدون عفتهم ويتبعون نزواتهم ويعيشون للمتع وحدها هم من ذلك الصنف الأخير . أو هم إليه منتهون إن لم يثوبوا إلى رشدهم ، ويرجعوا عن غيهم . وفى هؤلاء يقول الله عز وجل :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (١)

ويقول : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

أما المؤمن فهم يقسم آماله ورغائبه على معاشه ومعاده ، ويطلب الخير لنفسه فى يومه وغده ، وقد علمنا القرآن الكريم أن التطلع إلى النعمة والسعادة فى كلتا الحياتين هو من أكبر الذكر لله !!! قال الله تعالى :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (٣)

وقد جاء فى النصح « لقارون » ما يؤكد العمل للحياتين معًا ، فإن الدنيا وسيلة للآخرة . وصحة الوسيلة ضمان لنجاح المقصد ، كما أن انتظام المقدمات مؤدٍّ إلى تحصيل النتيجة المطلوبة . ومن ثم تضمن إرشاد الله « لقارون » هذه المعانى كلها :

(١) محمد . ١٢ . (٢) الحجر . ٢ : ٣ . (٣) البقرة . ٢٠٠ ـ ٢٠٢

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (١)

* * *

بناء على ما تمهد من هذه القواعد يوصى الإسلام المرء ألا يكون عبد بطنه ، يعيش فى الدنيا ليأكل ، ويغدو ويروح وليس له من هم إلا أن يجمع على مائدته ألوان الطعام ، فإذا حشد فوقها مالذ وطاب سُرَّ واطمأن ، وإلا تغير وتغيظ وحسب أن القدر يكيد له !!

إن الرجال الذين يمعنون فى التشبُّع والامتلاء ويبتكرون فى وسائل الطهى وضروب التلذذ ، لا يصلحون لأعمال جليلة ، ولا ترشحهم هممهم القاعدة لجهاد أو تضحية .

وقد روى عن النبى ﷺ : « أكثر الناس شبعًا فى الدنيا أطولهم جوعًا يوم القيامة (٢) » .

والمعروف أن عددًا كبيرًا من الأمراض الشديدة والعلل المنهكة ينشأ عن اكتظاظ المعدة بما لا تطيق هضمه .. ولذلك جاء فى الحديث : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطن (٣) » .

وتخفُّف الإنسان من مقادير الأطعمة لا يتم بالتزهُّد المجرد ، أو الامتناع لغير معنى مفهوم . بل الطريق الصحيحة أن يربط الإنسان همته بمطمح كبير ثم ينشغل بتحصيله ، فإن هذا يصرفه عن فنون اللهو وأنواع الملذات الرخيصة .

حدث أن أضاف رسول الله ﷺ رجلا كافرًا ، فأمر له بشاة فحلبت ؛ فشرب حلابها ، ثم أخرى ، فشرب حلابها ، حتى شرب حلاب سبع شياه . ثم إنه أصبح فأسلم فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة فشرب حلابها ، ثم أخرى فلم يستتمه !! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن ليشرب فى معى واحد ، والكافر يشرب فى سبعة أمعاء (٤) » .

---

(١) القصص . ٧٧ . (٢) البزار . (٣) الترمذى . (٤) مسلم .

وذلك أن الرجل غلبه التفكير عند ما شعرَ بروعة الانتقال من طور الجاهلية إلى طور النور ، وعندما عرف موقفه الجديد من ربّه وتكاليف دينه وحساب آخرته ، فكان لارتفاع همته إلى تأسيس حياة أرقى مما مضى ، أثر بالغ فى عزوفه عن الاستزادة مما قُدّم له .

والحق أن ملذات الطعام وحطام الدنيا أنزل قدراً من أن يتفانى الناس فيها على النحو الشائن الذى نراه فى عصرنا هذا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مطعم ابن آدم جُعل مثلا للدنيا وإن قَزَّحه(١) وملَّحهُ ، فانظر إلامَ يصير(٢) » ؟؟

وفى رواية : « إن الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا » .

وهذا الكلام قد يخطىء الناظر القاصر فهم دلالته ، وقد يحسبه إبعاداً للمسلم عن الحياة وحثاً له على ترك طيباتها وهجر نعمائها . وشىء من ذلك لا يقصد إليه الإسلام ؛ فان تحريم الحلال ، كتحليل الحرام ، جريمة منكرة وحق الله على المسلم ألا يغلب الحرام صبره ، ولا الحلال شكره .

أما حقه فى الحياة والاستمتاع بخيرها فلا ريب فيه :

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٣)

وقد رأينا كرم أبى الأنبياء إبراهيم مع ضيوفه ، فقد بادر بذبح عجل سمين لهم ، وقدمه على المائدة دون استفسار أو انتظار :

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾(٤)

وكان رسول الله وأصحابه فى حياتهم الخاصة ينزلون عند قوله تعالى :

---

(١) قزحه . وضع عليه التوابل
(٢) إحمد
(٣) المائدة ٩٣
(٤) الذاريات ٢٦ - ٢٧

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (١)

وللبدن مطالب . أجمع العقلاء على أن فى انتقاصها إضراراً به . فكل زهد أو تصوف يغض منها فالإسلام بريء منه . والحملات التى شنها الاسلام على المادية إنما تعنى بطنة المترفين وبَشَم الممعودين الغارقين فى شهواتهم .

* * *

والإسلام يوصى بالاعتدال فى ارتداء الملابس ، ويكره للرجل أن يباهى بها أو يختال فيها ، فهو لا يعتبر حسن البزّة(٢) من عناصر الرجولة ، أو مقومات الخلق العظيم ، فرب امرىء لا تساوى ثيابه درهماً ترجح نفسه بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذى طِمْرين ، لو أقسم على الله لأبَرَّه(٣)» .

وإنه لمن الحماقة أن يجعل الشاب من جسمه معرض أزياء يسير بها بين الناس ، يرتقب نظرات الاعجاب تنهال عليه من هنا ومن هناك . إن هناك فتيانا أغراراً يقضون الساعات الطوال فى البيوت ليس لهم من عمل إلا استكمال وجاهتهم ، والاطمئنان إلى أناقتهم . ولو أنهم كلفوا ببذل هذا الوقت فى التزيُّد من علم ، أو التفقّه فى دين لنفروا ونكصوا . إنهم يحسبون اتّساق الملابس على أجسامهم شارة الكمال وكفى !!

وقد ندَّد الاسلام بهذا الطيش ونفَّر المسلمين منه .. قال رسول الله ﷺ : « من لبس ثوب شهرة فى الدنيا ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة ، وألهب فيه ناراً(٤)» والحق أن المفتونين والمفتونات من الرجال والنساء ، لما قلَّت حظوظهم من آداب النفس ظنوا المغالاة فى اللباس تستر نقصهم ، وهيهات .

عن أبى بريدة قال : « دخلت على عائشة رضى الله عنها ، فأخرجت إلينا

(١) المائدة ٨٧ (٢) البزة : الهيئة (٣) الترمذى (٤) ابن ماجه

كساء ملبدا (١) وإزارا مما يصنع اليمن. وأقسمت بالله لقد قبض رسول الله ﷺ فى هذين الثوبين (٢) » .

وروى عن جابر قال : « حضرنا عُرس علّى وفاطمة ، فما رأينا عرساً كان أحسن منه . حشونا الفراش - يعنى من الليف - وأتينا بتمر وزبيب فأكلنا وكان فراشها ليلة عرسها إهاب كبش (٣) » .

إن الاستغناء عن الفضول ، والاكتفاء بالضرورات من آيات الاكتمال فى الخلق

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته ما قاته وفضول العيش أشغال !!

ولا يستنتج من هذا أن الدين يحب الملابس الزرية ، أو يرحب بالهيئات المستكرهة ، أو يندب إلى لبس المرقعات وارتداء الخرق الباليات ، كما يفعل جهلة العبّاد كلا كلا :

سأل رجل عبدالله بن عمر : ما ألبس من الثياب ؟ قال : ما لا يزدريك فيه السفهاء ، ولا يعيبك به الحكماء ، قال : ما هو - ما ثمنه - قال : ما بين الخمسة دراهم إلى العشرين درهما (٤) . وهذا التثمين يلائم عصر بن عمر ، وربما يزيد عليه عصرنا كثيراً .

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وعليه ثوب دون ، فقال له : « ألك مال ؟ قال : نعم ، قال : من أى المال ؟ قال : من كل المال قد أعطانى الله تعالى .

قال : « فإذا آتاك الله مالاً فَليُرَ أثر نعمة الله عليك وكرامته (٥) » .

وقال رسول الله ﷺ : « ما على أحدكم ، إن وجد سعة ، أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة غير ثوبى مهنته (٦) » .

فالإسلام - كما رأيت - يستحب لأتباعه التجمل وحسن السَّمْت ، والفرق كبير بين إنسان يزخرف ظاهره ويهمل باطنه ، وينفق خير وقته وماله فى رياش يلصقها بجسمه ، وآخر يجعل همه الأكبر فى صيانة حقيقته ، واستكمال

(١) ملبدا ، أى مرقعاً (٢) البخارى (٣) البزار (٤) الطبرانى .
(٥) النسائى (٦) أبو داود

مروءته ، ثم لا ينسى فى زحمة الواجبات ارتداء ما يَجمل به ويلقى الناس فيه . .

إن العالم اليوم يستقبل فى فصول العام المختلفة بدَعا فى دنيا الأزياء ليس لها من حصر ، فثياب الصيف غير ثياب الخريف ، وهذه غير ثياب الشتاء ، وتلك غير ثياب الربيع : بل إن أجزاء اليوم الواحد تتطلب أنواعاً متميزة من الملابس ، فإن ما يليق بالسهرة لا يحسن بالأصيل ! وهذا الشطط السمج يفرضه على المجتمعات فى الشرق والغرب ، النساء وعبيد النساء وأشباه النساء !! وهو هَوس يبرأ الإسلام منه ، وينزه الأتقياء عنه .

قال رسول الله ﷺ : « ويل للنساء من الأحمرين :الذهب والمعصفرة(١) » .

وهذا التهديد لمن يولعْنَ بالحلى ، وينشغلن عن الحقوق الجليلة بفنون الألبسة والألوان !

والثابت من تعاليم الإسلام أن الذهب والحرير محرمان على الرجال ، ففى الأنسجة الأخرى متسع لهم ، وليس من شأن الذكور التحلى والتطرية ، أما النساء فإنه ، وإن حل لهن الحرير والذهب ، فليس يسوغ لهن أن يجعلن التزيُّن والإغراء شغلهن الشاغل الذى يستغرق الأوقات ، ويستهلك الثروات .

* * *

والإسلام لا يأبى أن تقام الحصون بروجاً مشيدة ، وأن تبنى المدارس والجامعات ، والملاجىء والمحاضن والمستشفيات ، فتنفق فى بنائها الألوف المؤلفة ، وترفع شرفاتها حتى تناطح السحاب ، ذلك أن المصالح العامة للأمم باقية على مر الأجيال ، ومن الحق ربطها بهذه الساحات الرحبة والجدر الشَّامخة ، لكن ما معنى أن يشيد رجل فذ لنفسه أو لمتعه قصراً يرسو على الثرى ويذهب فى الفضاء ؟

إن الاسلام يستحب البساطة المطلقة فى تأسيس البيوت وتأثيثها .

ويوصى بنبذ التكلف والمبالغة فى هذه النفقات .

(١) ابن حبان .

روى قيس بن حازم قال : أتينا خباب بن الأرت نعوده وقد اكتوى سبع كيات فى بطنه ، فقال إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا ، وإنا أصبنا ما لا نجد له موضعاً إلا التراب !! ولولا أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به !! ثم أتيناه مرة أخرى ، وهو يبنى حائطاً له ، فقال : إن المسلم يؤجر فى كل شيء ينفقه ، إلا فى شيء يجعله فى هذا التراب[١] .

فهذا الصاحب الجليل كان يبنى فعلا ، ولكنه لحساسيته الشديدة بوجوب الانفاق فى سبيل الله حسب أن ما يتكلفه فى البناء من نفقة لا أجر له فيه ، وهو لا أجر له فيه بتة إن كان يبنى مفاخرة ومكاثرة ، وذهولا عن الآخرة ، وتعشقاً للدنيا ، أما إن كان يبنى ما يقيه ويكفله فإن أجر ما فيه مدخر ، والبناء هنا عبادة[٢] .

وأما الأثاث ، فحكم الاسلام فيه حاسم ، فقد قطع دابر الترف داخل حجرات البيت ، وكره انتشار الطنافس والزخارف فى نواحيه :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن : « إياك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين[٣] » .

ومن ثم حرم الاسلام أوانى الذهب والفضة ومفارش الحرير والديباج .

وبحسب الناس أن تكون أوانيهم من المواد المعهودة ، وأن تكون مفارشهم كذلك :

عن حذيفة قال : نهى رسول الله أن نشرب فى آنية الذهب والفضة ، وأن نأكل فيها ، وعن لبس الحرير والديباج ، وأن نجلس عليه[٤] .

* * *

قد يفهم من ذلك أن الخشونة سمة الحياة الاسلامية ، ولو صح هذا الفهم فأى عيب فيه ؟

---

(١) البخارى (٢) يراجع مبحث إخلاص (٣) أحمد (٤) البخارى

على أنه من المستغرب أن تُقرن ليونة العيش باستعمال الحرير والذهب !! إن جماهير البشر يمكنهم أن يحيوا سعداء وادعين ، دون أن يتحلوا بذهب أو يرتدوا الحرير .

لكن الاسلام يريد أن يجتث جذور الترف من معيشة الفرد ومعيشة الجماعة حتى يسلم للأمم كيانها ويبقى تماسكها وجدير بالأمة المسلمة أن تجعل حياتها جندية لله ، وتاريخها جهاداً موصولا لإعلاء الحق وحماية دعوته ، وظاهر أمرها وباطنه ترفعاً عن نتن الدنيا وملاهيها الصغيرة .

أما التهالك على الشهوات والتهاوى فى المحرمات فهو فرار من التكاليف ونكوص عن الجد ، وتضييع لمعالم الشرف ، وتلك خلال إن تسربت إلى أمة وأدتها :

روى عن رسول الله ﷺ : « سيكون رجال من أمتى يأكلون ألوان الطعام ، ويشربون ألوان الشراب ، ويلبسون ألوان الثياب ، ويتشدقون فى الكلام ، أولئك شرار أُمتى (١) » .

وإنك لترى مصداق هذا الحديث فى أقوام ورثوا الدين كلاماً ، واتخذوه لهواً ولعبا ، فضاعوا فى الدنيا ، وضاعت بينهم حقائق الدين .

* * *

إن الله نعى على قوم ولَعَهم باللذائذ وافتتانهم بالمرح واللهو ، وانحصارهم فى مطالب الجسد ودنيا الغرائز السفلى ، فقال :

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ (٢)

وعندما يلقون عقوبتهم يذكَرون بأن ذلك لفقدانهم العفاف والقصد ، وانطلاقهم مع الغواية والمجون .

---

(١) الطبرانى (٢) الاحقاف : ٢٠

﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ (١)

والحق أن كفلا ضخماً من تصدع الدولة الإسلامية يرجع إلى ضياع العفة وشيوع الملذات ، وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته من هذا الانحلال النفسيّ .

فعن أبى بَرْزَة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما أخشى عليكم شهوات الغيِّ فى بطونكم وفروجكم ، ومضلات الهوى (٢) » .

إنّ الإسلام بدأ بين قوم فقراء ، يحجزهم الاقلال عن إدراك المباحات ، فضلا عن التشبع من الطيبات وكانت حالة الشظف التى يعانونها مثار شكواهم .

عن أبى هريرة : « رأيت سبعين من أهل الصّفة ، ما منهم رجل عليه رداء (٣) ، إما إزار وإما كساء ، قد ربطوها فى أعناقهم . فمنها ما يبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين ، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته(٤)» .

والفقر نكبة موجِعة ؛ ومن حق الناس أن يتخلصوا من هذا البلاء ، والاسلام نفسه يجعل مباهج الدنيا من حق الذين آمنوا . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخشى أن يكون هناك رد فعل لهذا الحرمان الشديد عندما يسود الاسلام وتنتشر مبادئه ، فحذر من الحال الأخرى التى ستحدث بعد وفاته ، فبين أنه إن كان فقد الدنيا شراً ، فالافتتان بها والتطاحن عليها شرٌّ أشد .

إن التوسط لب الفضيلة والتوسط هنا أن تملك الحياة لتسخرها فى بلوغ المثل العليا ، لا أن تملكك الحياة فتسخرك لدناياها ، ولا أن تحرم من الحياة أصلا فتقعد ملوماً محسوراً .

وهذا ما عناه النبى ﷺ عندما قال : « والله ما الفقرَ أخشى عليكم . ولكن أخشى أن تُبسط الدنيا عليكم ، كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم (٥) » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « السَّمْت الحسن والتُّؤدَة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة (٦) » .

(١) غافرة : ٧٥ (٢) أحمد (٣) أى ثوب كامل (٤ ، ٥) البخارى (٦) الترمذى

النظافـــة والتجمـــل والصحـــة

على المسلم فى كل ساعة من عمره أن يسعى نحـو الـكمال ، وأن يُحـث إلى الارتقاء المادى والنفسى ، فإن مستقبله عند الله مـرتبط بـالمرحلة التـى يبلغهـا فى تقدمه ؛ إن أدركه الموت وهو فى القمة كان من أصحاب الفـردوس الأعلى ، وإن أدركه وهو مقتصد ينقل خطاه فى السفوح القريبة كان بحسبه أن ينجـو . وإن أدركه وقد رجع القهقرى وضل الغاية تخطفته زبانية العذاب الأليـم ، ومـن كان فى هـذه أعمى حشر يوم العرض أعمى ، ومن كان قذراً بعث كذلك .

وقد بين رسول الله ﷺ أن الرجل الحريص على نقـاوة بـدنه ووضـــاءة وجهـــه ونظافة أعضائه يبعث على حاله تلك ، وضيء الوجه ، أغر الجبين ، نقـىَّ البـدن والأعضاء !!

عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم زار المقابر ، فقال : « السـلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم عن قريب لاحقون . وددت أنا قـد رأينا إخواننا ، قالوا : أو لسنا إخوانك يا رسول الله ؟ قال : أَنتـم أصـحابى ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد ، قالوا كيف تعرف من لم يـأت بعـــد مـــن أمتـــك يا رسول الله ؟ قال : أرأيت لو أن رجلا له خيلٌ غُرٌّ محجلـة بيـن ظهـرى خيـل دُهْم بُهم ، ألا يعرف خيله ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قـال : فـإنهم يـأتون غُراً محجلين من الوضوء(١) » .

إن صحة الأجسام وجمالها ونَضْرتها من الأمور التى وجه الإسـلام إليهـا عنـاية فائقة ، واعتبرها من صميم رسالته ، ولن يـكون الشـــخص راجحـــاً فى ميـــزان الإسلام ، محترم الجانب إلا إذا تعهـد جسـمه بـالتنظيف والتهـذيب ، وكان فى مطعمه ومشربه وهيئته الخاصة ، بعيداً عن الأدران المـكدرة والأحـوال المنفـرة ، وليست صحة الجسد وطهارته صلاحاً مادياً فقط ، بـل إن أثـرها عميـق فى تـزكية النفس ، وتمكين الإنسان من النهوض بأعباء الحياة . وما أحوج أعباء الحيـاة إلى الجسم الجلد والبدن القوى الصبور .

---

(١) مسلم

كرَّم الإسلام البدن ، فجعل طهارته التامة أساسًا لابد منه لكل صلاة وجعل الصلاة واجبة خمس مرات فى اليوم ، وكلف المسلم أن يغسل جسمه كله غسلا جيدًا فى أحيان كثيرة تلابسه غالبًا ، وتلك هى الطهارة الكاملة ، وفى الأحوال المعتادة اكتفى بغسل الأعضاء والأطراف التى تتعرض لغبار الجو ، ومعالجة شتى الأشغال ، أو التى يُكثر الجسم إفرازاته منها :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ﴾ (١)

والطريقة التى شرعها الإسلام لإبقاء الجسم نظيفًا فى كل وقت تقوم على ربط الغسل الواجب بأحوال الطبيعة المادية فى الإنسان ، فلو كان الإنسان روحًا فقط ما احتاج إلى متابعةِ الغسل والتنقية والتطهير . أما وهو مستقر فى هذا الغلاف المادى المتكون من تربة الأرض ، تلك الأرض التى يحيا فوقها ، ويتغذى من نباتها وحيوانها ، ويترك فضلات معدته فيها ، ويثوى آخر الأمر فى ثراها ـ أما وهو كذلك ، فقد ناط الإسلام الوضوء المفروض بأعراض هذه الطبيعة المادية ، وبكل ما ينشأ عن دورة الطعام فى الجسم من نُفايات وغازات .

ولن يَتخذ الالزام بالتطهر طريقة ألصقَ وأقوم من هذه التى شرع الإسلام ، لأنها تجعل المرء يعاود الغسل والوضوء ولو كان نظيفًا ، وهى من قبل تنفى عن الأمة المسلمة أى أثر من آثار القذارة والاتساخ .

على أن الإسلام لم يدع أمر الغسل الكاملِ للظروف التى تفرضه فرضًا ، فقد يتكاسل بعض الناس عن الاغتسال مادامت دواعى فرضه لم تقم ، لذلك وقَّت للغسل يومًا فى كل أسبوع .

---

(١) المائدة . ٦ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم ، وسواكٌ ويَمسّ من الطيب (١) » .

وفى الحديث : « إن هذا يوم عيد جعله الله للمسلمين ، فمن جاء الجمعة فليغتسل (٢) » .

* * *

وقد أوجب الإسلام النظافة من الطعام ، فبعد أن ندب إلى الوضوء له - ويكفى فيه غسل الأيدى - أمر بأن يتخلص الإنسان من فضلاته وروائحه وآثاره ، وهذا أنقى للمرء وأطيب .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده (٣) » .

وهذه النظافة المطلوبة يتفاوت الحث عليها باختلاف بقايا الطعام المتخلفة على البدن . فإذا تسربت هذه البقايا فى الأماكن المتوارية كان حقًا على المسلم أن يتطهر منها .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تخللوا ، فإنه نظافة ! والنظافة تدعو إلى الإيمان ، والأيمان مع صاحبه فى الجنة (٤) » .

وقد اقترنت نظافة الوضوء ونظافة الطعام فى هدْى النبى صلى الله عليه وسلم .

فعن أبى أيوب قال : خرج علينا رسول الله فقال : « حبذا المتخللون من أمتى . قال وما المتخللون يا رسول الله ؟ قال : المتخللون فى الوضوء ، والمتخللون من الطعام . أما تخليل الوضوء فالمضمضة والاستنشاق وبين الأصابع .

وأما تخليل الأسنان فمن الطعام « إنه ليس شىء أشد على الملكين من أن يريا بين أسنان صاحبهما طعامًا وهو قائم يصلى (٥) » .

وعناية الدين بتطهير الفم ، وتجلية الأسنان ، وتنقية ما بينها لا نظير لها فى وصايا الصحة القديمة ، والحديثة :

---

(١) مسلم . (٢) ابن ماجه . (٣) أبو داود . (٤) الطبرانى . (٥) أحمد .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تسوّكوا ؛ فإن السواك مطهرة للفم مرضاة للرب . ما جاءنى جبريل إلا أوصانى بالسواك ، حتى لقد خشيت أن يفرض على وعلى أمتى (١) » .

وفى رواية : « لقد أمِرْت بالسواك حتى ظننت أنه ينزل علىَّ فيه قرآن أو وحى » .

والذى يلحظ أمراض الفم واللثة من إهمال تطهيرهما يدرك سر مبالغة الإسلام فى ذلك الأسنان بالمواد الحافظة لرونقها وسلامتها ، دلكا يزيل ما يعلوها وما يختفى حولها .

قال رسول الله ﷺ : « لقد أمرت بالسواك حتى خشيت أن أدْرَدْ (٢) » . أى تسقط أسنانى من شده الدلك .

والأطعمة ذات الروائح النفاذة والآثار الغليظة كاللحم والسمك وغيرها يجب أن يشتد حذر الإنسان من إهمالها ؛ فإن التنظف منها ضرورة لحفظ الصحة ، وضرورة لحفظ الكرامة الخاصة ، والآداب العامة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من بات وفى يده ريح غمرٍ فأصابه شيء فلا يلومنَّ إلا نفسه (٣) » والغمر زهومة اللحم .

وقد وردت آثار تفيد ان الجراثيم إنما تجد مرتعها الخصب فى الأيدى والأفواه القذرة ، وأوصت بالتحرز من غوائلها .

ومن احترام الإسلام للفرد والمجتمع تحريمه على من أكل ثومًا أو بصلا أو فجلا ان يحضر المجتمعات ؛ ذاك أن نتن الأفواه من هذه الأطعمة يؤذى المخاطبين وينفر من آكلها .

وقد أسقط الإسلام سنة الجماعة فى المسجد عمن تناول هذه المواد ، كما أسقط سنة الجماعة عن الذين أصيبوا بعلل تجعل روائح فمهم أو جسمهم كريهة ، وهذا الأدب الكريم صيانة محمودة للمرضى والأصحاء .

* * *

---

(١) ابن ماجه . (٢) البزار . (٣) البزار .

ويوصى الاسلام بأن يكون المرء حسن المنظر كريم الهيئة ، وقد ألحق هذا الخلق بآداب الصلاة .

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ (١)

وكان رسول الله يعلم المسلمين أن يعنوا بهذه الأمور ، وأن يلتزموها فى شئونهم الخاصة حتى يبدو المسلم فى سمنه وملبسه وهيئته جميلا مقبولا :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان له شعرٌ فليكرمه »(٢) .

وعن أبى قتادة قلت : يا رسول الله إن لى جمة أفأرجِّلها ؟ قال : « نعم وأكرمها !! » فكان أبو قتادة ربما دهنها فى اليوم مرتين ، من أجل قول رسول الله(٣) . فتسريح الرأس سنة حسنة وتعطيره كذلك .

وعن عطاء بن يسار قال : أتى رجل للنبى صلى الله عليه وسلم ثائر الرأس واللحية : فأشار إليه الرسول ، كأنه يأمره بإصلاح شعره ، ففعل ثم رجع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أليس هذا خيرًا من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان (٤) » .

وعن جابر بن عبدالله : « رأى النبى صلى الله عليه وسلم رجلا رأسه شَعِثٌ : فقال :« أما وجد هذا ما يسكن به شعره(٥) » ورأى آخر عليه ثياب وسخة فقال . أما يجد هذا ما يغسل به ثوبه ؟! .

إن الأناقة فى غير سرف ، والتجمل فى غير صناعة وتزويق ، وإحسان « الشكل » بعد إحسان « الموضوع » من تعاليم الاسلام ، الذى ينشد لبنيه علو المنزلة وجمال الهيئة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كِبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة ، فقال : إن الله تعالى جميل يحب الجمال(٦) » .

---

(١) الأعراف . ٣١ . (٢) أبو داود . (٣) النسائى . (٤) مالك .
(٥) ابو داود . (٦) مسلم .

وفى رواية أن رجلا جميلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إنى أحب الجمال ، وقد أعطيت منه ما ترى . حتى ما أحبُّ أن يفوقنى أحد بشراك نعل ! أفمن الكبر ذلك يا رسول الله ؟ قال : « لا . ولكن الكبر بطر الحق وغمْضُ الناس » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دقيق الملاحظة فى هذه الناحية . فإذا رأى مسلمًا يهمل تجميل نفسه وتنسيق هيئته نهاه عن الاسترسال فى هذا التبذل ، وأمره أن يرتدى ألبسة أفضل .

عن جابر بن عبدالله : « نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صاحب لنا يرعى ظهرًا لنا ! وعليه بُرْدان قد أخلقا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما له غير هذين ؟ فقلت : بلى ، له ثوبان فى العَيْبة كسوته إياهما : فقال : ادْعُه فليلبسهما ، فلبسهما ، فلما ولّى قال رسول الله : ماله ؟ - ضرب الله عنقه - أليس هذا خيرًا ؟ فسمعه الرجل ، فقال : فى سبيل الله يا رسول الله !! فقال : فى سبيل الله !.. فقتل الرجل فى سبيل الله(١) » .

إن هذا الرجل أدرك حقيقة المداعبة الناصحة التى ساقها النبى صلى الله عليه وسلم إليه ، فاستفاد منها ، ويبدو أنه كان ممن تذهلهم المعايش عن العناية بشئونهم الخاصة ولكن مهما تكاثرت الأشغال والمتاعب على الانسان ، فلا ينبغى أن ينسى واجب الالتفات إلى زيِّه ونظافته واكتماله .

وبعض محترفى التدين يحسبون فوضى الملبس واتساخه ضربًا من العبادة ، وربما تعمدوا ارتداء المرقعات والتزيى بالثياب المهملة ليظهروا زهدهم فى الدنيا وحبهم للأخرى . وهذا من الجهل الفاضح بالدين ، والافتراء على تعاليمه .

حدثنا ابن عباس قال : لما خرجت الحرورية أتيت عليًّا رضى الله عنه فقال : إئت هؤلاء القوم : فلبست أحسن ما يكون من حلل اليمن ، فلقيتهم فقالوا : مرحبًا بك يا ابن عباس ،ما هذه الحلة ؟ قلت : ما تعيبون علّى !

(١) مالك .

لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل(١) »

وعن البراء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مربوعًا : وقد رأيته فى حلة حمراء ما رأيت شيئًا أحسن منه قط(٢).

وقد امتدَّ هذا التطهير والتجميل من أشخاص المسلمين إلى بيوتهم وطرقهم فإن الإسلام نبه إلى تخلية البيوت من الفضلات والقمامات ، حتى لا تكون مباءة للحشرات ، ومصدرًا للعلل : وكان اليهود يفرطون فى هذا الواجب فحُذِّر المسلمون من التشبه بهم .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تعالى طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود(٣) » .

وإماطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان : وقد اعتبر هذا العمل الخفيف الجليل صلاة مرة ، وصدقة مرة أخرى .

ففى الحديث : « حملك عن الضعيف صلاة ، وإنحاؤك الأذى عن الطريق صلاة (٤) » .

وفى حديث آخر : « . . . بكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة ، ويميط الأذى عن الطريق صدقة »(٥) .

أى إزالة الأذى من حجر أو شوك أو نجاسة أو ما شابه ذلك .

* * *

إن عناية الإسلام بالنظافة والصحة جزء من عنايته بقوة المسلمين المادية والأدبية ، فهو يتطلب أجسامًا تجرى فى عروقها دماء العافية ، ويمتلىء أصحابها فتوة ونشاطًا ، فإن الأجسام المهزولة لا تطيق عبئاً ، والأيدى المرتعشة لا تقدم خيرًا .

وللجسم الصحيح أثر ، لا فى سلامة التفكير فحسب ، بل فى تفاؤل الآنسان مع الحياة والناس . . ورسالة الإسلام أوسع فى أهدافها وأصلب فى كيانها من أن

---

(١) أبو داود . (٢) مسلم . (٣) الترمذى . (٤) ابن خزيمة . (٥) البخارى .

تحيا فى أمة مرهقة ، موبوءة عاجزة .

ومن أجل ذلك حارب الاسلام المرض ، ووضع العوائق أمام جراثيمه حتى لا تنتشر ، فينتشر معها الضعف والتراخى والتشاؤم وتستنزف فيها قوى البلاد والشعوب .

وقد وفر الإسلام أسباب الوقاية بما شرع من قواعد النظافة الدائمة - على ما رأيت - ثم بما رسم من حياة رتيبة يلتزم المسلم السير عليها ؛ فهو يستيقظ مع الفجر ، ويبتعد عن السهر ، ويتحامى مزالق الشهودة ، ويقتصد فى أطعمته ، ويستعف فى معيشته وسيرته ، ويجدد نشاطه بالصلوات فى اليوم : والصيام فى كل عام .

ولا تنس أن البعد عن المعاصى حصانة كبرى من الأمراض الخبيثة ، وإذا وقع أمرؤ فى براثن المرض وجب عليه أن يعالجه حتى ينجو منه . والاسلام يرشد الناس إلى التماس الأدوية الناجعة لما يحيق بهم من آلام :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء [١] » .

وقال : « إن الله أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء ، فَتَدَاوَوْا ، ولا تداووا بحرام [٢] » .

وقال : « إن لكل داء دواء ، فإذا أصيب [٣] دواء الداء برأ بإذن الله [٤] » .

وحرَّم الاسلام الالتجاء إلى الخرافات فى طلب الشفاء ؛ فإن لكل علم أهلا يحسنونه ، ويجب الاستماع إليهم . أما الدجالون الذين يقحمون أنفسهم فيما لا ينبغى لهم فلا يسوغ لمسلم أن يقصدهم أو يصدق مزاعمهم .

عن عقبة بن عامر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من علق تميمة فلا أتم الله له ، ومن علق ودعة فلا أودع الله له [٥] » .

---

(١) البخارى . (٢) أبو داود . (٣) أصيب : وجد . واستعمله المريض .
(٤) مسلم . (٥) الحاكم .

ومع ذلك فإن طب التمائم والودع ، والحجب المكتوبة ، والتعاويذ المسحورة تلقى بين العامة رواجًا ! وقد عدَّها الاسلام ضربًا من الشرك بالله ، لأنها بقية من الجاهلية التى كانت تنسب إلى الأوهام ما لا يُعقل .

روى عقبة أيضًا : أن ركبًا من عشرة وفدَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعه ، فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة وأمسك عن رجل منهم ! فقالوا : ما شأنه ؟ فقال : إن فى عضده تميمة ، فقطع الرجل التميمة ، فبايعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « من علق فقد أشرك[١] » !! .

ومن وسائل الوقاية المحكمة التى شرعها الاسلام إيجابه قضاء الحاجة فى أماكن معزولة حتى تذهب الفضلات الحيوانية فى مستقر سحيق ، فلا يتلوث بها ماء ، ولا يتنجس طريق ولا مجلس !

ولو أن المسلمين أخذوا أنفسهم بهذا الأدب الجليل لنجوا من غوائل الأدواء التى هدَّت قواهم ، وأنهكت قراهم ، وجشمتهم العنت الكبير .

فعن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يبال فى الماء الراكد[٢] .

وعنه أيضا : نهى أن يبال فى الماء الجارى[٣] .

وعن معاذ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الملاعن الثلاث : البراز فى الموارد ، وقارعة الطريق ، والظل[٤] » .

أى أن هذه الأمور تجلب على فاعلها اللعنة ، والشخص الذى يتخلى فى الطريق العامة ساقط المروءة ، فهو يأتى فعلا يثير الاشمئزاز ، ويستوجب السخط .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من آذى المسلمين فى طرقهم وجبت عليه لعنتهم[٥] » .

---

(١) أحمد . (٢) مسلم . (٣) الطبرانى . (٤) أبوداود . (٥) الطبرانى .

وفى رواية : « من غسل سخيمته على طريق من طرق المسلمين فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين [١] » .

وهذه المنهيات كلها أساس انتشار الأمراض المتوطنة لدينا نحن المسلمين ، إذ أن العوام استهانوا بها فجرت عليهم الوبال .

وقد وضع الإسلام قواعد الحجر الصحى ، فإذا ظهر مرض مُعِد فى بلد مَّا ، ضرب حوله حصاراً شديداً ، فمنع الدخول فيه والخروج منه ، وذلك حتى تنكمش رقعة الداء فى أضيق نطاق .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا سمعتم بالطاعون ظهر بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها [٢] » .

وقد واسى الإسلام سكان البلد الموبوء ، وحبب إليهم المكث فيه فإن الرغبة فى النجاة تزين للكثير أن يفر منه خلسة ، وتلك الرغبة فى إحراز السلامة الشخصية تعرض البلاد جملة لخطر جارف .

ولهذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « .. ما من عبد يكون فى بلد فيه الطاعون ، فيمكث فيه لا يخرج - صابراً محتسباً - يعلم أنه لا يصيبه إلا ماكتب الله له ، إلا كان له مثل أجر شهيد [٣] » .

وربما حاول بعض المغامرين أن يسافر إلى البلد الموبوء ، وقد يحتج بأن الخوف من العدوى ضعف فى اليقين ، أو هروب من القضاء المحتوم . وهذا خطأ ، فإن عمر بن الخطاب رفض السفر إلى الشام لما ظهر فيها من الطاعون فقيل له : تفر من قدر الله ؟ قال نفر من قدر الله إلى قدر الله .

إن الأخذ بالأسباب حق ، وهو من القدر كما يقول عمر ، وقد شرع الإسلام التحرز من العدوى .

---

(١) البيهقى (٢ ، ٣) البخارى

فقال رسول الله ﷺ : « لايُورِدَنَّ مُمْرِض عَلى مُصحّ (١) » .

وقال : « فِرَّ من المجذوم فِرَارك من الأسد (٢) » .

وإنه ، وإن كانت العدوى حقاً ، إلا أننا يجب أن نعرف أنه ليست كل عدوى تصيب ، فقد يحمل الشخص جرثومة المرض ولا يصاب به ، لأن فيه مناعة خاصة ، بل قد ينجو منه وينقله إلى غيره !!

ولو أن كل عدوى تصيب لهلك أهل الأرض فى يوم واحد ، فهناك ـ كما يقول الأطباء ـ ظروف معقدة للاصابة عن طريق العدوى . وهذا معنى الحديث : « لا عدوى . . » . وليس النفى منصباً على إنكار حقيقة العدوى ، لأن آخر الحديث يمنع ذلك ، وهو قول الرسول ﷺ بعد ذلك مباشرة : « . . وفرَّ من المجزوم فرارك من الأسد » .

الحيـــاء

الحياء أمارة صادقة على طبيعة الإنسان ! فهو يكشف عن قيمة إيمانه ومقدار أدبه . وعندما ترى الرجل يتحرج من فعل ما لا ينبغى ، أو ترى حمرة الخجل تصبغ وجهه إذا بدر منه ما لا يليق ، فأعلم أنه حىّ الضمير ، نقىّ المعدن ، زكى العنصر . وإذا رأيت الشخص صفيقاً بليد الشعور ، لا يبالى ما يأخذ أو يترك ، فهو امرؤ لا خير فيه ، وليس له من الحياء وازع يعصمه عن اقتراف الآثام وارتكاب الدنايا . .

وقد وَصَّى الإسلام أبناءه بالحياء ، وجعل هذا الخلق السامى أبرز ما يتميز به الإسلام من فضائل .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل دين خُلقاً ، وخلق الإسلام الحياء (٣) » .

(١ ، ٢) البخارى (٣) مالك .

كانت الصرامة ملحوظة فى تعاليم اليهودية على عهد موسى عليه السلام ، وكانت السماحة ملحوظة فى تعاليم المسيحية على عهد عيسى عليه السلام .. وقد تميز الاسلام بالحياء ، والأديان كلها تأمر بالفضائل جملة ، وتحاسب عليها جملة .

وقد أراد النبىُّ الكريم أن يجعل من حساسية المسلم بما فى الفضيلة من خير ، وبما فى الرذيلة من شر أساساً يدفعه إلى الاستمساك بالأولى ، والاشمئزاز من الأخرى . حياء من ترك الخير ومن فعل الشر ، بغض النظر عن الثواب والعقاب ، كما قال ابن القيم :

هب البعثَ لم تأتنا رسْلهُ وجاحمةَ النار لم تضرم (١)
أليس من الواجب المستحقّ حياء العباد من المنعم ؟؟

وكان النبى صلى الله عليه وسلم أرق الناس طبعاً ، وأنبلهم سيرة ، وأعمقهم شعور بالواجب ، ونفوراً من الحرام .

عن أبى سعيد الخدرى : « كان رسول الله أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وكان إذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه فى وجهه (٢) » .

* * *

إن الإيمان صلة كريمة بين العباد وربهم ، ومن حق هذه الصلة ، بل أثرها الأول تزكية النفوس ، وتقويم الأخلاق ، وتهذيب الأعمال . ولن يتم ذلك إلا إذا تأسست فى النفس عاطفة حيّة ، تترفع بها أبداً عن الخطايا ، وتستشعر الغضاضة من سفساف الأمور . أما الألمام بالمحاقر (٣) دون تورع ، والوقوع فى الصغائر دون اكتراث ، فذلك دلالة فقدان النفس لحيائها ، ثم فقدانها لايمانها :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحياء والإيمان قرناء جميعاً ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر (٤) » !!

(١) جاحمة النار : أى جهنم . وتضرم : توقد (٢) مسلم
(٣) المحاقر : الأمور الحقيرة (٤) الحاكم .

وعلة ذلك أن المرء حينما يفقد حياءه يتدرج من سيىء إلى أسوأ ، ويهبط من رذيلة إلى أرذل ، ولا يزال يهوى حتى ينحدر إلى الدرك الأسفل . وقد روى عن رسول الله حديث يكشف عن مراحل هذا السقوط ، الذى يبتدىء بضياع الحياء وينتهى بشر العواقب :

« إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبداً نزع منه الحياء ، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً (١) ، فإذا لم تلقه إلا مقيتاً ممقتا نزعت منه الأمانة ، فإذا نزعت منه الأمانة لم تلقه إلا خائناً مخوَّناً ، فإذا لم تلقه إلا خائناً مخوناً ، نزعت منه الرحمة ، فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجيما مُلعَّناً ، فإذا لم تلقه إلا رجيما ملعنا نزعت منه ربقة الإسلام (٢) » .

وهذا ترتيب دقيق فى وصفه لأمراض النفوس وتتبُّعه لأطوارها ، وكيف تُسلم كل مرحلة خبيثة إلى أخرى أشد نكراً ، فإن الرجل إذا مزق الحجاب عن وجهه ، ولم يتهيب على عمله حساباً ، ولم يخش فى سلوكه لومة لائم ، مدّ يد الأذى للناس ، وطغى على كل من يقع فى سلطانه ، ومثل هذا الشخص الشرس لن يجد قلباً يعطف عليه ، بل إنه يغرس الضغائن فى القلوب وينميها .

وأى حب لامرىء جرىء على الله وعلى الناس ، لا يرده عن الآثام حياء ؟ فإذا صار الشخص بهذه المثابة لم يؤتمن على شيء قط ، إذ كيف يؤتمن على أموال لا يخجل من أكلها أو على أعراض لا يستحى من فضحها ، أو على موعد لا يهمه أن يخلفه ، أو على واجب لا يبالى أن يفرط فيه ، أو على بضاعة لا يتنزه عن الغش فيها ؟ .

فإذا فقد الشخص حياءه وفقد أمانته أصبح وحشاً كاسراً ينطلق معربداً وراء شهواته ويدوس فى سبيلها أزكى العواطف ، فهو يغتال أموال الفقراء غير شاعر نحوهم برقة ، وينظر إلى آلام المنكوبين والمستضعفين فلا يهتز فؤاده بشفقة . إن أثرته الجامحة وضعت على عينيه غشاوة مظلمة ، فهو لا يعرف إلا ما يغويه

---

(١) أى مبغضاً   (٢) ابن ماجه .

ويغريه بالمزيد . . ويوم يبلغ امرؤ هذا الحضيض فقد أفلت من قيود الدين وانخلع من ربقة الإسلام .

وللحياء مواضع يستحب فيها ، فالحياء فى الكلام يتطلب من المسلم أن يطهر فمه من الفحش ، وأن ينزه لسانه عن العيب ، وأن يخجل من ذكر العورات ، فإن من سوء الأدب أن تفلت الألفاظ البذيئة من المرء غير عابىء بمواقعها وآثارها .

قال رسول الله ﷺ : « الحياء من الإيمان والإيمان من الجنة . والبذاء من الجفاء والجفاء فى النار (١) » .

ومن الحياء فى الكلام أن يقتصد المسلم فى تحدثه بالمجالس ، فإن بعض الناس لا يستحيون من امتلاك ناصية الحديث فى المحافل الجامعة ، فيملأون الأفئدة بالضجر من طول ما يتحدثون ، وقد كره الإسلام هذا الصنف .

قال رسول الله : « من تعلم صرف الكلام (٢) ليستبى به قلوب الرجال لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلا (٣) » .

وقال : « إن الله يبغض البليغ من الرجال ، الذى يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة (٤) » .

وسر هذا البغض أن أخبار هؤلاء لا تخلو من التزيد ، وأحوالهم لا تخلص من الرياء ، واستئثارهم بالمجالس متنفس لعلل خلقية كان الحياء علاجها الشافى لو أنهم استمسكوا به ولذلك جاء فى بعض الآثار أن العىَّ أفضل من هذا الإفصاح ، وهو عى اللسان لا عى القلب .

ومن الحياء أن يخجل الإنسان من أن يُؤثر عنه سوء ، وأن يحرص على بقاء سمعته نقية من الشوائب ، بعيدة عن الإشاعات السيئة . .

فإن الغيبة إنما تحرم فيمن سترت حاله ، أما من كشف صفحته وأظهر سوءته

(١) أحمد (٢) صرف الكلام : بلاغته (٣) أبو داود (٤) الترمذى

فإن الناس لن يبلغوا منه ما يبلغ من نفسه ، ولذلك أمر رسول الله من لوثته قاذورات المعاصى أن يتوارى عن الأعين .

وعندما رآه بعض أصحابه مع زوجته فى ناحية من المسجد استوقفهم لينبئهم بأنه ليس مع امرأة غريبة عنه .

والفارق واضح بين من يطلب بعمله السمعة ، ومن يذود عن سمعته ظنون العباد . واتقاء المسلم للناس لا يعنى النفاق بإبطان القبيح وإظهار الحسن . كلا ، بل المراد عدم الجهر بالقبائح والاستحياء من مقارفتها علانية .

فإن الرجل الذى يخجل من الظهور برذيلة لا تزال فيه بقية من خير ، والرجل الذى يطلب الظهور بالفضيلة لاتزال فيه بقية من شر .. على أن الإنسان ينبغى أن يخجل من نفسه كما يخجل من الناس ، فإذا كره أن يروه على نقيصة فليكره أن يرى نفسه على مثلها ، إلا إذا حسب نفسْه أحقر من أن يُستحى منها . وقد قيل : من عمل فى السر عملا يستحي منه فى العلانية فليس لنفسه عنده قدر . ومن ثم كان لزاماً على المسلم أن يبتعد عن الدنايا ، ما ظهر منها وما بطن ، سواء خلا بنفسه أو برز إلى الناس .

وفى الأثر : « ما أحببت أن تسمعه أذناك فأته ، وما كرهت أن تسمعه أذناك فاجتنبه » .

* * *

إن الحياء ملاك الخير ، وهو عنصر النبل فى كل عمل يشوبه ، قال رسول الله « ما كان الفحش فى شيء ألا شانه ، وما كان الحياء فى شيء إلا زانه(١) » .

فلو تجسم الحياء لكان رمز الصلاح والإصلاح :

عن عائشة أن رسول الله قال لها : « لو كان الحياء رجلا لكان رجلا صالحاً ، ولو كان الفحش رجلا لكان رجلا سوءاً(٢) » .

---

(١) الترمذى   (٢) الطبرانى .

ومن حياء الإنسان مع الناس أن يعرف لأصحاب الحقوق منازلهم ، وأن يؤتى كل ذى فضل فضله . فللغلام مع من يكبرونه ، وللتلميذ مع من يعلِّمونه مسلك يقوم على التأدب والتقديم ؛ فلا يسوغ أن يرفع فوقهم صوته ، ولا أن يجعل أمامهم خطوهُ :

وفى الحديث : « تواضعوا لمن تعلمون منه(١) » . . وفى الحديث كذلك : « اللهم لا يدركنى زمان لا يُتبع فيه العليم ، ولا يستحيا فيه الحليم(٢) » .

وعن عبدالله بن يسر : لقد سمعت حديثاً منذ زمان : « إذا كنت فى قوم(٣) فتصفحت وجوههم فلم تر فيهم رجلا يهاب فى الله عز وجل ، فأعلم أن الأمر قد رق(٤) !! » .

وليس الحياء جبناً ، فإن الرجل الخجول قد يفضل أن يريق دمه على أن يريق ماء وجهه ، وتلك هى الشجاعة فى أعلى صورها .

قد يكون فى الحياء شيء من التخوف ، بيد أنه تخوُّف الرجل الفاضل على مكارمه ومحامده أن تذهب ببهائها الأوضاع المحرجة . وهذا التخوف يقارن الجراءة فى مواطنها المحمودة .

فعندما نكص اليهود قديما عن محاربة الجبارين النازلين بالأرض المقدسة ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ﴾ (٥)

فهؤلاء الذين يتقون الله ويخافون العار ويستحيون من الفرار ، هم الذين لو وقع قتال لقادوا الهجوم وقرَّبوا الفتح !!

ولاشك أن الحياء الكامل يسبقه استعداد فطرى ممهّد ، فإن هناك طبائع تكاد الصفاقة تكون لازمة لها ، فى الوقت الذى ترى فيه بعض الناس شديد الخجل مرهف الاحساس إلى حد بعيد . لكن الخجل ، مع أنه العنصر البارز فى الحياء ، يقع فى الخير والشر ، وقد يجر صاحبه إلى ورطات سيئة . أما الحياء

---

(١) الطبرانى (٢) أحمد (٣) القوم : عشرون رجلا أو أقل أو أكثر
(٤) أحمد (٥) المائدة : ٢٣

فلا يكون إلا فى الحدود المشروعة . فالذى يتهيب تقريع المبطلين لا يعتبر حييًّا ! إن الحياء لا يكون تجاه الباطل ، ولا موضع له مع الناس إذا ضلوا ، ولا موضع له فى السلوك عندما يقف المرء موقفاً يناصر فيه الحق .. وقد عاب المشركون على الاسلام أنه حقر الأصنام ، وفضح عجزها عن خلق ذبابة ، بل عن حماية نفسها لو هاجمتها ذبابة ، وقالوا : إنه ليس من الحياء أن تهاجم آلهتهم بهذا الأسلوب .. فنزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ (١)

فإبراز الأصنام فى هذه الصورة من العجز والضعة حق : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (٢) وفى سبيل إحقاق الحق لا يتهيب المسلم أحداً ولا يخشى بأساً .

* * *

والحياء فى أسمى منازله وأكرمها يكون من الله عز وجل ، فنحن نطعم من خيره ونتنفس فى جوّه وندرج على أرضه ، ونستظل بسمائه . والإنسان بإزاء النعمة الصغيرة من مثله يخزى أن يقدم إلى صاحبها إساءة ، فكيف لا يَوْجَل الناس من الاساءة إلى ربهم ، الذى تغمرهم آلاؤه من المهد إلى اللحد ، وإلى ما بعد ذلك من خلود طويل ؟

إن حق الله على عباده عظيم ، ولو قدروه حق قدره لسارعوا إلى الخيرات يفعلونها من تلقاء أنفسهم ، ولباعدوا عن السيئات خجلا من مقابلة الخير المحض ، بالجهود والخسة .

عن ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ : « استحيوا من الله حق الحياء ، قلنا : إنا نستحيى من الله يا رسول الله - والحمد لله - قال : ليس ذلك .. الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى . ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، وآثر الآخرة على الأولى ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حقَّ الحياء (٣) » .

(١) البقرة ٢٦ (٢) الأحزاب ٥٣ (٣) الترمذى

وهذه العظة ، ويقال إنها لابن مسعود ، تستوعب كثيرًا من آداب الإسلام ومناهج الفضيلة ، فإن على المسلم تنزيه لسانه أن يخوض فى باطل ، وبصره أن يرمُق عورة أو ينظر شهوة ، وأذنِه أن تسترق سرًا أو تستكشف خبئًا . وعليه أن يفطم بطنه عن الحرام ، ويقنعه بالطيب الميسور . ثم عليه أن يصرف أوقاته فى مرضاة الله ، وإيثار ما لديه من ثواب ، فلا تستخفه نزوات العيش ومتعه الخادعة .

فإن فعل ذلك عن شعور بأن الله يرقبه ، ونفور من اقتراف تفريط فى جنب الله فقد استحيا من الله حق الحياء . .

والحياء بهذا الشمول هو الدين كله ، فإذا أطلق على طائفة من الأعمال الجميلة فهو جزء من الإيمان وأثر له .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : و« الايمان بضع وسبعون(١) شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان (٢) » .

إن الإنسان فى حضرة الرجال الذين يُجلُّهم ويَحرص على استرضائهم يضبط سلوكه ضبطًا محكما ، فيتكلم بقدر ، ويتصرف بحذر . والمسلم الذى يعرف من تعاليم دينه أنه لا يغيب عن الله أبدًا ، لأنه ماثل فى حضرته ليلا ونهارًا ، ينبغى أن يكون تهيبه لجلال الله أعظم ، وتأدبه بشرائعه أحكم . . وذلك معنى الأثر : « استحيى من الله كما تستحيى من أولى الهيبة فى قومك » .

أن اهتزاز الانسان وتمعر وجهه فى بعض المواقف دليل سمو كامن ، وطبع كريم ، و« الحياء خير كله (٣) » .

أما إذا سقطت صبغة الحياء عن الوجه ، كما تسقط القشرة الخضراء عن العود الغض ، فقد آذنت الحياة الفاضلة بالضمور ، وتهيأ الحطام الباقى أن يكون حطبًا للنار . . وذلك الذى يقال له : « إذا لم تستح فاصنع ماشئت » .

---

(١) وفى رواية : بضع وستون . (٢) البخارى . (٣) مسلم .

الإخـــاء

ليستْ هناك دواع معقولة تحمل الناس على أن يعيشوا أشتاتًا متنافرين . بل إن الدواعى القائمة على المنطق الحق والعـاطفة السـليمة تعـطف البشر بعضـــهم على البعض ، وتمهد لهم مجتمعًا متكافلا تسوده المحبة ، ويمتد به الأمـان على ظهـر الأرض . والله عزّ وجل رد أنساب الناس وأجناسهم إلى أبوين اثنين ، ليجعل من هذه الرحم الماسة ملتقى تتشابك عنده الصلات وتستوثق .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١)

فالتعارف ـ لا التنافر ـ أساس العلائق بين البشر ، وقد تطرأ عوائق تمنع هذا التعارف الواجب من المضى فى مجراه ، وإمداد الحياة بآثاره الصالحة . وفى زحام البشر على موارد الرزق ، وفى اختلافهم على فهم الحق وتحـديد الخيـر قـد يثـور نزاع ، ويقع صدام ، بيد أن هذه الأحـداث السـيئة لا ينبغـى أن تُنسِّىَ الحـكمة المنشودة من خلق الناس وتعمير الأرض بجهودهم المتناسقة .

وكل رابطة توطد هذا التعارف وتزيح من طريقه العـوائق فهـى رابـطة يجـب تدعيمها ، والانتفاع بخصائصها ، وليس الإسلام رابطة تجمع بين عدد قل أو كثر من الناس فحسب ، ولكنه جملة الحقائق التى تقر الأوضاع الصحيحة بين النـاس وربهم ، ثم بين الناس أجمعين .

ومن ثم فأصحاب الإسلام وحملة رسالته يحب أن يسـتشعروا جـلال العقيـدة التى شرح الله بها صدورهم ، وجمع عليها أمـرهم ، وأن يـولوا التعـارف عليهـا ما هو جدير به من عناية وإعزاز . إنه تعارف يجدد ما درس من قرابة مشتركة بين الخلق ، ويؤكد الأبوة المادية المنتهية إلى آدم بأبوة روحية ترجع إلى تعاليم الأديـان الملخصة فى رسالة الإسلام ، وبذلك يصير الدين الخـالص أسـاس أخـوة وثيقـة

---

(١) الحجرات . ١٣ .

العرى ، تؤلف بين أتباعه فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتجعل منهم ، على اختلاف الأمكنة والأزمنة ، وحدة راسخة الدعامة سامقة البناء ، لا تنال منها العواصف الهوج .

وهذه الأخوة هى روح الإيمان الحى ، ولباب المشاعر الرقيقة التى يكنها المسلم لإخوانه ، حتى إنه ليحيا بهم ويحيا لهم ، فكأنهم أغصان انبثقت من دوحة واحدة ، أو زوج واحد حل فى أجسام تعددة .

* * *

إن الأثرة الغالبة آفة الإنسان وغول فضائله ، إذا سيطرت نزعتها على امرىء محقت خيره ونمت شره ، وحصرته فى نطاق ضيق خيس لا يعرف فيه إلا شخصه ، ولا يهتاج بالفرح أو الحزن إلا لما يمسه من خير أو شر . أما الدنيا العريضة . والألوف المؤلفة من البشر ، فهو لا يعرفهم إلا فى حدود ما يصل إليه عن طريقهم ليحقق آماله أو يثير مخاوفه ..!!

وقد حار الإسلام هذه الأثرة الظالمة بالأخوة العادلة ، وأفهم الإنسان أن الحياة ليست له وحده ، وأنها لا تصلح به وحده ، فليعلم أن هناك أناسًا مثله ، إن ذكر حقه عليهم ومصلحته عندهم فليذكر حقوقهم عليه ومصالحهم عنده ، وتذكر ذلك يخلع المرء من أثرته الصغيرة ، ويحمله على الشعور بغيره حين يشعر بنفسه ، فلا يتزيد ولا يفتات .

من حق أخيك عليك أن تكره مضرته ، وأن تبادر إلى دفعها ، فإن مسه ما يتأذى به شاركته الألم ، وأحسست معه بالحزن . أما أن تكون ميت العاطفة قليل الاكتراث ، لأن المصيبة وقعت بعيدًا عنك فالأمر لا يعنيك ، فهذا تصرف لئيم .وهو مبتوت الصلة بمشاعر الأخوة الغامرة التى تمزج بين نفوس المسلمين فتجعل الرجل يتأوّه لألم ينزل بأخيه ، مصداق قول رسول الله ﷺ .

« مثل المسلمين فى توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى (١) » .

والتألم الحق هو الذى يدفعك دفعًا إلى كشف ضوائق إخوانك ، فلا تهدأ حتى تزول غمتها وتدبر ظلمتها ، فإذا نجحت فى ذلك استنار وجهك واستراح ضميرك :

قال رسول الله : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه . من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته . ومن فرج عن مسلم كُربةً فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة . ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة (٢) » .

من علائم الأخوة الكريمة أن تحب النفع لأخيك ، وأن تهش لوصوله إليه كما تبتهج بالنفع يصل إليك أنت . فإذا اجتهدت فى تحقيق هذا النفع فقد تقربت إلى الله بأزكى الطاعات وأجزلها مثوبة .

عن ابن عباس أنه كان معتكفًا فى مسجد رسول الله ، فأتاه رجل فسلم عليه ثم جلس فقال له ابن عباس : يا فلان أراك مكتئبًا حزينًا . قال : نعم يا ابن عم رسول الله ، لفلان على حق ولاء ، وحرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه !!

قال ابن عباس : أفلا أكلمه فيك » قال : إن أحببت . قال فانتعل ابن عباس ثم خرج من المسجد ، فقال له الرجل أنسيت ما كنت فيه ؟ قال : لا ، ولكنى سمعت صاحب هذا القبر ، والعهد به قريب - ودمعت عيناه - يقول من مشى فى حاجة أخيه ، وبلغ فيها كان خيرًا له من اعتكاف عشر سنين ، ومن اعتكف يومًا ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق أبعد مما بين الخافقين (٣) » !!

وفى رواية : « كل خندق أبعد مما بين الخافقين » !

وهذا الحديث يصور إعزاز الإسلام لعلائق الإخاء الجميل ، وتقديره العالى لضروب الخدمات العامة ، التى يحتاج إليها المجتمع لإرساء أركانه وصيانة بنيانه .

---

(١) البخارى . (٢) البخارى ومسلم . (٣) البيهقى .

لقد آثر ابن عباس أن يدع اعتكافه ، والاعتكاف عبادة محضة رفيعة الدرجه عند الله لأنها استغراق فى الصلاة والصيام والذكر ، ثم هو فى مسجد رسول الله ، حيث يضاعف الأجر ألف مرة فوق المساجد الأخرى .

ومع ذلك فإن فقه ابن عباس فى الإسلام جعله يدع ذلك ليقدم خدمة إلى مسلم يطلب العون : هكذا تعلم من رسول الله ﷺ .

* * *

إن أعباء الدنيا جسام ، والمتاعب تنزل بالناس كما يهطَل المطر فيغمر الخِصب والجدْب . والإنسان وحده أضعف من أن يقف طويلا تجاه هذه الشدائد . ولئن وقف إنه لباذل من الجهد ما كان فى غنى عنه لو أن إخوانه أهرُعُوا لنجدته وظاهروه فى إنجاح قصده ، وقد قيل : « المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه » .

ومن حق الأخوَّة أن يشعر المسلم بأن إخوانه ظهير له فى السراء والضراء وأن قوته لا تتحرك فى الحياة وحدها . بل إقوى المؤمنين تساندها وتشد أزرها .

قال رسول الله ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً(١) » .

ومن ثم كانت الأخوّة الخالصة نعمة مضاعفة ، لا نعمة التجانس الروحى فحسب ، بل نعمة التعاون المادى كذلك .

وقد كرر الله عز وجل ذكر هذه النعمة مرة ومرة فى آية واحدة :

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ (٢)

وأخوة الدين تفرض التناصر بين المسلمين ، لا تناصر العصبيات العمياء ، بل تناصر المؤمنين الصالحين لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، وردع المعتدى وإجارة المهضوم . فلا يجوز ترك مسلم يكافح وحده فى معترك ، بل لابد من الوقوف بجانبه على أى حال لإرشاده إن ضل ، وحجزه إن تطاول ، والدفاع عنه

(١) البخارى (٢) آل عمران : ١٠٣

إن هوجم ، والقتال معه إذا استبيح .. وذلك معنى التناصر الذى فرضه الاسلام .

قال رسول الله ﷺ : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . قال : أنصره مظلوماً ، فكيف أنصره ظالماً ؟ قال تحجزه عن ظلمه فذلك نصره(١) ! » .

إن خذلان المسلم شيء عظيم ، وهو ، إن حدث ، ذريعة خذلان المسلمين جميعاً ، إذ سيقضى على خلال الإباء والشهامة بينهم ، وسيخنع المظلوم طوعاً أو كرهاً لما وقع به من ضيم .. ثم ينزوى بعيداً وتتقطع عرى الأخوَّة بينه وبين من خذلوه .

وقد هان المسلمون أفراداً . وهانوا أمماً يوم وهت أواصر الأخوة بينهم ، ونظر أحدهم إلى الآخرة نظرة استغراب وتنكر ، وأصبح الأخ يُنتقص أمام أخيه فيهز كتفيه ويمضى لشأنه كأن الأمر لا يعنيه !

إن هذا التخاذل جرَّ على المسلمين الذلة والعار . وقد حاربه الاسلام حرباً شعواء ، ولعن من يقبعون فى ظلاله الداكنة الزريَّة :

قال رسول الله : « لا يقفنَّ أحدكم موقفاً يضرب فيه رجل ظلماً ، فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه (٢) » .

فإذا رأيت أن إساءة نزلت بأخيك أو مهانة وقعت عليه ، فأره من نفسك الاستعداد لمظاهرته . والسير معه حتى ينال بك الحق ويرد الظلم .

روى عن النبى ﷺ : « من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام (٣) » .

وهذا الواجب العظيم يزداد تأكيداً إذا كنت ذا جاه فى المجتمع أو صاحب منصب تحفه الرغبة والرهبة .. إن للجاه زكاة تؤتى كما تؤتى زكاة المال ، فإذا رزقك الله سيادة فى الأرض أو تمكيناً بين الناس فليس ذلك لتنتفخ بعد انكماش ،

---

(١) البخارى (٢) الطبرانى (٣) الأصبهانى

أو تزدهِى بعد تواضع إنما يسر الله لك ذلك ليربط بعنقك حاجات لا تقضى إلا عن طريقك ، فإن أنت سهلتها قمت بالحق المفروض ، وأحرزت الثواب الموعود ، وإلا فقد جحدت النعمة وعرضتها للزوال :

روى عن رسول الله : « إن لله عند أقوام نعما أقرها عندهم ما كانوا فى حوائج المسلمين ، ما لم يملوهم ، فإذا ملوهم نقلها إلى غيرهم (١) » .

واستخدام المرء جاهَه لنفع الناس ومنع أذاهم ينبغى أن يتم فى حدود الاخلاص والنزاهة . فإن فعل أحد ذلك لقاء هدية ينتظرها فَقَدَ أجره عند الله ، وتأكل بعمله السحت :

قال رسول الله : « من شفع شفاعة لأحد ، فأهدى له هدية عليها ، فقبلها ، فقد أتى باباً عظيما من أبواب الكبائر (٢) » .

* * *

وهناك رذائل حاربها الإسلام لأنها تناقض آداب الأخوة وشرائطها .

إن القاعدة التى تسوّى بها الصفوف تسوية ترد المتقدم إلى مكانه ، وتقدم المتأخر عن أقرانه هى الأخوّة . فإذا نشب نزاع أو حدث هَرجْ ومَرْج طُبقت قوانين الاخاء على الكافة ونفذ حكمها :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٣)

وقد حذر رسول الله من هذه الرذائل فى حديثه الجليل ، وهى رذائل تبدو للنظر القاصر تافهة الخطر ، غير أنها لمن تدبر عواقبها تصدع القلوب ، وتجفف عواطف الود منها :

قال : « إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث . ولا تجسسوا ،

(١) الطبرانى (٢) أبو داود (٣) الحجرات : ١٠

ولا تحسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله تعالى .. المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره . بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام : ماله ودمه وعرضه .. إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .. التقوى ها هنا . التقوى ها هنا . التقوى ها هنا - ويشير إلى صدره ، ألا لا يبع بعضكم على بيع بعض . وكونوا عباد الله إخواناً .. ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث (١) » .

فى المجتمع المتحابِّ بروح الله ، الملتقى على شعائر الاسلام ، يقوم إخاء العقيدة مقام إخاء النسب ، وربما ربَتْ رابطة الإيمان على رابطة الدم ..

والحق أن أواصر الأخوة فى الله هى التى جمعت أبناء الإسلام أول مرة ، وأقامت دولته ، ورفعت رايته ، وعليها اعتمد رسول الله فى تأسيس أمة صابرت هجمات الوثنية الحاقدة وسائر الخصوم المتربصين ، ثم خرجت بعد صراع طويل وهى رفيعة العماد وطيدة الأركان . على حين ذاب أعداؤها وهلكوا .

إن الأمور تذكر بأضدادها ، وفى عصرنا هذا يذكرنا تجمع اليهود حول باطلهم وتطلعهم إلى إقامة ملك لهم . ومجيئهم من المشرق والمغرب نافرين إلى الأرض المقدسة ، تاركين أوطانهم الأولى وماضمت من ثروات وذكريات يذكرنا هذا الانبعاث عن عقيدة باطلة بالانبعاث الأغر الذى وقع من أربعة عشر قرناً ، حين يمم المسلمون من كل فج شطر « يثرب » وهاجروا من مواطنهم الأولى إلى الوطن الذى اختاروه ليقيموا فيه أول دولة للاسلام ..

كانت المدينة التى احتضنت الإسلام ومجدت كلمته تقيم العلاقات بين القاطنين والوافدين على التباذل فى ذات الله ، والإيثار عن سماحة رائعة ، والمساواة بين الأنساب والأجناس ، وتبادل الاحترام والحب ، وإشاعة الفضل

---

(١) مسلم

وتقديس الحق ، وإسداء المعروف عن رغبة فيه لا عن تكليف به :

قال الله عزَّ وجل :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (١)

وهذه علائم الإخاء الصحيح ، إخاء العقيدة الخالصة لوجه الله ، لا إخاء المنافع الزائلة ، ولا إخاء الغايات الدنيا .

وكانت تعاليم الاسلام ترعى هذا الاخاء حتى لا يعدُوَ عليه ما يكدره ؛ فلا يجوز لمسلم أن يسبب لأخيه قلقاً ، أو يثير فى نفسه فزعاً .

قال رسول الله ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يروِّعَ مسلماً(٢) » . وروى عن رسول الله : « من نظر إلى مسلم نظرة يخيفه فيها بغير حق أخافه الله يوم القيامة (٣) » .

وما يؤدى إلى إيذاء المسلم أو يقرب من العدوان عليه يعتبر جريمة غليظة . فكيف بإيذائه والاعتداء عليه ؟

قال رسول الله ﷺ : « من أشار إلى أخيه بحديدة فان الملائكة تلعنه حتى ينتهى ، وإن كان أخاه لأبيه وأمه (٤) » .

وبهذه الوصايا كانت الأخوة تأميناً شاملا ، بث فى أكناف المجتمع السلام والطمأنينة . .

وشد من أزر هذه الأخوة تحريم الاسلام للاستكبار والافتخار ، فان الإخوة الشاعرين بالشركة فى أب واحد والموالاة على دين واحد لن تجعلهم حظوظ الدنيا

(١) الحشر ٩ (٢) أبو داود (٣) الطبرانى (٤) مسلم

أعداء . . ولا مكان لافتخار باطل بين قوم يعلمون أن الكرامة للتقوى ! وأن التقوى فى القلوب ، وأن القلوب إلى الله ما يدرى سرها أحد !

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله أوحى إلَّى أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد [١] » .

ورهب الاسلام من يلعب بهم الشيطان ويغريهم بالتطاول على إخوانهم طلباً للاستعلاء فى الأرض ، فبين أن هؤلاء المتطاولين سوف يتضاءلون يوم القيامة ، وعلى قدر ما انتفخوا ينكمشون حتى يصيروا هباء ينضغط فى مواطىء النعال :

وفى الحديث : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان [٢] » .

ومما يمزق أواصر الاخوة التهكم والأزدراء والسخرية من الآخرين . إن هذه الأخلاق تنشأ عن جهالة سادرة ، وغفلة شائنة فإن من حق الضعيف أن يُحمل لا أن ينال منه ، ومن حق الحائر أن يُرشد لا أن يضحك عليه . وإذا وجدت بشخص عاهة أو عرضت له سيئة ، فآخر ما يتوقع من « المسلم أن يجعل ذلك مثار تندُّره واستهزائه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ ﴾ [٣]

وعن الحسن : « إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم فى الآخرة باب من الجنة . فيقال له هلم . فيجىء بكربه وغمه ، فإذا جاء أغلق دونه . ثم يفتح له باب آخر . فيقال هلمَّ هلمَّ . فيجىء بكربه وغمه ، فإذا جاءه أغلق دونه . فما يزال كذلك حتى إن أحدهم ليفتح له الباب من أبواب الجنة . فيقال له : هلم . . فما يأتيه من الإياس [٤] » .

ذلك جزاء الساخرين ، وهى عقوبة من جنس الذنب المقترف ، كأنها توبيخ للمستهزئين وتذكير لهم بما كانوا يعملون .

---

(١) أبو داود (٢) الترمذى (٣) الحجرات ١١ (٤) البيهقى .

ومما اتخذه الإسلام لصيانة الأخوة العامة ، ومحو الفروق المصطنعة ، توكيد التكافؤ فى الدم والتساوى فى الحق وإشعار العامة والخاصة بأن التفاخر بالأنساب باطل ، لأن أبوة آدم لفّتْ اعقابه كلهم فى شعار فذ ، فما يَفْضُل أحد صِنْوَه إلا بميزة يحرزها لنفسه بكده وجده ، فمن لا امتياز له بعمل جليل لم ينفعه أسلافه ولو كانوا ملوك الآخرة .

عن أبى هريرة . قال رسول الله : « إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادى : ألا إنى جعلت نسباً ، وجعلتم نسباً فجعلت أكرمكم أتقاكم ، فأبيتم إلا أن تقولوا : فلان ابن فلان ، فاليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم[١]!! » .

وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ * فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ [٢]

والغريب أن عادة العرب فى الاستعلاء بالنسب والإزدهاء بالأبوة غلبت فى مجتمعهم تعاليم الإسلام ، فكان ذلك من أسباب الفتوق الخطيرة فى ماضينا وحاضرنا . .

ومن وسائل الإسلام كذلك فى المحافظة على الإخاء بين بنيه مهما اختلفت أوطانهم وعشائرهم ، إماتته للنزعات العنصرية والعصبيات الجنسية .

إنه من الطبيعى أن يحب المرء وطنه وقومه . لكن لا يجوز أبداً أن يكون ذلك سبباً فى نسيان المرء لربه وخُلقه ومثله :

قال رسول الله : « خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم[٣] » .

وسئل : ما العصبية ؟ قال : « أن تعين قومك على الظلم[٤] » .

إن الأخوة فى الاسلام تعنى الاخلاص له ، والسير على سبيله ، والعمل بأحكامه وتغليب روحه على الصلات الخاصة والعامة ، واستفتاءه فيما يعرض من مشكلات ، وغض الطرف عما عدا ذلك من صيحات ودعوات .

(١) البيهقى (٢) المؤمنون ١٠١ - ١٠٣ (٣) أبو داود (٤) أبو داود

الاتحــاد

تقوم شرائع الإسلام وآدابه على اعتبار الفرد جزءاً لا ينفصم من كيان الأمة ، وعضواً موصولا بجسمها لا ينفك عنها ، فهو - طوعاً أو كرهاً - يأخذ نصيبه مما يتوزع على الجسم كله من غذاء ونمو وشعور . .

وقد جاء الخطاب الإلهى مُقِراً هذا الوضع ، فلم يتجه للفرد وحده بالأمر والنهى ، إنما تناول الجماعة كلها بالتأديب والإرشاد ، ثم من الدرس الذى يلقى على الجميع يستمع الفرد وينتصح . وهكذا أطرد سياق التشريع فى الكتاب والسنة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ * وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ (١)

فإذا وقف المسلم بين يدى الله ليناجيه ويتضرع إليه لم تجْرِ العبادة على لسانه كعبد منفصل عن إخوانه ، بل كطرف من مجموع متسق مرتبط يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ لا : إياك أعبد وإياك أستعين !!

ثم يسأل الله من خيره وهداه فلا يختص نفسه بالدعاء ، بل يطلب رحمة الله له ولغيره ، فيقول ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾

إن الله عز وجل لم يخلق الناس لينقسموا ويختلفوا . . لقد شرع لهم ديناً واحداً وأرسل أنبياءه تترى ليقودوا الناس كافة فى طريق واحد ، وحرم عليهم من الأزل أن يصدعوا الدين ، وأن يتفرقوا حوله عزين .

بيد أن الشهوات المتنزّية تناست هذه الوصية الكريمة ، وتنكرت للتراث الإلهى العظيم ، فانقسم الناس أحزاباً ، وصار كل حزب يكيد للآخر ويتربص به .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا

---

(١) الحج ٧٧ ، ٧٨

تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (١)

وبين الله عز وجل أن اتباع الهوى ومتابعة البغى هو سرّ هذا الافتراق الواسع .

والحق أن العلم عندما ينفصل عن الخلق ، ويفارقه الإخلاص يمسى وبالاً على أهله وعلى الناس . . وقد كان الناس قبل الدين يضلهم الجهل فى شعابه الحائرة . فلما جاء الدين واستبدّ به دهاقينه ، وتاجروا بعلومه لأنفسهم ومطامعهم تاهت جماهير العامة فى سبل جائرة ! .

وقد كان رسول الله ﷺ يستعذ بالله من علم لا ينفع . وقال : « إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى منافق عليم اللسان (٢) » .

أجل ، إن القلب الخرب يجعل من العلم سلاحاً للفساد . وقد تأذى العالم فى القديم والحديث من هذا العلم المدمِّر . ونبأنا الله عزَّ وجلّ أن العلماء بألسنتهم لا بأفئدتهم هم الذين مزقوا شمل البشر :

قال جلّ شأنه : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ (٣)

وقال : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ (٤)

---

(١) المؤمنون ، ٥١ ـ ٥٤ (٢) البزار

(٣) الشورى . ١٣ ، ١٤ (٤) البقرة . ٢١٣

فانظر إلى ضراوة العلم عندما يفقد الاخلاص لله والرفق بالعباد ، كيف يثير الفرقة ، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل .

إن اختلاف الأفهام واشتجار الآراء ليس بمستغرب فى الحياة ، ولكن ليس هذا سبب التقاطع والشقاق . إنما يعود سبب الشقاق إلى انضمام عوامل أخرى . تستغل تباين الأنظار والأفكار للتنفيس عن أهواء باطنة .

ومن ثم ينقلب البحث عن الحقيقة إلى ضرب من العناد لا صلة له بالعلم ألبتة .

ولو تجردت النيات للبحث عن الحقيقة ، وأقبل روادها وهم بعداء عن طلب الغلب ، والسمعة ، والرياسة ، والثراء ؛ لَصُفِّيت المنازعات التى ملأت التاريخ بالأكدار والمآسى .

وقد لحظنا أن هناك توافه ضخم الخلاف فيها وامتدّ لأن هذا الخلاف اقترن ابتداء بمنافع سياسية . على حين انكمش الخلاف فى مسائل هامة ، وتُركت وجهات النظر ترسو حيث شاءت ، لأن نتائج هذا الخلاف نظرية بحتة !

ولما كان هذا الاختلاف المريب مفسداً لدين الله ودنيا الناس اعتبره الإسلام انفصالا عنه وكفراً :

قال الله عزّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (١)

وحذر الله المسلمين من الخلاف فى الدين والتفرق فى فهمه شيعا متناحرة متلاعنة كما فعل الأولون :

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (٢)

---

(١) الأنعام . ١٥٩ (٢) آل عمران . ١٠٥ - ١٠٧

إن ائتلاف القلوب والمشاعر ، واتحاد الغايات والمناهج ، من أوضح تعاليم الإسلام ، وألزم خلال المسلمين المخلصين . . ولا ريب أن توحيد الصفوف واجتماع الكلمة هما الدعامة الوطيدة لبقاء الأمة ، ودوام دولتها ، ونجاح رسالتها ولئن كانت كلمة التوحيد باب الإسلام . إن توحيد الكلمة سر البقاء فيه ، والإبقاء عليه ، والضمان الأول للقاء الله بوجه مشرق وصفحة نقية . . !!

* * *

إن العمل الواحد فى حقيقته وصورته يختلف أجره اختلافاً كبيراً حين يؤديه الإنسان وحيداً ، وحين يؤديه مع آخرين .

إن ركعتى الفجر أو ركعات الظهر هى هى لم تزد شيئاً عندما يؤثر المرء أداءها فى جماعة عن أدائها فى عزلة . ومع ذلك فقد ضعف الإسلام أجرها بضعاً وعشرين مرة أو يزيد عندما يقف الإنسان مع غيره بين يدى الله . وهذا إغراء شديد بالانضواء إلى الجماعة ونبذ العزلة ودفع بالإنسان إلى الانسلاخ من وحدته ، والاندماج فى أمته إن الإسلام يكره للمسلم أن ينحصر فى نطاق نفسه وأن يستوحش فى تفكيره وإحساسه ، وأن ينأى بمصلحته عن مصلحة الجماعة وحياتها .

وفى الحديث : « . . ثلاث لا يغل عليهن قلب امرىء مؤمن : إخلاص العمل لله : والمناصحة لأئمة المسلمين . ولزوم جماعتهم ، فإن دعاءهم يحيط من ورائهم [١] » .

ولكى يمتزج المسلم بالمجتمع الذى يحيا فيه شرع الله الجماعة للصلوات اليومية ورغب فى حضورها وتكثير الخطا إليها . ثم ألزم أهل القرية الصغيرة أو الحى الآهل أن يلتقوا كل أسبوع لصلاة الجمعة . ثم دعا إلى اجتماع أكبر فى صلاة العيد جعل مكانه الأرض الفضاء خارج البلد وأمر الرجال والنساء - حتى الحيض - بإتيانه ، إتماماً للنفع وزيادة فى الخير .

ثم أذن إلى حشد أضخم يضم الشتات من المشرق إلى المغرب ، ففرض

---

(١) البزار

الحج ، وجعل له مكاناً معلوماً وزماناً معلوماً ، حتى يجعل اللقاء بين أجناس المسلمين أمراً محتوماً .

وكان رسول الله ﷺ شديد التحذير من عواقب الاعتزال والفرقة ، وكان فى حله وترحاله يوصى بالتجمع والاتحاد .

عن سعيد بن المسيب : قال رسول الله ﷺ : « الشيطان يَهمُّ بالواحد والاثنين فإذا كانوا ثلاثة لم يَهمَّ بهم (١) » .

وقد رأى فى سفره أن القافلة عندما تستريح يتفرق أهلها هنا وهناك ، كأنما ليس بينهم رباط ، فكره هذا المنظر ونفر منه .

عن أبى ثعلبة كان الناس إذا نزلوا منزلا تفرقوا فى الشعاب والأودية فقال النبى ﷺ : « إن تفرقكم هذا من الشيطان . فلم ينزلوا بعد إلا انضم بعضهم إلى بعض . حتى يقال : لو بسط عليهم ثوب لعمهم (٢) » .

وذلك أثر امتزاج المشاعر ، وتبادل الحب وانسجام الصفوف . .

* * *

إن الناس إن لم يجمعهم الحق شعبهم الباطل . وإذا لم توحدهم عبادة الرحمن مزقتهم عبادة الشيطان ، وإذا لم يستهوهم نعيم الآخرة تخاصموا على متاع الدنيا . . ولذلك كان التطاحن المر من خصائص الجاهلية المظلمة ، وديدن من لا إيمان لهم :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ترجعوا بعدى كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض (٣) » .

يعنى أن هذا العراك الدامى شأن الكافرين المنقسمين على أنفسهم أحزاباً متناحرة .

وقد لان الإسلام لإختلاف العقول فى الفهم ، ومنح المخطىء أجراً والمصيب أجرين ، ثم وسع الجميع فى كنفه الرحب ، ماداموا مخلصين فى طلب الحق ، حراصاً على معرفته والعمل به .

---

(١) مالك . (٢) أبو داود . (٣) الترمذى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر (١) » .

فأنت ترى رحمة الله لا ترتبط بنتائج الفكر قدر ارتباطها بصلاح القصد .. فلم يضيق ذرع البشر بما وسعه دين الله ؟؟ ولم القسوة بينهم والجفاء !

عندما أمر رسول الله المجاهدين الخارجين من المدينة ألا يصلوا العصر إلا فى « بنى قريظة » تأول بعضهم الأمر على أن ذلك ما لم يضع الوقت ! وصلى فى الطريق ! وأمضى الآخرون النص على ظاهره فصلوا العصر فى العتمة .. وقبل الرسول فهم الفريقين ، ثم صفهم بازاء العدو جيشاً واحداً .

ذلك روح الإسلام فى علاج الخلاف العلمى . وذلك ما لا محيص عنه عندما تستقيم الضمائر والعقول .. أما يوم يجعل الخلاف مصْيَدة للدنيا ينصبها العناد والبغض فقد ضاعت الدنيا وضاع قبلها الدين .

قيل لأحد الشيوخ : أدرك المصلين فى المسجد ، يوشك أن يتقاتلوا ، قال : علام ؟ قيل بعضهم يريد أن يصلى التراويح ثمانى ركعات ، والبعض يريد صلاتها عشرين . قال : ثم ماذا ؟ قال هم فى انتظار فتواك .

قال : الفتوى أن يغلق المسجد فلا تصلى فيه تراويحُ ألبته ، لأنها لا تعدو أن تكون نافلة ووحدة المسلمين فريضة ، ولا قامت نافلة تهدم الفريضة !! إن الاخلاص لله والنصح للدين وللعامة ، أبعد ما يكون عن الشغب الذى يحدث فى أمثال هذه الشئون .

وتمشياً مع تعاليم الاسلام فى وقاية الأمة غوائل الشقاق ، أفتى العلماء بأن تغيير المنكر لا يلزم إذا كان سيؤدى إلى مفسدة أعظم ، فان بقاء المنكر ضرر ووقوع هذه المفسدة ضرر أبلغ ، فيرتكب أخف الضررين !! ألا ترى الطبيب لا يقدم على جراحة بالجسم إلا إذا رأى الجسم يطيق إجراءها ؟ فاذا رأى فيها

---

(١) البخارى

خطراً على الحياة توقف ؛ ولو بقيت العلة .

وكان رسول الله يبايع الأنصار « على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا(١) » .

يعنى أن المرء الصالح ينبغى ألا يكترث لفقدان حظه من الدنيا ، فاذا أهمل فى إسناد منصب ، أو بخس فى تقدير راتب لم يملأ الآفاق صياحاً وشغباً ، فإن الغضب الدنيا على هذا النحو الشائن شيمة المنافقين الذين قال الله فيهم :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾(٢)

ولو غَلغَلْت النظر فى كثير من الانقسامات لرأيت حب الدنيا ، والأثرة العمياء تكمن وراء هذه الحزازات . . والاتحاد قوة . . وليس ذلك فى شئون الناس فقط إنه قانون من قوانين الكون فالخيط الواهى إذا انضم إليه مثله أضحى حبلا متيناً يجر الأثقال . وهذا العالم الكبير ما هو إلا جملة ذرات متحدة !

وقد شرح حكيم لأولاده هذا المعنى عند وفاته ليلقنهم درساً فى الاتحاد ، قدم إليهم حزمة من العصى قد اجتمعت عيدانها ، فعجزوا عن كسرها ، فلما انفك الرباط وتفرقت الأعواد كسرت واحداً واحداً .

تأبى الرملح إذا اجتمعن تكسُّراً وإذا افترقن تكسَّرت آحادا

إن الشقاق يضعف الأمم القوية ، ويميت الأمم الضعيفة . . ولذلك جعل الله أول عظة للمسلمين - بعد ما انتصروا فى معركة « بدر » - أن يوحدوا صفوفهم ، ويجمعوا أمرهم .

لما تطلعت النفوس للغنائم ، تشتهى حظها وتتنافس على اقتسامها ، نزل قوله تعالى :

---

(١) مسلم . (٢) التوبة ٥٨

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١)

ثم أفهمهم أن الاتحاد فى العمل لله هو طريق النصر المحقق والقوة المرهوبة :

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (٢)

وحذرهم من أن يسلكوا فى التكالب على الدنيا ، والحرص على غثائها مسلك الذين لا يرجون عند الله ثواباً ، فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (٣)

ثم تلقى المسلمون فى « أحد » لطمة موجعة أفقدتهم من رجالهم سبعين بطلا ، وردتهم إلى المدينة وهم يعانون الأمرين من خزى الهزيمة وشماتة الكافرين .

ولم ذلك ؟ مع أن إيمانهم بالله ودفاعهم عن الحق يرشحانهم للفوز المبين ، ذلك لأنهم تنازعوا وانقسموا وعصوا أمر الله ورسوله .

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ (٤)

ولو عقل المسلمون أحوالهم فى هذه المرحلة العصيبة من تاريخهم ، لأحسوا بأن ما لحقهم من عار يعود إلى انحلال عراهم وتفرق هواهم .

إن الهجوم الصليبىّ المعاصر ، والهجوم الصهيونى الذى جاء فى أذياله .. لم ينجحا فى ضعضعة الدولة الإسلامية وانتهاب خيرها ، إلا عقب ما مهدا لذلك بتقسيم المسلمين شيعاً منحلة واهنة ، ودويلات متدابرة ، يثور بينها النزاع وتتسع شقته لغير سبب .. وسياسة الغرب فى احتلال الشرق وتسخيره تقوم على قاعدة « فرِّق تسد » .

---

(١) الأنفال ١ (٢) الأنفال ٤٦ (٣) الأنفال ٤٧ (٤) آل عمران ١٥٢

إن الإسلام حريص على سلامة أمته وحفظ كيانها ، وهو لذلك يطفىء بقوة بوادر الخلافْ ، ويهيبُ بالأفراد كافة أن يتكاتفوا على إخراج الأمة من ورطات الشقاق ومصايره السود . « يد الله على الجماعة ومن شذ شذ فى النار » .

وأعداء الإسلام يودون أن يضعوا أيديهم على شخص واحد ليكون طرفاً ناتئا يستمكنون منه ، ويجذبون الأمة كلها عن طريقه ! فلا جرم أنه يستأصِل هذا النتوء لينجى الجماعة كلها من أخطار بقائه ، ولذلك يقول رسول الله : « ستكون هنات وهنات ، فمن أراد أن يفرّق أمر هذه الأمة وهى جميع ، فاضربوه بالسيف كائناً من كان [١] » .

والخروج على إجماع الأمة ـ وهذا عقابه فى الدنيا ـ يدخل بعدئذ فى حدود قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [٢]

ولا يستغربنّ أحد هذا الوعيد ؛ فإن جرثومة الشقاق لا تولد حتى يولد معها كل ما يهدد عافية الأمة بالانهيار .

وفى الناس طبائع سيئة قد تموت وحدها فى ظل الوحدة الكاملة . فإذا نجمت بوادر الفرقة رأيت المتربصين والمنتهزين يلتفون حول أول ثائر ، ظاهر أمرهم التجمع حول مبدأ ، وباطنه دون ذلك :

ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات ، مات ميتة جاهلية [٣] » .

وفى حديث آخر : « . . من خرج على أمتى يضرب برَّها وفاجرها ، لا يتحاشى من مؤمنها ، ولا يفى بعهد ذى عهدها، فليس منى ولست منه [٤] » .

* * *

من حق الفاضل أن يُقدَّم . ومن حق ذى الكفاية أن تستفيد الأمة منه . على

(١) مسلم (٢) النساء ١١٥ (٣) البخارى (٤) مسلم

أن الرجل مهما أوتى من فضل وكفاية فلن ينفع نفسه ، ولن تنتفع به أمتـه إذا كان مريضاً بحب الرياسة . فطالب الزعامة يفوته توفيق الله ، والمرء الذى يفوته توفيق الله مشئولله ولو كان عبقريا . .

ومن ثمَّ قرر الاسلام حرمان طلاب الرياسة من المناصب التى يعشقونها :

عن أبى موسى : « دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم أنـا ورجـلان مـن بنى عمى ، فقال أحدهما : يا رسول الله أمِّرنا على بعض ما ولاك الله تعـالى ، وقال الآخر مثل ذلك ، فقال : إنا - والله - لا نولى هذا العمل أحداً سأله . أو أحداً حَرص عليه [١]

والغريب أن الفتوق الشنعاء التى انهدت لهـا أركان الاسـلام وأمتـه بـدأت وتكررت ، ومازالت تبدأ وتتكرر ، من الأفراد والأسر المصابة بحب الرياسة .

ولو كان هُيامها بالملك والسيادة نتيجة تفـوُّق هـائل فى المـزايا والملـكات ما أعطاها ذلك حق التقدم كما قال رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم ، فـكيف وهؤلاء المتملكون من حثالات الخلق وأدنئهم خلقا ؟؟

وصفهم المتنبى قديماً فقال :

سـادات كل أنـاس مـن نفـوسهمُو ... وسـادة المسـلمين الأعبـد البُهُـمُ

فليحذر كل مسلم هذا الانحراف أين وجـده ، يَضَـعْ فى وحـدة أمتـه لبنة .

اختيـار الأصدقـاء

للصداقات الخاصة أثر عميق فى توجيه النفس والعقل . ولهـا نتـائج هـامة فيا يصيب الجماعة كلها من تقدم أو تأخر ، ومن قلق أو اطمئنان .

وقد عُنى الإسلام بهذه الصلات التى تربطك بأشخاص يـؤثرون فيـك ويتـأثرون بك ويقتربون من حياتك اقتراباً خطيراً لأمد طويل .

---

(١) البخارى

إن هذه الصلات إن بدأت ونمت نبيلة خالصة تقبلها الله وباركها ، وإن كانت رخيصة مهينة ردها فى وجوه أصحابها :

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (١)

إن الإسلام ـ كما علمت ـ دين تجمع وألفة ، ونـزعة التعرف إلى الناس والاختلاط بهم أصيلة فى تعاليمه . وهو لم يقم على الاستيحاش ، ولا دعا أبناءه إلى العزلة العامة ، والفرار من تكاليف الحياة ، ولا رسم رسالة المسلم فى الأرض على أنها انقطاع فى دير ، أو عبادة فى صومعة . كلا ، كلا . فإن الدرجات العالية لم يُعدَّها الله عزّ وجلَّ لأمثال أولئك المنكمشين الضعاف :

قال رسول الله ﷺ : « المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم(٢) » .

لمن شرعت الجماعات ؟ وعلى من فرضت الجمعة ؟ ومن الذى يحمل أعباء الجهاد ويعين فى أزماته الكالحة ؟ إن ذلك يستلزم أمة توثقت فيها العلاقات الخاصة والعامة إلى حد بعيد .

ولذلك أجاب ابن عباس عندما سئل مراراً عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل ولكنه لا يحضر الجمعة ولا الجماعات ، فقال : خبروه أنه من أهل النار(٣) .

ذلك أن الإسلام شديد الحرص على أن تكون شعائره العظمى مثابة يلتق المسلمون عندها ليتعاونوا على أدائها ، ويستوحوا من جوها الطهور عواطف الود المصفى ، والإخلاص العميق .

وكلما ضخم العدد الذى ينتظم المسلم مع إخوانه تكاثرت عليه بركات الله . فى الحديث : « .. صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده ،

(١) الزخرف : ٦٧ ، ٦٨ (٢) الترمذى (٣) الترمذى

وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجَل ، وكلما كثر فهو أحب إلى الله عز وجل(١) » .

وفى رواية أخرى : « صلاة الرجلين يؤم أحدهما صاحبه أزكى عند الله من صلاة أربعة تترى . وصلاة أربعة أزكى عند الله من صلاة ثمانية تترى . وصلاة ثمانية يؤمهم أحدهم أزكى عند الله من صلاة مائة تترى(٢) » .

وهذه السنن تشير إلى رغبة الإسلام فى تكثير سواد المسلمين ورؤيتهم حشوداً متضاعفة ، لا فرادى منقطعين .

على أن أمر العزلة والاختلاط وما يتبعه من إنشاء الصلات وتكوين الصداقات يخضع لأحكام شتى .

فكل اعتزال عن الأمة يفوّت جهاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو يضعف من جانب الدفاع عن الإسلام أمام خصومه . فهو جريمة ولا يقبل من صاحبه عذر .

والناس بعدئذ طبائع . منهم الذى يهرع إلى المجامع الحافلة ، وسرعان ما يتصل بهذا وذاك . ويستأنس بتصفح الوجوه ومحادثة القريب والبعيد ، ومنهم من تزج به فى الأحفال المائجة فإذا هو يقيم حول نفسه سوراً ، يطل منه على الناس بحذر ، ويتوارى خلفه إن قصده قاصده .

وكلتا الطبيعتين هداها الإسلام نهجها السوى . فيقال للأول : « خالط الناس ، ودينك لا تكلمنه » .

ويقال للآخر : « المؤمن هين لين إلف مألوف » .

على أن الإسلام أوجب اعتزال الفتن . فإذا اضطربت البلاد وتهارش أهلها على الدنيا ، وانتقضت عرا الفضائل فإن مقاطعة الفساد لون من استنكاره وذلك فى حدود مراتب التغيير التى شرعها الله لخصومة المنكر من تغيير اليد ، فاللسان ، فالقلب .

أى أن اعتزال الفساد لا يقبل ممن يملك تغييره بلسانه فضلا عن يده ، والمقاطعة سلاح استخدم فى هذا العصر بحكمة . جربته الأمم المستضعفة مع عدوها

(١) أحمد (٢) الطبرانى

القاهر . ومنزلة المقاطعة من أسلحة الكفاح الأخرى هى منزلة الاعتزال من أساليب الإصلاح الكثيرة . أى أنها مهرب العجزة عندما لا يجدون وسيلة غير الفرار بدينهم . فأما عند كثرة الوسائل التى يمكن بها إطفاء الفتن فالاعتزال ، كما بينا ، جريمة نكراء .

وعلى ضوء هذا البيان تفهم قول رسول الله وقد سئل : أى الناس أفضل يا رسول الله ؟ قال : « مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله . قيل ثم من ؟ قال : رجل معتزل فى شعب من الشعاب يعبد ربه[1] » .

ثم إن العزلة والاختلاط لا يمكن أن يكونا وصفين دائمين للانسان . فليقسم المسلم وقته بين الخلوة النافعة والاختلاط الحسن ، ليخرج من الحالين بما يصلح شأنه كله .

* * *

وعلى هذا الأساس نتخير الأصحاب ، ونرغب فى الصداقات أو نزهدها . . وأول شرائط الصحبة الكريمة أن تبرأ من الأعراض ، وأن تخلص لوجه الحق ، وأن تولد وتكبر فى طريق الإيمان والاحسان . وهذا هو معنى الحب لله .

إن الإنسان إذا رسخ فى فؤاده اليقين ، وخالطت بشاشة الإيمان قلبه ، وأحس بحلاوته فى مذاقه أصبح ينظر للأحياء قاطبة على ضوء العقيدة التى تمحض لها . فهو يحب لمبدأ ، لا لشهوة ، ويكره لمبدأ ، لا لحرمان .

وقد تتجمع القطعان على مورد عذب أو كدر ، وقد يلتقى الناس على دنيا عارضة أو دائمة ، وربما تأسست بينهم علاقات متينة ، بيد إن هذا الضرب من التعارف والتواد لا يقاس بما ينشأ بين أصحاب المثل العليا من محبة وصفاء ، وتعاون وتفان .

ولذلك احتفى الإسلام بمشاعر الصداقة النقية ورغب المؤمنين فى إخلاصها لله ، وإبقائها لوجهه ، وجعل لها من جميل ، المثوبة ما هى له أهل :

---

(١) البخارى ومسلم

قال رسول الله ﷺ ، قال الله عز وجل : « المتحابون بجلالى فى ظل عرشى ، يوم لا ظل إلى ظلى[١] » وعن عمر بن الخطاب قال رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله ناساً ، ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله ، قالوا : يا رسول الله ، فخبرنا : من هم ؟ قال : هم قوم تحابُّوا بروح الله ، على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها : فوالله إن وجوههم لنور . وإنهم لعلى نور . لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس . وقرأ : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون[٢] » .

والحب فى الله لا يزعمه كل أحد ، ولا يصدَّق من كل دعى . فلابد أن يعرف الإنسان ربه أولا معرفة صحيحة ، ثم يغالى بهذه المعرفة حتى ترجحَ فى نفسه ما عداها . ثم ترقى هذه المعرفة إلى حب الله ذاته ، وإيثار العمل له . وعندئذ يصدق على المرء ، إذا أحب أو كره ، أنه أحب لله وكره لله .

أما أن يعجب المرء بموهبة عظيم أو يستلطف سيرة آخر فيحبه ، فذلك لون آخر من الصداقة غير ما نحن بإزائه .

قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يُحب فى الله ويُبغض فى الله ، وأن توقد نار عظيمة فيقعَ فيها أحب إليه من أن يشرك بالله شيئاً[٣] » .

ولما كان الحب فى الله خاتمة مراحلَ تسبقه فى مراقى الإيمان ، وكانت ثمرته لا تبدو إلا عند من أنضجتهم حرارة الاخلاص ، كان فيض هذا الحب دليل كمال ونقاء ، يستحقان أجل الجزاء .

قال رسول الله ﷺ : « ما من رجلين تحابا فى الله بظهر الغيب إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبا لصاحبه[٤] » .

---

(١) أحمد (٢) أبو داود (٣) مسلم (٤) الطبرانى

وكلا الأخوين المتحابين فى حماية الله وكنفه . روى رسول الله ﷺ عن الله عز وجل قال : « قد حَقّت محبتى للذين يتحابون من أجلى . وقد حَقّت محبتى للذين يتزاورون من أجلى . وقد حقت محبتى للذين يتباذلون من أجلى . وقد حقت محبتى للذين يتصادقون من أجلى (١) » .

* * *

وأثر الصديق فى صديقه عميق . ومن ثم كان لزاماً على المرء أن ينتقى إخوانه ، وأن يبلُوَ حقائقهم حتى يطمئن إلى معدنها .

قال رسول الله ﷺ : « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم إلى من يخالل (٢) » .

فإن كانوا رجالا يعينونه على أداء الواجب وحفظ الحقوق ويحجزونه عن السوء واقتراف الحرام ، فهم قرناء الخير ، الذين يجب أن يستمسك بهم ، ويحرص على مودتهم . وإلا فليحذر الانخداع بمن يزينون له طرق الغواية أو يسترسلون معه فى أسباب اللغو واللهو .

إن الصديق العظيم قد يقود صديقه إلى النجاح فى الدنيا والفلاح فى الأخرى . أما الصديق الغبى المفتون فهو شؤم على صاحبه . وكم من غِرّ قرع سن الندم على هذه الصحبة السيئة ، لأنها وضعته على شفا جُرُف هار ، فانهار به فى نار جهنم .

قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۞ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۞ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ (٣)

إن الطبع يسرق من الطبع . وما أسرع أن يسير الإنسان فى الاتجاه الذى يهواه صاحبه ، وللعدوى قانونها الذى يسرى فى الأخلاق كما يسرى فى الأجسام . بل

(١) أحمد والطبرانى (٢) أبو داود (٣) الفرقان ٢٧ - ٢٩

إن الروح الذى يسود المجلس قد يكون مصدره من شخص قوىّ ، يغمر من حوله بفيض مما يتفجر من باطنه .

وقد شوهد أن عدوى السيئات أشد سريانا وأقوى فتكا من عدوى الحسنات . ففى أحيان كثيرة تنتقل عدوى التدخين من المصاب بها إلى البرىء منها . ويندر أن يقع العكس .

وتقديراً لهذه الآثار ، وحماية للخلق الحسن والعادات الكريمة أمر رسول الله بتخير الجليس ، فقال : « مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شىء أصابك من ريحه . و مثل الجليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه(١) » .

فإن كانت تلك حال الجليس الذى قد تجتمع به فى لقاء عابر ، فى ساعة يسيرة من ليل أو نهار . فكيف بك مع صاحب العمر الذى يخالطك فى السراء والضراء ؟ . إن صداقة الأذكياء الأتقياء قد ترفع إلى القمة . أما صداقة السفهاء البُله فهى منزلق سريع إلى الحضيض .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ * هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ (٢)

إن الصداقة يجب أن تعتمد على قوة العقائد وسمو الأعمال . وجبر من يستديم المرء عشرتهم ، ويستبقى للدنيا والآخرة مودتهم ، أولئك الذين عناهم الأثر « من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته » .

وإذا نشأت الصداقة لله فلن تبقى إلا بطاعته ، ولن تزكُوَ إلا ببعد الصديقين

(١) أبو داود (٢) الجاثية ١٩ : ٢٠

معاً عن النفاق والفساد فإذا تسربت المعصية إلى سيرة أحدهما أو سيرتهما ، تغيرت القلوب وغاض الحب :

وفى الحديث : « .. والذى نفسى بيده ما توادَّ اثنان فيفُرَّق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما » .

من أجل ذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ يجعلون من التواصى بالحق والتعاون على الخير سياجاً يحفظ ما بينهم من ود ، ويقربهم من غفران الله ورضوانه :

عن أبى قلابة قال : « التقى رجلان فى السوق فقال أحدهما للآخر : تعال نستغفر الله فى غفلة الناس ! ففعلا ، فمات أحدهما . فلقيه الآخر فى النوم . فقال : علمت أن الله غفر لنا عشية التقينا فى السوق(١) » .

وعن أنس بن مالك : كان عبدالله بن رواحة إذا لقى الرجل من أصحاب رسول الله قال : تعال نؤمن بربنا ساعة(٢) ، فقال ذات يوم لرجل ! فغضب الرجل ، فجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فقال : يا رسول الله ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة ؟ فقال النبى : « يرحم الله ابن رواحة . إنه يحب المجالس التى تتباهى بها الملائكة(٣) » .

* * *

وينبغى أن يتعارف الأصدقاء حتى يكون تواصلهم عن بينة ، وأن يذكر أحدهم للآخر ما يكنه له من إعزاز وحب :

قال رسول الله : « إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره أنه يحبه(٤) » . وعن أنس : كان رجل عند النبى ﷺ ، فمر رجل فقال يا رسول الله إنى أحب هذا . قال : أعْلَمْتَهُ ؟ قال : لا . قال : فأعلمه . فلحقه ، فقال : إنى أحبك فى الله . فقال : أحبك الذى أحببتنى له(٥) » .

(١) ابن أبى الدنيا (٢) يعنى تذكره (٣) أحمد والطبرانى (٤) أحمد (٥) أبو داود

وقال رسول الله ﷺ : « إذا آخى الرجل الرجل فليسأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو ؟ فإنه أوصل للمودة(١) » .

ولاشك أن لتجانس المِزاج والتفكير مدخلاً كبيراً فى تأسيس الصداقات وتوثيق الأواصر ، وقد قيل : « رب أخ لك لم تلده أمك » . فقد يلتقى المرء فى زحام الحياة بمن يحس سرعة التجاوب معه والانجذاب إليه . وكأنما سبقت المعرفة به من سنين .

وهذا مصداق الحديث : « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف(٢) » .

لكن هذه العاطفة يجب أن يحكمها سلطان العقيدة ، ونظامها ، هذا السلطان الذى يستوحيه المؤمن فى اتجاهات قلبه كلها ، فيجعله يحب فى الله من لم يطالع لهم وجهاً ، لبعد الشقة أو لسبق الزمن . ويكره كذلك من لم يخالطهم فى حضر أو سفر ، لا لشىء إلا لأنه يودّ الأخيار ويكره الأشرار . واتجاهات القلب على هذا النحو الخالص ترفع صاحبها درجات فوق منزلته .

عن أبى ذر قلت : « يا رسول الله ، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم . قال : أنت يا أبا ذر مع من أحببت(٣) » .

ومن سنن الإسلام فى الصداقة التزاور . ويجب أن يكون خالياً من كل غرض خالصاً لوجه الله .

عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ : « أن رجلا زار أخاً له فى قرية فأرصد الله تعالى على مَدْرَجَته ملكا ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لى فى هذه القرية . قال : هل لك عليه من نعمة تربها . قال : لا . غير أنى أحببته فى الله تعالى . . قال : فإنى رسول الله إليكَ بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه(٤) » .

إن هذه الخطوات غالية ، إنها كخطا المجاهدين فى سبيل الله تحظى بأجلّ الثواب .

---

(١) الترمذى (٢) البخارى (٣) الترمذى (٤) البخارى

قال رسول الله ﷺ : « من عاد مريضاً ، أو زار أخاً له فى الله ، ناداه منادٍ : بأن طبت . وطاب ممشاك ، وتبوأت من الجنة منزلا (١) » .

وقال : « ما من عبد أتى أخاه يزوره فى الله إلا ناداه مُنادٍ من السماء أن طبت وطابت لك الجنة ، وإلا قال الله فى ملكوت عرشه : عبدى زار فىَّ وعلىّ قراه . فلم يرض له بثواب دون الجنة (٢) » .

والمسلم ، وإن كان يحب النفع للناس كافة ، فهو لنفع أصدقائه أحب ، ولما يصلهم من خير أفرح . ولا بأس إن وجد فضلا أن يذكر منه أصحابه :

﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٣)

وقد استحب رسول الله تبادل الهدايا بين الأصدقاء فقال : « تَهَادوْا فإن الهدية تُذهب وَحَر (٤) الصدر (٥) » .

وعن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها (٦) » .

على أن هذا الأدب العالى إذا خرج به التكلف عن حدوده أصبح مكروهاً ، فإن الإسلام قام على محاربة التصنع ، وإشاعة البساطة ، وكل مسلك ينطوى على الإحراج والمداهنة فالإسلام منه برىء . إنما يهدف الإسلام إلى إحاطة الصداقة بألوان من المجاملة التى تحسن مظهرها بعد أن يطمئن إلى سلامة جوهرها ، وأن يجعل منها وسيلة لتيسير الحياة وتخفيف متاعبها « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره (٧) » .

إن الإسلام أباح للشخص أن يأكل من طعام صديقه كما يأكل من طعام والديه وإخوته والأقربين منه : ﴿ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ ﴾

---

(١) أبو داود (٢) مسلم (٣) البقرة ٢٣٧ (٤) وحر الصدر : غشه ووسواسه
(٥) الترمذى (٦) البزار (٧) الحاكم .

إلى أن قال : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ (١)

ولا غرو ، فعقد الصداقة كبير القيمة جليل الأثر حتى إنه ليكون مظنة النجدة فى الأزمات الطاحنة .

ولو كانت هذه الأزمات النجاة من عذاب جهنم !!

قال تعالى فى وصف حال المشركين حين يقاسون العذاب :

﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ (٢)

ولما يرتبط بهذه الصداقات من حقوق عظام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقى (٣) » .

وقلت : أخ !! قالوا : أخ من قرابة ؟ فقلت لهم : إن الشُّكُولَ أقاربُ
صديقى فى حزمى وعزمى ومذهبى وإن باعدتنا فى الأصول المناسبُ

العـــزة

الكبرياء على العباد صفة رب العباد ، الذى خلق فسوّى ، والذى قدَّر فهدى ، والذى إذا ظهر قهر ، وإذا تجلى طاشت لأنوار جلاله ألباب البشر :

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٤)

وذلة العباد لربهم ذلة بالحق لا بالباطل . فإن الخلق والأمر والغنى والملك له وحده . ومصاير العباد رهن مشيئته وطوع إرادته . وهم إنما يكونون فى أزكى أحوالهم ساعة تعنو جباههم لرب العزة فى السجود الخاضع الطويل . عندئذ يعرفون وضعهم ويلزمون حدّهم ، ويعطون الخالق الكبير حقه الذى لا مرية فيه ولا عدوان فى تقريره . .

(١) النور : ٦١
(٢) الشعراء : ٩٧ - ١٠١
(٣) أبو داود
(٤) الجاثية . ٣٦ . ٣٧

أما ذلة العبد لعبد مثله فباطل لا ريب . والمتكبر هنا متطاول مبطل يزعم لنفسه ما ليس لها . والوضيع المستعبد جاهل بقدره ، تحمل من الأوزار ما لا يطيق . وقد حرم الاسلام الكبر ، وحرم الذل ، وأوجب العزة . .

قال رسول الله ﷺ : « من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كبه الله لوجهه فى النار (١) » .

وقال : « بينما رجل يمشى فى حلة ، تعجبه نفسه ، مرجل رأسه ، يختال فى مشيته إذ خسف الله به ، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة »(٢) .

ذلك أن الكبر وصف الله . ولا ينبغى لبشر أن ينازع الله وصفه المستحق له . وتكبر الناس إنما يعنى جملة من الخصال الخسيسة ، فى طليعتها جحد الحق وجهل الواقع ، وسوء العشرة ، وتجاوز القدر ، وتحقير الفضل ، إلى غير ذلك . .

وقد حرم الإسلام على المسلم أن يهون ، أو يستذل ، أو يستضعف ، ورمى فى قلبه القلق والتبرم بكل وضع يخدش كرامته ويجرح مكانته .

روى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « من أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه . ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فإنما يشكو الله تعالى . ومن تضعضع لغنى لينال مما فى يديه أسخط الله ، ومن أعطى القرآن فدخل النار ، فأبعده الله (٣) » .

وفى رواية : « من جلس إلى غنى فتضعضع له ، لدنيا تصيبه ، ذهب ثلثا دينه ، ودخل النار » .

وهذا الحديث يستنكر الضراعة التى تظهر على بعض الناس حين يؤزمون ، فيبكون

---

(١) أحمد . (٢) البخارى

(٣) الطبرانى

ما فقدوا من حطام ، ويصيحون بالخلق طالبين النجدة ، ويتمرغون فى تراب الأغنياء انتظار عرض يفرضونه لهم أو يقرضونه إياهم .

والتألم من الحرمان ليس ضعة ، ولكن تحول الحرمان إلى هوان هو الذى يستنكره الإسلام . فقد مضت سنة الرجولة من قديم أن يتحامل الجريح على نفسه حتى يشفى فيستأنف المسير بعزم ، لا أن يخور ، ثم يتحول إلى كسيح ، ثم ينتظر الحاملين . وفى معنى الحديث يقول الشاعر :

إنى لأستغنى فما أُبطرُ الغنى وأعرض ميسورى على مُبتغى قرضى

وأُعسِر أحيانًا فتشتد عسرتى وأدرِك ميسور الغنى ومعى عِرْضى

وما نالها - حتى تجلت وأسفرت - أخو ثقة منى بِقَرْضٍ ولا فرض

يعنى أنه يتماسك على ما به من ضائقة حتى تتجلى ، دون أن يَذِل بها لأحد ولو كان أخا ثقة !!

وفى الحديث : « من أعطى الذلة من نفسه طائعًا غير مكره فليس منا » .

والإسلام يدع المؤمن مستقرا فى المكان الذى يُنبت العز ويهب الحرية الكاملة ، ويجب على المؤمن أن يوفر هذه المعانى فى بيئته ، فإن استحال عليه ذلك فليتحول عن دار الهوان ولينشد الكرامة فى أى مكان .

وفى ذلك يقول الله عز وجل :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (١)

وقد عذر الله العجزة من الرجال الذين يفقدون القدرة على الانتقال ولا يجدون

---

(١) النساء ٩٧

وسيلة للنجاة ، وضم إليهم النساء والأطفال فقال : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (١)، **وهذا التعبير يشعر بكراهية الاسلام لاحتمال الهوان ، ويستنهض الهمم حتى تبذل الجهد كله فى التخلص منه .**

إن اعتزاز المسلم بنفسه ودينه وربه هو كبرياء إيمانه ، وكبرياء الإيمان غير كبرياء الطغيان ، إنها أنفة المؤمن أن يصغر لسلطان ، أو يتَّضع فى مكان ، أو يكون ذنبًا لإنسان . هى كبرياء فيها من التمرد بقدر ما فيها من الاستكانة ، وفيها من التعالى بقدر ما فيها من التضامن : فيها الترفع على مغريات الأرض ومزاعم الناس وأباطيل الحياة ، وفيها الانخفاض إلى خدمة المسلمين والتبسط معهم ، واحترام الحق الذى يجمعه بهم ، فيها إتيان البيوت من أبوابها ، وطلاب العظمة من أصدق سبلها .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ (٢)

* * *

العزة والإباء والكرامة من أبرز الخلال التى نادى الإسلام بها ، وغرسها فى أنحاء المجتمع وتعهد نماءها بما شرع من عقائد وسن من تعاليم ، وإليها يشير عمر بن الخطاب بقوله : أحب من الرجل إذا سيم خطة خسف أن يقول بملء فيه : لا .

علامَ يصيح المؤذن خمس مرات كل يوم مناديًا بتكبير الله وحده فى بداية الأذان ونهايته ؟ ولماذا يتكرر هذا التكبير فيكتنف حركات الصلاة كلها من قيام وقعود ؟

ذلك لكيما يوقن المسلم يقينًا لا يهتز ولا يزيغ ، أن كل متكبر بعد الله فهو

(١) النساء ٩٨ - ٩٩ .
(٢) فاطر : ١٠ .

صغير ، وإن كل متعاظم بعد الله فهو حقير ، فكأنما وُكِل إلى هذا النداء أن يرد الناس إلى الصواب كلما أطاشتهم الدنيا ، وضللتهم متاهاتها الطامسة .

وتوكيدًا لهذه المعانى اختار الله عزَّ وجل اسْمَى العظيم والأعلى من أسمائه الحسنى ليكررها المسلم فى أثناء ركوعه وسجوده ، فتُشربَ روحه إفراد رب العالمين بالعظمة والعلوّ . .

والعزة حق يقابله واجب ، وليس يسوغ لامرىء أن يطالب بما له من حق حتى يؤدى ما عليه من واجب ، فإذا كلفت بعمل مَّا فأديته على أصح وجوهه فلا سبيل لأحد عليك ، ولا يستطيع مَن فوقك ولا من دونك مرتبه أن يعرض لك بلفظ محرج ، وتستطيع أن تحتفظ بعزة نفسك أمام رؤسائك حين تَسد الثغرات التى ينفذ منها إليك اللوم والتقريع . إن أَلدَّ أعدائك حينئذ يتهيبك .

قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (١)

وارتكاب الآثام سبيل السقوط والأهانة ، ومزلقة إلى خزى الفرد والجماعة .

وقد بيّن الله أن الهزيمة فى غزوة أحد سببها ما ارتكبه البعض من مخالفات .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (٢)

فالإسلام عندما أوصى المسلم بالعزة هداه إلى أسبابها ، ويسّر له وسائلها ، وأفهمه أن الكرامة فى التقوى ، وأن السموَّ فى العبادة ، وأن العزة فى طاعة الله

(١) يونس ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) آل عمران : ١٥٥ .

والمؤمن الذى يعلم ذلك ويعمل به يجب أن يأخذ نصيبه كاملا غير منقوص فى الحياة الرفيعة المجيدة . فإذا اعتدى عليه أحد أو طمع فيه باغ كان انتصابه للدفاع عن نفسه جهادًا فى سبيل الله . وليس ذيادًا عن الحق الشخصى فقط ، بل إقرارًا للحقوق العامة والمثل العالية .

ومن ثم فإن موت المسلم دون حقه شهادة :

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالى(١) ؟ قال : لا تعطه مالك ! قال : أرأيت إن قاتلنى ؟ قال : قاتله ! قال : أرأيت إن قتلنى ؟ قال : فأنت شهيد ! قال أرأيت إن قتلته ؟ قال : هو فى النار .(٢)

نعم : فمن عزة المؤمن ألا يكون مستباحًا لكل طامع ، أو غرضًا لكل هاجم . بل عليه أن يستميت دون نفسه وعرضه . وماله وأهله . وإن أريقت فى ذلك دماء ؛ فإن هذا رخيص لصيانة الشرف الرفيع .

وإنما شرع الله الثأر من المظالم ، إعزازًا لجانب المهضوم وإيهانا لجانب العادى فعلّق المسلم بحقوقه وملأ بها يديه ، وأغراه أن يتشبث بها فلا ينزل عنها إلا عفوًا كريمًا ، أو سماحة تزيده عزا على عز . .

وقد لقنه أولا دروس الإيمان وشرائع الكمال ، ووقفه على نهج الفضل والرفعة بقوله : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ * وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٣)

بعد هذه التعاليم التى توفر لأصحابها العزة الكاملة ، فرادى وجماعات قال :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ * وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (٤)

---

(١) أى اغتصابه . (٢)مسلم . (٣) الشورى ٣٦ ـ ٣٨ . (٤) الشورى : ٣٩ ، ٤٠ .

فمن خُلق المسلم أن يغفر إذا استغضبه من دونه ، ومن خُلقه كذلك أن يؤدب المجترئين عليه ، حتى يَفُل حدهم ويَكسر شوكتهم . وهو فى هذه الحال مكلف أن يبرز قوته حتى يرهِب المجرمين ، وله وهو فى هذا المكان العالى ، أن يعفو ، فإن عفو المقتدر ، بعد أن تنتفى علائم الضعف ، لون آخر من تأديب المجرمين وكرامة المؤمنين .

فالخُلق الذى تضمنته الآيات الأخيرة ، يغاير الخلق الذى تضمنته الآيات الأولى .

الأولى تعنى التجاوز عن هفوات العاثرين . ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾(١) أما الأخرى فتقدم الجانى إلى القضاء ، وتصدر عليه العقاب ، وتمكن سيف القصاص من عنقه . حتى إذا انكسَرت سطوته واختفت جرأته ، جاء الفضل ، بعد استطالة العدل ! فكان زيادة فى انقماع المستخفين وزيادة فى عزة المسلم .

* * *

ولما كان فى النفس الإنسانية شيء من الضعف أو القلق ، ربما حملها على الخنوع لمن يملك الفصل فى أمورها وقضاء مطالبها ، وربما انزلق بها إلى مواقف تجافى الكرامة ، لذلك علمنا رسول الله ألا نستكين فى هذه الأمور وأن تبقى جباهنا عالية ونحن نسعى إلى ما نبغى فقال ، « أطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بالمقادير » .

وبين لنا أن البشر ولو اجتمعوا بأسرهم أذلُّ من أن يمنعوا شيئًا أعطاه الله ، وأقلّ من أن يعطوا شيئًا منعه الله ، ومن ثم فعلى المسلم أن يرد مصاير الأمور إلى مدبرها الأعظم . وأن يجعل فيه الثقة وعليه المعوّل .

وليكبر دينه فلا يذلّ به ، وليملك نفسه فلا يعطى فرصة لأحمق كيما يستعلى ويستكبر ، فإن قرارًا مّا لن يتم إلا إذا أمضاه الله .

قال تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢)

(١) الشورى ٣٧ . (٢) فاطر : ٢ .

ومظهر السلطة الذى يمنحه الله طائفة من العباد لا يغير قيد شعرة من إرادة القاهر فوق العباد . إننا فى أحيان كثيرة نحس أننا مغلوبون على أمرنا لكن هذا الإحساس منتف فى حق الله الذى لا يمكن أن يُعجزه شيء :

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

فالأدنى إلى الحق ، والأقرب إلى النفع ، والأرشد فى علاج المشاكل أن يظل المسلم منتصب القامة مرتفع الهامة ، لا تدنيه حاجة ولا تطويه شدة يجأر إلى مولاه بالدعاء ويكشف انكساره لربه وحده ، فلا يبدى صفحته لمخلوق ، فاقها قول الله له : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢)

وقد علمت كيف علم الرسول أصحابه الاستغناء والاكتفاء ، وفَطَم النفوس عن أن تسأل الناس شيئًا حتى التافه الذى لا يضير ، فكان أحدهم ينزل عن ناقته ليلتقط سوطه ، ويرفض أن يكلف أحدًا مناولته إياه .

* * *

إن الناس يذلون أنفسهم ، يقبلون الدنية فى دينهم ودنياهم ، لواحد من أمرين : إما أن يصابوا فى أرزاقهم ، أو فى آجالهم . والغريب أن الله قطع سلطان البشر على الآجال والأرزاق جميعًا ، فليس لأحد إليهما من سبيل : فالناس فى الحقيقة يستذلهم وهم نشأ من أنفس مريضة بالحرص على الحياة والخوف على القوت . والناس من خوف الذل فى ذل ، ومن خوف الفقر فى فقر . مع أن الإسلام بنى حقيقة التوحيد على الصلة بالله تبارك وتعالى فيما ينوب ويرُوع واليأس من الناس فيما لا يملكون فيه على الله بَتًّا ، ولا يقدمون نفعًا ولا ضرًا :

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ *

(١) يوسف : ٢١ .

(٢) يونس . ١٠٧ .

أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ (١)

ويقول ابن القيم فى مناجاة الله :

يا من ألــوذ بــه فيمــا أؤملــه !   ومن أعــوذ بــه ممــا أحــاذره !

لا يجبـر النـاس عـظمًا أنـت كاسره   ولا يهيضون عظمًا أنت جـابره !

ذلكم هو التوحيد الكامل . وذلكم ما يجب أن يتسشفى به أولئـك الضـعاف المساكين ، الذين يريقون ماء وجـوههم فى التســكع على الأبــواب ، والتمســح بالثياب ، والزلفى على الأعتاب .

يريد الأسلام ليجتث عوامل القلق فى النفوس وأن يكشف عنهـا الضـيق حتـى تتنفس فى جو طليق ، فيقول رسول الله : « إن الرزق ليـطلب العبـد كمـا يـطلبه أجله (٢) » .

إنه يقول ذلك لا ليقعد الناس عن التكسب الواجب : فهذا ظـن الجهلـة . لكنه يقول ذلك ليُجمِل الناس فى الطلب ، ويخففوا من الإلحـاح الشـائن والتملـق المعيب ، وذلك سر القسم :

﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۞ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ (٣)

عن ابن مسعود أن رسول الله قال : « ليس مـن عمـل يقـرِّب إلى الجنـة إلا أمرتكم به ، ولا عمل يقرب إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه ، فـلا يسـتبطئن أحـد منكم رزقه . فإن جبريل ألقى فى روعى أن احدًا منكم لن يخرج مـن الـدنيا حتـى يستكمل رزقه . فاتقوا الله أيها الناس وأجملوا فى الطلب . فإن استبطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله ؛ فإن الله لا ينال فضله بمعصيته (٤) » .

بهذه الوصايا الحارة رفع الإسلام قدر المستمسك بـه ، وجعلـه ينقـل أقـدامه

---

(١) الملك : ٢٠ ـ ٢١

(٢) الطبرانى .

(٣) الذاريات . ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) الحاكم .

على الأرض مكينًا كريمًا . ثم أوضح له أن هؤلاء الذين نتردد عليهم فى حاجاتنا إنما هم ممر للعطاء ، أو مظهر للمنع :

روى عن عبدالله بن مسعود أن النبى ﷺ قال : « لا ترضين أحدًا بسخط الله . ولا تحمدن أحدًا على فضل الله ، ولا تذمنّ أحدًا على ما لم يؤتك الله ، فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص ، ولا ترده عنك كراهية كاره ، وإن الله بقسطه وعدله جعل الرَّوْح والفرج فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى السخط (١) » .

وهذا الحديث لا يعنى جحود الصنيع ، ولا ازدراء الفضل لمن أسدوا الفضل ، فإن الحديث يقول : « من لا يشكر الناس لا يشكر الله(٢) » .

ولكن معناه ، ألا يستَعبد المرء بمنة وصَلته حتى تداس كرامته ! فإن المنة لله أسبق ، ولا يجوز للمعطى أن يقصد بهبته شراء الأنفس والتصرف فيها كما يحب ، فإن هذا يحبط أجره . وكان ذلك القصد ـ ولايزال ـ شأن الذين يؤتون لغير الله ، ولذلك تأفف الأحرار من عطاياهم :

لاه ابن عمّك ، لا أفضلتَ فى نسب ... عنى ولا أنت ديانى فتخْزونى(٣)

أما الذين يعطون لله ، ويؤدون حقوق العباد ابتغاء وجهه . فقد قال رسول الله فى بيان مكافآتهم : « من أُعطَى عطاء فليجز به إن وجد ، فإن لم يجد فليثن به ، فإن من أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره (٤) » .

* * *

أما تهيُّب الموت وتحمل العار طلبًا للبقاء فى الدنيا على أية صورة فذلك حُمق ، فإن الفرار لا يطيل أجل والإقدامَ لا ينقص عمرا ، كيف ؟

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٥)

إن القضاء يصيب العزيز وله أجره ، ويصيب الذليل وعليه وزره ، فكن عزيزا ما دام لن يفلت من محتوم القضاء إنسان .

---

(١) الطبرانى . (٢) الترمذى . (٣) يقال خزاه . قهره وملكه .

(٤) أبو داود . (٥) الأعراف : ٣٤ .

الرحمـــة

الرحمة كمال فى الطبيعة يجعل المرء يـرقّ لآلام الخلـق ويسـعى لإزالتهـا ، ويأسى لأخطائهم فيتمنى لهم الهدى . هى كمال فى الطبيعة لأن تبلد الحس يهـوى بالانسان إلى منزلة الحيوان ويسلبه أفضل ما فيه ، وهـو العـاطفة الحيـة النـابضة بالحب والرأفة ، بل إن الحيوان قد تجيش فيه مشاعر مبهمة تَعطفه على ذراريـه ، ومن ثم كانت القسوة إرتكاساً بالفطرة إلى منزلة البهـائم ، بـل إلى منـازل الجمـاد الذى لا يعى ولا يهتز .

والرحمة فى أفقها الأعلى وامتدادها المطلق صفة المولى تباركت أسماؤه ! فـإن رحمته شملت الوجود وعمت الملكوت . فحيثما أشرق شعاع مـن علمـه المحيـط بكل شىء أشرق معه شعاع للرحمة الغامرة ، ولذلك كان من صلاة الملائكة له :

﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (١)

وعن عمر بن الخطاب : قُدِم على رسول الله بسبى فـإذا امـرأة مـن السـبى تسعى قد تحلب ثديها ، إذا وجدت صبيا فى السـبى أخـذته فـألزقته ببـطنها فأرضعته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ قلنا : لا والله - وهى تقدر على أن لا تطرحه ! - قال : فـالله تعـالى أرحم بعباده من هذه بولدها (٢) .

وكثير من أسماء الله الحسنى ينبع من معانى الرحمة والكرم والفضل والعفـو . وقد جاء فى الحديث القدسى : « إن رحمتى تغلـب غضـبى (٣) » ، أى أن تجـاوزه عن خطايا البشر يسبق اقتصاصه منهم وسـخطه عليهـم وبـذلك كان أفضـل الرحماء :

﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٤)

ما ترى فى الأرض من تواد وبشاشة وتعاطف وبر أثر من رحمـة الله التـى أودع

---

(١) غافر ٧ (٢) البخارى (٣) مسلم (٤) المؤمنون ١١٨

جزءاً منها فى قلوب الخلائق ؛ فأرقّ الناس أفئدة أوفرهم نصيباً من هذه الرحمة وأرهفهم إحساساً بحياة الضعفاء .

أما غلاظ الأكباد من الجبارين والكازّين والمستكبرين فهم فى الدرْك الأسفل من النار . وفى الحديث : « .. إن أبعد الناس من الله تعالى القاسى القلب(١) » .

وكان رسول الله يعدُّ جمود العين واستغلاق القلب من الشقاء .

ولقد أراد الله أن يمتنَّ على العالم برجل يمسح آلامه ، ويخفف أحزانه ، ويرثى لخطاياه ، ويستميت فى هدايته ، ويأخذ بناصر الضعيف ، ويقاتل دونه قتال الأم عن صغارها ، ويخضد شوكة القوى حتى يرده إنساناً سليم الفطرة لا يضْرَى ولا يطغى .. فأرسل « محمداً » عليه الصلاة والسلام ، وسكب فى قلبه من العلم والحلم ، وفى خُلقه من الإيناس والبر ، وفى طبعه من السهولة والرفق ، وفى يده من السخاوة والندى ، ما جعله أزكى عباد الله رحمة ، وأوسعهم عاطفة ، وأرحبهم صدراً .

ولذلك قال فيه : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ .(٢)

وقد لازمته هذه الفضائل العذبة فى أعصب الساعات عندما حاول المشركون فى « أحد » اغتياله ، وألجأوه إلى حفرة ليُكبَّ فيها : ونظر إلى زهرة أصحابه فوجدهم مضرجين بدمائهم على الثرى ، ونظر إليه بقية أصحابه فإذا خدُّه قد شقَّ وسنُّه قد سقطت .. فى هذه الأزمة قيل له : ادْعُ على المشركين ؛ فغلبه رفقه وجعلت نفسه العالية تستميح لأعدائه العذر : فكان دعاؤه . « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » .

إن القلوب الكبيرة قلما تستجيشها دوافع القسوة فهى أبدا إلى الصفح والحنان أدنى منها إلى الحفيظة والاضطغان .

إن القسوة فى خُلق إنسان دليل نقص كبير ، وفى تاريخ أمة دليل فساد

---

(١) الترمذى

(٢) آل عمران : ١٥٩

خطير .. فلا عجب إذا حذَّر الإسلام منها واعتبرها علة الفسق عن أمر الله ، وسر الشرود عن صراطه المستقيم :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ (١)

وقد أمر الإسلام بالتراحم العام . وجعله من دلائل الإيمان الكامل ، فالمسلم يلقى الناس قاطبة وفى قلبه لهم عطف مذخور وبر مكنون ، فهو يوسع لهم ويخفف عنهم جهد ما يستطيع :

قال رسول الله ﷺ : « لن تؤمنوا حتى ترحموا ، قالوا : يا رسول الله ، كلنا رحيم قال إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ، ولكنها رحمة العامة(٢)» .

أجل ، فإن الرجل قد يهَشُّ لأصدقائه حين يلقاهم ، وقد يرق لأولاده حين يراهم ، وذلك أمر يشيع بين الكثير . بيد أن المفروض فى المؤمن أن تكون دائرة رحمته أوسع ، فهو يبدى بشاشته ، ويظهر مودته ورحمته لعامة من يلقى ..

وقد جاءت الأحاديث تترى حاثة على هذه الرحمة الشاملة . فقال رسول الله ﷺ : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله(٣)» زاد فى رواية « ومن لا يغفر لا يغفر له » .

وقال : « من لا يرحم مَنْ فى الأرض لا يرحمه مَنْ فى السماء (٤) » .

وقال : « طوبى لمن تواضع فى غير منقصة ، وذل فى نفسه من غير مسألة ، وأنفق مالا جمعه فى غير معصية ، ورحم أهل الذلة والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة (٥) » .

والذلة فى غير مسكنة تعنى السكينة للمؤمنين والليونة معهم ، وقد وصف الله المجتمع المسلم أنه متماسك بهذا العطف المتبادل فقال عن أهله :

---

(١) الحديد ١٦ (٢) الطبرانى (٣) البخارى (٤ و ٥) الطبرانى

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (١)

وقال : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢)

وقد تسأل : ما معنى ذكر الشدة فى سياق الحديث عن الرحمة ؟ والحق أن الإسلام . يوصى بالرحمة العامة لا يستثنى منها إنساناً ولا دابة ولا طيراً . والنصوص التى سلفت تؤيد هذا الشمول . بيد أن هناك من الناس والدواب من يكون مصدر خطر على غيره ومثار رعب وفزع ، فيكون من رعاية الصالح العام للجماعة كلها أن يحبس شره ، ويحاصر ضرره . وقد تكون الشدة معة رحمة به كذلك وتقويماً لعوجه .

والإسلام رسالة خير وسلام وعطف على البشر كلهم . وقد قال الله لرسوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٣) وسور القرآن الكريم مفتتحة كلها بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » .

لكن ذئاب البشر أبوا إلا اعتراض الرحمة المرسلة ؛ ووضع الجنادل فى مجراها حتى تنقطع عن الناس مواردها ، فيهلكوا بعيداً عنها فى أودية الحيرَة والجهالة . فلم يكن به من إزالة هذه العوائق ، والاغلاظ لأصحابها ويوم ينقطع تعرضهم وتحديهم تشملهم هذه الرحمة الجامعة فليس فى هذه الرحمة قصور ، وإنما القصور فيمن حرم نفسه منها ألست ترى أن رحمة الله وسعت كل شىء ! ومع ذلك فلن ينالها مشرك ولا جحود : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ (٤)

كما تقول : هذه القاعة تسع ألف جالس . ولكن لا يؤذن بدخولها إلا لمن يحمل بطاقة ، فاذا رفض البعض حمل البطاقة المعهودة فحرموا من الدخول وبقوا فى الخارج فليس ذلك قدحاً فى سعة القاعة .

ومثل ذلك قول رسول الله ﷺ : « كل أمتى يدخل الجنة إلا من أبى فقالوا : ومن يأبى ؟ قال : من أطاعنى دخل الجنة . ومن عصانى فقد أبى (٥) » .

---

(١) المائدة ٥٤ (٢) الفتح ٢٩ (٣) الأنبياء ١٠٧ (٤) الأعراف ١٥٦ ، ١٥٧ (٥) البخارى

وقد تأخذ الرحمة الحقة طابع القسوة وليست كذلك : إن الأطفال عندنا يساقون إلى المدارس كرهاً ، ويحفظون الدروس زجراً ، ولو تركوا وأهواءهم لقتلهم اللهو واللعب ولشبوا لا يحسنون صنعاً ، ولذلك قال الشاعر :

فَقسا ليزدجروا ومن يك راحماً ... فليقسُ أحياناً على من يرحم

والطبيب عندما يجرى بالجسم جراحة ، يستخدم مبضعة لتمزيق اللحم ، وقد يضطر لتهشيم العظام وبتر أعضاء ، وما يفعل ذلك إلا رحمة بالمريض !!

فليست الرحمة حناناً لا عقل معه ، أو شفقة تتنكر للعدل والنظام . كلا إنها عاطفة ترعى هذه الحقوق جميعاً ، إن منظر المشنوق وجسمه يتأرجح فى الهواء وعيناه تعشقان الضوء وتطلبان النجاة ، منظر قد يستدر العطف ، ولو أجيبت هذه العاطفة السريعة ، وأطلق سراح القاتل لامتلأت الأرض فوضى .. والرحمة الحقة فى كبت هذا الشعور .

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١)

إن القسوة التى استنكرها الإسلام جفاف فى النفس لا يرتبط بمنطق ولا عدالة ، إنها نزوة فاجرة تتشبع من الإساءة والإيذاء ، وتمتد مع الأثرة المجردة والهوى الأعمى .. أما الرحمة فهى أثر من الجمال الإلهى الباقى فى طبائع الناس يحدوهم إلى البر ، ويَهبُّ عليهم فى الأزمات الخانقة ريحاً بليلة ترطب الحياة وتنعش الصدور .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جعل الله الرحمة مائة جزء ، وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه (٢) » .

وفى رواية أخرى : « إن الله تعالى خلق - يوم خلق السموات والأرض - مائة رحمة كل رحمة طباقُ ما بين السماء والأرض فجعل منها فى الأرض رحمة

---

(١) البقرة ١٧٩

(٢) البخارى

واحدة ، فيها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضه على بعض[١] » .

وكما ينمى العقل بشتى المعارف فيزكو ، تنمى هذه الرحمة بشتى الأساليب لتتسع وتربو . . أما إذا تركت لتذْوى وتموت فقد أصبح صاحبها حطباً لجهنم :

عن أبى هريرة : سمعت الصادق المصدوق صاحب هذه الحجرة أبا القاسم ﷺ يقول : « لاتنزع الرحمة إلا من شقى [٢] » .

* * *

ونبه الإسلام إلى أن هناك أقواماً مخصوصين ينبغى أن يحْظوا بأضعاف من الرحمة والرعاية .

من هؤلاء ذوو الأرحام ، والرحم مشتقة من الرحمة فى مبناها ، فيجب أن تستقيم معها فى معناها .

قال رسول الله ﷺ : « الراحمون يرحمهم الله تعالى أرحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء ،الرحم شُجْنة [٣] من الرحمن ، من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله [٤] » .

وعلى المسلم أن يؤدى حقوق أقربائه وأن يقوّى بالمودة الدائمة صلات الدم القائمة .

وأجدر الناس بجميل بره أمنهم عليه وأولاهم به ، وهم والداه ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [٥]

ثم أولاده ، فعن البراء رضى الله عنه قال : « أتى أبو بكر عائشة وقد أصابتها الحمى فقال : كيف أنت يا بنية ، وقبل خدَّها[٦]» .

والمشاهد فى أجلاف الناس أن عواطفهم لا تأْخذ هذا الطابع من الرقة والحنو . ففى أخلاقهم وألفاظهم جفوة مستكرهة .

---

(١) مسلم (٢) أبو داود (٣) الشجنة . القرابة المشتبكة اشتباك العروق

(٤) الترمذى (٥) الإسراء ٢٤ (٦) البخارى

عن أبى هريرة : « قبل رسول الله الحسن أو الحسين بن علّى وعنده الأقرع ابن حابس التَميمى ، فقال الأقرع ، إن لى عشرة من الولد ما قبَّلت منهم أحداً قط ! فنظر إليه رسول الله وقال : « من لا يَرحم لا يُرحم » وفى رواية « أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك (١) »؟ .

وعن أنس : « دخلنا مع رسول الله على أبى سيف القيْن وكان ظئراً لإبراهيم ابن رسول الله ، فأخذ رسول الله ﷺ ابنه فقبله وشمه ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه ، فجعلت عَيْنَا رسول الله تذْرفان فقال ابن عوف : وأنت يا رسول الله ؟ - كأنه استغرب بكاءه - فقال : « يا ابن عوف إنها رحمة ، ثم أتبعها بأخرى ، فقال إن العين تدمع ، وإن القلب يخشع ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون (٢) » .

ولا يجوز للمسلم أن يوصد قلبه وبيته دون أقاربه ، وأن يَبُتَّ علائقهم ، فيحيا بعيداً عنهم ، لا يواسيهم فى ألم ولا يسدى إليهم عوناً ، إن هذه القطيعة تحرم الإنسان من بركة الله وتعرضه لسخطه :

عن أبى هريرة سمعت رسول الله يقول : « الرحمة شجْنة من الرحمن تقول : يارب إنى قطعت ! ياربّ إن أسيء إلَّى ! ياربّ إنى ظلمت ، يارب ، يارب فيجيبها : ألا ترضيْن أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك (٣) »؟ .

* * *

وممن تجب الرحمة بهم اليتامى ، فإن الإحسان إليهم والبر بهم وكفالة عيشهم وصيانة مستقبلهم من أزكى القربات بل إن العواطف المنحرفة تعتدل فى هذا المسلك وتلزم الجادة :

فعن أبى هريرة أن رجلا شكا إلى رسول الله قسوة قلبه فقال : « امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين (٤) » .

---

(١) البخارى (٢) مسلم (٣) أحمد (٤) أحمد .

وفى رواية : أن رجلا جاءه يشكو قسوة قلبه فقال له : « أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك ؟ ارحم اليتيم ، وامسح رأسه ، وأطعمه من طعامك ، يَلِنْ قلبك وتدرك حاجتك »(١) .

وذلك أن القلب يتبلد فى المجتمعات التى تضج بالمرح الدائم ، والتى تصبح وتمسى وهى لا ترى من الحياة غير آفاقها الزاهرة ، ونعمها الباهرة ، والمترفون إنما يتنكرون لآلام الجماهير ، لأن الملذات التى تُيَسَّر لهم تغلف أفئدتهم ، وتطمس بصائرهم ، فلا تجعلهم يشعرون بحاجة المحتاج وألم المتألم وحزن المحزون والناس إنما يرزقون الأفئدة النبيلة والمشاعر المرهفة ، عندما ينقلبون فى أحوال الحياة المختلفة ويَبلون مس السراء والضراء . . عندئذ يحسون بالوحشة مع اليتيم ، وبالفقدان مع الثكلى ، وبالتعبة مع البائس الفقير .

* * *

وتجمل الرحمة مع المرضى وذوى العاهات : فإن أولئك المصابين يستقبلون الحياة بوسائل منقوصة تعجزهم عن المسير فيها وإدراك لبانتهم منها وقد عذرهم الله عز وجل فلا يجوز أن تؤاخذهم بما أعفاهم الله منه .

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(٢)

والمريض شخص قيدته العلة ونغصه حر الداء وَمرُّ الدواء ، وهو فى صبره على أوجاعه قريب من الله حقيق برحمته ، وإذا كان مس الشوكة يكفر من سيئات المؤمن فما بالك بمن برحت به الأوصاب وأذاقته أشد العذاب ؟ إن ذلك يجعله بعين الله ! ولذلك يجب أن نحاذر من الإساءة إلى المرضى ، والاستهانة براحتهم ، فإن القسوة معهم جرُمٌ غليظ .

* * *

(١) الطبرانى (٢) الفتح ١٧

ومن مواطن الرحمة أن نحسن معاملة الخدم ، وأن نرفق معهم فيما نكلفهم من أعمال وأن نتجاوز عن هفواتهم ، وألا نحس سطوة التصرف فيهم فنبعث بتسخيرهم ، فإن الله إذا ملك أحدًا شيئًا فاستبد به وأساء ، سلبه ما ملك وأعد له سوء المنقلب .

عن أبى مسعود البدرى : كنت أضرب غلامًا لى بالسوط ، فسمعت صوتًا من خلفى أعلم أبا مسعود . فلم أفهم الصوت من الغضب ، فلما دنا منى إذا هو رسول الله ﷺ . فإذا هو يقول : « أعلم أبا مسعود أن الله أقدرُ عليك منك هذا الغلام . فقلت : يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى . فقال : أما لو لم تفعل للفحتك النار[١] » .

وقال رسول الله ﷺ : « حسن المَلكةِ نماء وسوء الخُلق شئوم[٢] » .

وجاءه رجل يسأله : كم أعفو عن الخادم ؟ قال ﷺ : « كل يوم سبعين مرة ! » .

إن هناك نساء ورجالا ينتهزون فرصة ضعف الخدم فيوقعون بهم ألوان الأذى وقد رهب الإسلام من هذه الفظاظة وتوعد عليها .

قال رسول الله ﷺ : « من ضرب سوطًا ظلمًا اقتُصَّ منه يوم القيامة[٣] »

* * *

ومن الرحمة المطلوبة الرفق بالحيوان . رأى عمر رضى الله عنه رجلا يسحب شاة برجلها ليذبحها فقال . ويلك قُدها إلى الموت قَودًا جميلا .

وقال رجل : يا رسول الله إنى لأرحمْ الشاة أن أذبحها ، فقال : « إن رَحِمتْها رحمك الله[٤] » .

والإسلام شديد المؤاخذة لمن تقسو قلوبهم على الحيوان ويستهينون بآلامه ، وقد بيَّن أن الإنسان على عظم قدره يدخل النار فى إساءة يرتكبها مع دابة عجماء .

قال رسول الله ﷺ : « دخلت امرأة النار فى هرَّة ربطتها فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض[٥] » .

---

(١) مسلم (٢) أبو داود (٣) البزار (٤) الحاكم (٥) البخارى .

كما بيَّنَ أن كبائر المعاصى تمحوها نزعة رحمة تغمر القلب ، ولو بإزاء كلب !.

قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج ، وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى ! فنزل البئر فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رَقِىَ فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له » . قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم لأجرًا . قال : « فى كل كبدٍ رَطبَة أجر » .

وفى رواية : أن امرأةً بغيًا رأت كلبًا فى يوم حار يُطيف ببئر ، قد أدْلع لسانه من العطش ، فنزعت لهُ موقها[١] فغفر لها به[٢] » .

لئن كانت الرحمة بكلب تغْفِر ذنوب البغايا ، فإن الرحمة بالبشر تصنع العجائب !.

العلم والعقل

طبيعة الإسلام تفرض على الأمة التى تعتنقه أن تكون أمة متعلمة ترتفع فيها نسبة المثقفين ، وتهبط أو تنعدم نسبة الجاهلين .

ذلك لأن حقائق هذا الدين - من أصول أو فروع - ليست طقوسًا تنقل بالوراثة ، أو تعاويذ تشيع بالايحاء ، وتنتشر بالايهام . كلا . إنها حقائق تستخرج من كتاب حكيم ، ومن سنة واعية ! وسبيل استخراجها لا يتوقف على القراءة المجردة ، بل لابد من أمة تتوافر فيها الأفهام الذكية والأساليب العالية ، والآداب الكريمة . ولاشك أن مدارسة مناهج الإسلام تخلق فى أى أمة تعنى بها جوا من الفقه التشريعى القائم على الأوامر والنواهى - أى بالحقوق والواجبات - وجوًّا من الآداب الاجتماعية الدقيقة المتعلقة بقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وجوًّا من البحث الصحيح والاجتهاد المخلص ، لمد رواق الإسلام على ما تفد به الأعصار من أقضية شتى وشئون متجددة .

(١) مُوقها : خفها   (٢) مسلم .

فإذا قلت هذه العناصر فى بيئة ما اضمحل أمر الإسلام وذبلت أغصانه كما تَبلى الشجرة الباسقة فى أرض ذهبَ خصبها وجف ماؤها .

وهناك بعد ذلك التفكير فى الكون اطرد الأمر به فى سور القرآن واعتبر الأساس الأول لاقامة إيمان ثابت وطيد . إن هذا التفكير هو الذى فتق الأذهان عن روائع الحضارة الحديثة ، ويسر للدنيا هذه الكشوف الجليلة لأسرار الوجود ، وسخر للناس ما لم يكونوا يحلمون به . ثم هناك أيضًا التوصية باتباع الحق وحده والبحث عنه مهما خفى ، واستنكار الظنون العائمة ، والنهى عن الجرى وراءها ووضع رقابة محكمة على السمع والبصر والفؤاد . إن هذا كفيل بإيجاد مجتمع بعيد عن الخرافات ميزه عن الأوهام والمساخرة لا مجتمع يفيض بالشعوذة تتركز فيه الأراجيف والترهات ، وتحكمه تقاليد غامضة ما أنزل الله بها من سلطان .

إن العلم للاسلام كالحياة للانسان ، ولن يجد هذا الدين مستقرًا له إلا عند أصحاب المعارف الناضجة والألباب الحصيفة .

ولأمر مّا يقول الله عنه : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(١) ويقول مصوّرا أحاديث أهل جهنم :

﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (٢)

ويقول فيمن طمست مشاعرهم وماتت مواهبهم واستغلقت أذهانهم :

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٣)

إن الله شرف الحياة بالإسلام بعد ما بلغت رشدها ونمت قواها واستعدت لأن تتلقى منه أزكى التعاليم وأرقاها فكان جميعه ملائمًا لتطور الحياة نحو الكمال ، بل كان هو شوطًا واسعًا فى الخطو بها نحو الرقى المادى والأدبى .

---

(١) ابراهيم ٥٢ (٢) الملك . ١٠ (٣) البقرة : ١٧١

وأنت إذا نظرت إلى الصلاة - وهى العبادة الأولى فى الإسلام - وجدت أداءها والأذان لها عملا عقليا بحتًا فالدعوة إلى الصلاة كلمات تقرع العقل وتوقظ القلب ؛ تكبير لله ، وشهادة بتوحيده ، وحث على الفلاح . وليست جرسًا يرسل رنينه فى الفضاء ويخاطب المشاعر المبهمة ، والصلاة نفسها آيات تتلى من كتاب جامع لعزائم الخير ودلائل الرشد ، ومدى قبولها مقرون بصحو الفكر فى إقامتها وتدبر العقل لمعانيها .

والحق أنه على قدرة ذكاء الشخص واستنارته واستقامة فطرتُه رسوخ قدمه فى الاسلام ، وهيهات أن يسبق فى هذا الدين بليد الرأى سقيم الوجدان .

إن أول ما نزل من آيات القرآن قول الله لنبيه :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(١)

وهذه أول صيحة تسمو بقدر القلم وتنوه بقيمة العلم وتعلن الحرب على الأمية الغافلة ، وتجعل اللبنة الأولى فى بناء كل رجل عظيم أن يقرأ وأن يتعلم . وسما الله عز وجل بدرجات العلماء حتى قرنهم بنفسه وملائكته فى الشهادة بوحدانيته والإقرار بعدالته : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٢)

ولا غرو . فأنى للعقول الكليلة والمعارف الضيقة أن تدرك جلال الكبير المتعال ؟ وأنى لمن يعيش على هامش الحياة - بجهله وظلمته - أن يعرف الحق عن رب الحياة ، أو يلمح طرفًا من صفاته العظمى وآياته الكبرى ؟؟

لذلك أعز الله العلماء وآثرهم بكرامته وفضله قال رسول الله : « يقول الله عز وجل للعلماء يوم القيامة ، إذا قعد على كرسيه للفصل بين العباد : إنى لم أجعل علمى وحلمى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبالى(٣) » .

---

(١) العلق ١ - ٥ (٢) آل عمران ١٨ (٣) الطبرانى

قال الحافظ المنذرى : أنظر إلى قوله سبحانه وتعالى « علمى وحلمى » وأمعن النظر فيه يتضح لك من إضافته إليه عز وجل ، أنه ليس المراد به علم أكثر أهل زماننا المجرد عن العلم به والإخلاص .

وفى عطف الحلم على العلم ما يشيرِ إلى أنه علم لم يستبد به النزق ولم تسخرْه الشهوات .

* * *

إن المعرفة الجيدة أسبق عند الله من العمل المضطرب ، ومن العبادة الجافة المشوبة بالجهل والقصور :

قال رسول الله : « فضل العلم خير من فضل العبادة(١) » وقال : « قليل العلم خير من كثير العبادة (٢) » . . وقال « أفضل العبادة الفقه(٣) » وقال رسول الله « يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة : ولأن تغدو فتعلم بابًا من العلم عُمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلى ألف ركعة(٤) » .

والسر فى هذا الحكم أن عبادة الجهال ـ كصداقتهم ـ قليلة الجدوى ، وهم يضرون أنفسهم من حيث يريدون نفعها ، ويؤذون أصدقاءهم من حيث يبغون راحتهم ، وجهلة العبَّاد يستمسكون بالدين استمساكا شديدًا ، ويتعصبون له تعصبًا ظاهرًا . ولكنهم فى ساعة رعونة وغباء يقفون منه الموقف الذى يلحق به الأذى والمعرّة ، ويجر عليه المتاعب الجمَّة ، أما أولو العلم فإن بصيرتهم الذكية تحكم مسلكهم وتلهمهم الرشد ، فلو قل عملهم كثر ما يصحبه من سداد وبصر .

ولذلك يقول رسول الله ﷺ : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد(٥) » .

ويقول : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلا(٦) » .

وروى عن رسول الله ﷺ : « فضل العالم على العابد سبعون درجة ، ما بين

(١) البزار (٢ و٣) الطبراني (٤) ابن ماجه (٥ و٦) الترمذى

كل درجتين حُضر الفرس سبعين عاما ، وذلك لأن الشيطان يبدع البدعة للناس فيبصرها العالم فينهى عنها . والعابد مقبل على عبادة ربه لا بتوجه لها ولا يعرفها[١] » .

وعجز هذا الحديث يشبه أن يكون مدرجًا من كلام الرواة تفسيرًا لما تضمنه الحديث من حكم .

ولما كان ضيق الأفق لا يدع للايمان امتدادًا ، ولا للاحسان منفذًا ، قال الله عز وجل : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾[٢] وبيّن أن الضمير الدافع إلى الخير ، الوازع عن الشر ، المراقب له ، الحريص على مرضاته ، هو ضمير العالم المستنير الخبير بربِّه . .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[٣]

* * *

والعلم الذى يُقبل المسلم عليه ، وتستفتح أبوابه بقوة ، ويرحل لطلبه من أقصى المشارق والمغارب ، ليس علمًا معينًا محدود البداية والنهاية ، فكل ما يوسع منادح النظر ، ويزيح السدود أمام العقل النهم إلى المزيد من العرفان ، وكل ما يوثق صلة الإنسان بالوجوه ، ويفتح له آمادًا أبعد من الكشف والإدراك . وكل ما يتيح له السيادة فى العالم ، والتحكم فى قواه ، والإفادة من ذخائره المكنونة . ذلك كله علم ينبغى التطلع له والتضلع فيه ، ويجب على المسلم أن يأخذ بسهم منه ، وهذا الشمول دلت عليه الآيات والسنن .

فأما الأحاديث المشيرة إلى التزود من المعارف أيًا كانت فكثيرة ، منها قول رسول الله ﷺ : « من سلك طريقًا التمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة[٤] » .

وقال : ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدى صاحبه إلى هدى أو يردُّه عن ردى ! وما استقام دينه حتى يستقيم عقله[٥] !» .

(١) الأصبهانى (٢) العنكبوت : ٤٣ (٣) الزمر ٩ (٤) مسلم (٥) الطبرانى

وقال : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق . ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها[١] » .

وقال :« إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض ، حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى جوف البحر ليصلون على معلم الناس الخير[٢] » .

فالسياق فى هذه السنن يوجه إلى أى علم يطلب : تعلم الخير ، الحكمة ، ما يقى من الضرر ، ما يقرب من النفع . وتخصيص العلم بلون معين من الثقافة كتخصيص المال بنوع معين من الأملاك لا وجه له . ولاشك أن فى طليعة ما تجب معرفته حق الله على الناس ، وحق الناس بعضهم على بعض . فإن هداية السلوك إلى الصالح العام كبيرة الأثر فى تنظيم الجماعات وتوجيه السياسات لكن من الخطل أن نظن العلم المحمود هو دراسة الفقه والتفسير وما شابه ذلك من الفنون فحسب . وأما ما وراءها فهو نافلة يؤديها من شاء تطوعا أو يتركها وليس عليه من حرج ..!!

هذا خطأ كبير ، فإن علوم الكون والحياة ، ونتائج البحث المتواصل فى ملكوت السماء والأرض لا تقل خطرًا عن علوم الدين المحضة ، بل قد يرتبط بها من النتائج ما يجعل معرفتها أولى بالتقديم من الاستبحار فى علوم الشريعة .

وحسبنا أن القرآن الكريم عندما نوه بفضل العلم وجلال العلماء إنما عنى العلماء الذين يعرفون عظمة الخالق من عظمة الخلق ، وإنما عنى العلم الذى ينشأ من النظر فى النبات والحيوان وشئون الطبيعة الأخرى .

قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[٣]

---

(١) البخارى (٢) الترمذى (٣) فاطر ٢٧ ، ٢٨

وقال : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ (١)

إن علوم الحياة مساوية لعلوم الآخرة فى خدمة الدين وتجلية حقائقه ، غاية ما هنالك أن علوم الطبيعة تحتاج دراسات أطول . أما العلم بالدين فميسور لمن أخلص له أيامًا معدودات . وإذا كان التوسع فى فروع الشريعة يحتاج مددًا فسيحة . فهذا التوسع وظيفة اجتماعية كسائر الوظائف التى تستكثر منها الدولة أو تستقل وفق المصلحة التى تنجح رسالتها العليا وليست دراسة الحقوق والقضاء أشرف فى ذاتها من دراسة الطب مثلا . ولو بلغ صاحبها مبلغ أبى حنيفة ، وإنما يرجح الرجل صاحبه فى علمه بمقدار ما يسخر هذا العلم لنفع الناس ابتغاء وجه الله ، وانتظار ما لديه من مثوبة . .

* * *

إن الحاجز رقيق جدًا بين ما هو دين محض وما هو دنيا محضة والمرجع - كما أسلفنا البيانَ - إلى سلامة القصد ونبل الغاية ، فالشىء الواحد قد يكون فاحشة كبيرة بما يلابسه من هوى ، وقد يكون جهادًا مبرورًا بما يصاحبه من إخلاص .

والناس قد يقرأون قوله تعالى : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (٢) فينظرون إلى المال والبنين على أنهما انتفاع فحسب ! وما درَوْا أن المال والبنين هما امداد الجهاد المفروض ، وأن تثمير الأموال وتكثير الأولاد قد جعلهما الله عُدة النصر للأمم التى غلبت على أمرها حينًا ، ثم أمكنها أن تستعيد مجدها المفقود ، بم ؟ وكيف ؟ .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ (٣)

فبالمال والبنين امتدت هذه الأمة بعد انكماش وتقدمت بعد تقهقر ، واستعادت رضا الله بعد ما فقدته .

---

(١) الروم ٢٢ (٢) الكهف ٤٦ (٣) الإسراء ٦

والقول كذلك فى دائرة العلم ، فلو اشتغل رجل بعلوم السماد يبتغى إخصاب أرض الله ما نقصه أجره ذرة ؛ بل لعله يزيد على رجل صف قدميه فى المحراب وأخذ يحيى الليل فى الصلاة .!!

إن الإسلام ارتفع بمنازل العلماء وقدر جهودهم ، وكرم نمارهم إلى حد بعيد :

عن معاذ بن جبل : « تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، لأن معالم الحلال والحرام ومنار سبل أهل الجنة ، وهو الأنيس فى الوحشة ، والصاحب فى الغربة ، والمحدث فى الخلوة ؛ والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الأخلاء ، يرفع الله به أقواماً ، فيجعلهم فى الخير قادة وأئمة تقتصُّ آثارهم ويقتدى بفعالهم وينتهى إلى رأيهم ، ترغب الملائكة فى خُلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، ويستغفر لهم كل رطب ويابس ، وحيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، لأن العلم حياة القلوب من الجهل ، ومصابيح الأبصار فى الظُّلَم يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار ، والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة ، التفكير فيه يعدل الصيام ، ومدارسته تعدل القيام ، به توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال من الحرام ، وهو إمام العمل تابعه يُلهمهُ السعداء ويحرمهُ الأشقياء[١] » .

* * *

وتعلم اللغات الأخرى من سنن الاسلام ، وقد سبق رسول الله صلى عليه وسلم إلى الانتفاع بهذا العلم فأمر كاتبه « زيد بن ثابت » بإجادة السريانية . قال زيد : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعلمت له كتاب يهودى بالسريانية . وقال : إنى والله ما آمنُ يهودَ على كتابى ! قال زيد : فوالله ما مر بى نصف شهر حتى تعلمته وجُدت فيه ، فكنت أكتب له إليهم ، وأقرأ له كتبهم إليه[٢] .

وفهم لغات الشعوب يُعدُّ من ضرورات الإسلام ، فإن رسالة محمد ﷺ إلى

(١) ابن عبدالبر (٢) البخارى

الناس قاطبة ، وجمع الناس على لسان واحد مستحيل . كيف ؟ واختلاف الألسنة من آيات الله ؟ فنقل تعاليم الإسلام إلى أمم الأرض بالألسنة التى يفهمون ، أقرب إلى العقل والواقع من نقل أجناس البشر إلى لسان العرب .

وقد قال المفسرون فى شرح قوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (١)

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث من العرب وبلسانهم . ولكنه يرسل مبعوثيه إلى الأطراف فيترجمون بألسنتهم ، ويدعونهم إلى الله بلغاتهم !! وقالوا : إما أن ينزل القرآن بجميع الألسنة ، أو بواحد منها ، ولا حاجة لنزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل ، فتعين أن ينزل بلسان واحد ، فكان لسان قومه أولى بالتعيين لأنهم إليه أقرب ، ولأن التحريف عنه أبعد .

وهذا الكلام قاطع فى أن المسلمين يجب أن يتعلموا اللغات الأخرى وإلا خانوا الرسالة التى حملوها ، وجهلوا الناس عمداً بها ؛ ثم إن العلم ليس له وطن خاص ، ولا ينفرد به جيل بعينه ، ولو نقلنا البصر فى مصادر المعرفة التى عمت العالم قديماً وحديثاً لوجدنا منابع العلم كالسحب السيارة فى الفضاء ، لا تحتبس فى أفق ولا يحتكرها قطر ، وكم من أمة عالمة أعقبت جهالا ، وكم من أسلاف جهال نسلوا المهرة الحاذقين وقد كانت (أوربا) قبل بضعة قرون تغصُّ بالصم البكم الذين لا يعون شيئاً ، وهى الآن تهيمن على ورَّاث الحضارات القديمة !! والمسلم مكلف بارتياد المواطن القصية لنيل العلم من أى يد ، ومن أى بلد .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لن يشبع مؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة (٢) » .

وقال : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها (٣) » .

---

(١) إبراهيم ٤ (٢ و ٣) الترمذى .

وقال : « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع[١] » .

* * *

إن التعلم والتعليم روح الإسلام ، لا بقاء لجوهره ولا كفالة لمستقبله إلا بهما ، والناس فى نظر الإسلام أحد رجلين : إما متعلم يطلب الرشد ، وإما عالم يطلب المزيد ، وليس بعد ذلك مَنْ يُؤْبه له . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العالم والمتعلم شريكان فى الخير ، ولا خير فى سائر الناس[٢] » .

الانتفاع بالوقت والاتعاظ بالزمن

كل مفقود عسى أن تسترجعه ، إلا الوقت ، فهو إن ضاع لم يتعلق بعودته أمل ، ولذلك كان الوقت أنفس ما يملكه إنسان ، وكان على العاقل أن يستقبل أيامه استقبال الضنين للثروة الرائعة ، لا يفرط فى قليلها بله كثيرها ، ويجتهد أن يضع كل شيء ، مهما ضؤل ، موضعه اللائق به .

عندما يحس أحدنا أنه موجود ، ويلقى نظرة وراءه يتبين بها اللحظة التى بدأ منها المسير فى هذه الحياة ، ليحصى ما مر به من أيام وأعوام ، لن يطول به فكر ، لأنه لا يرى إلا بداية غامضة ، ثم تتجمع السنون الطوال والليالى العراض فإذا هى وكأنها يوم واحد مائع الطول والعرض متلاحق الأحداث .

إن هذا ما يستشعره الانسان الآن ، وما قد يستشعره يوم القيامة عندما يوقف للحساب :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [٣]

﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [٤]

---

(١) الترمذى (٢) ابن ماجه (٣) يونس : ٤٥ (٤) طه : ١٠٣ ، ١٠٤

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ (١)

إن هذا الاحساس - على ما به - يلذع الذين توهموا الخلود فى الأرض وربطوا مصيرهم بترابها ، وهو إحساس صادق إذا قيست أيام الدنيا بأيام الآخرة . ولكنه إحساس مخدوع مضلل لمن مرت به الأصباح والأمسية وكرَّت عليه الشهور والدهور ، وغدا وراح ، وتعب واستراح . ومع ذلك فهو فى غفلة عن يومه وغده . ظل يعبث ويسترسل فى عبثه حتى إذا استرخت أجفانه على عينيه ، ودخل ظلام الموت ، تيقظ بعنف ! وهيهات !! لقد صحا بعد فوات الوقت . .

إن شأن الناس فى الدنيا غريب يلهون والقدر معهم جاد ، وينسوْن وكل ذرة من أعمالهم محسوبة .

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢)

إن المسلم الحق يغالى بالوقت مغالاة شديدة ، لأن الوقت عمره ، فإذا سمح بضياعه ، وترك العوادى تنهبه فهو ينتحر بهذا المسلك الطائش .

ان الإنسان ليسير حثيثاً إلى الله . وكل دورة للفلك تتمخض عن صباح جديد ليست إلا مرحلة من مراحل الطريق الذى لا توقف فيه أبداً . أفليس من العقل أن يدرك المرء هذه الحقيقة وأن يجعلها نصب عينيه وهو يستبين ما وراءه وما أمامه ؟ ، من الخدع أن يحسب المرء نفسه واقفاً والزمن يسير ! إنه خداع النظر حين يخيل لراكب القطار أن الأشياء تجرى وهو جالس . والواقع أن الزمن يسير بالإنسان نفسه إلى مصيره العتيد .

* * *

والإسلام دين يعرف قيمة الوقت ، ويقدر خطورة الزمن ، يؤكد الحكمة

---

(١) النازعات ٤٦ (٢) المجادلة ٦

الغالية : « الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك » . ويجعل من دلائل الإيمان وأمارات التقى أن يعى المسلم هذه الحقيقة ويسير على هداها :

﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ (١)

ويعتبر الذاهلين عن غدهم ، الغارقين فى حاضرهم ، المسحورين ببريق الدار العاجلة ، قوماً خاسرين سفهاء :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (٢)

وقد وزع الإسلام عباداته الكبرى على أجزاء اليوم وفصول العام ، فالصلوات الخمس تكتنف اليوم كله ، وأوقاتها تطرد مع سيره . والمقرر فى الشريعة أن « جبريل » نزل من عند الله ليرسم أوائل الأوقات وأواخرها ليكون من ذلك نظام محكم دقيق يرتب الحياة الإسلامية ويقيسها بالدقائق من مطلع الفجر إلى مغيب الشفق :

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ (٣)

إن النظر القاصر يعرف من الزمن آثاره المحدودة . ومظاهره المحسوسة فهو يقول :

أشاب الصغير وأفنى الكبير كرُّ الغداة ومرُّ العشىّ

ويقول :

يسرُّ المرء ما ذهب الليالى ... وكان ذهابهن له ذهابا

لكن الزمن الذى يغضّن(٤) الجباه ويطوى الآجال ويفنى الحضارات ويقف

(١) يونس ٦ (٢) يونس ٧ و ٨ (٣) الروم ١٧ - ١٨

(٤) يجعل فيها الغضون من الكبر .

الناس مشدوهين بإزاء عجائبه . هذا الزمن نفسه هو فرصة لأيقاظ الأذكياء لفعل الخير وإسداء المعروف وادخار ما يجدى .

قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (١)

فالليل يخلف النهار ويخلفه النهار مع حركات الأفلاك الدائرة السائرة ، ورب العالمين لم يخلق ذلك عبثاً ، وقبيح بالناس أن يظنوا محياهم فى هذا الوجود الرتيب سدى ، إنه الميدان الذى أعدّ للسباق الطويل ، السباق الذى لا يتقدم فيه إلا من يعرف ربّه ويذكر حقه ، ويشكر نعمه ، ومن يجعل من تواصل السنين تواصل دأب ونصب لإحراز الراحة الكبرى .

أما الذاهلون عن هذه المعانى ، الهائمون وراء منافعهم المعجلة ، فهم حمقى لا ينتصحون من حكمة ، ولا يستفيدون من درس .

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٢)

إن عمرك رأس مالك الضخم ، ولسوف تسأل عن إنفاقك منه ، وتصرفك فيه . قال رسول الله ﷺ : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع . عن عمره فيم أفناه ؟ وعن شبابه فيم أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن عمله ماذا عمل فيه(٣) » .

والإسلام نظر إلى قيمة الوقت فى كثير من أوامره ونواهيه . فعندما جعل الإعراض عن اللغو من معالم الإيمان ، كان حكيما فى محاربة طوائف المتبطلين الذين ينادى بعضهم بعضاً : تعال نقتل الوقت بشىء من التسلية !! وما درى الحمقى أن هذا لعب بالعمر ، وأن قتل الوقت على هذا النحو إهلاك للفرد ، وإضاعة للجماعة .

---

(١) الفرقان ٦١ ، ٦٢ (٢) التوبة ١٢٦ (٣) الترمذى

ومن الحكم التى تغيب عن بال الجماهير : « الواجبات أكثر من الأوقات » ، « الزمن لا يقف محايداً ، فهو إما صديق ودود ، أو عدوٌّ لدود » .

ومن كلمات الحسن البصرى : « ما من يوم ينشق فجره إلا نادى مناد من قبل الحق : يا ابن آدم ، أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزود منى بعمل صالح فإنى لا أعود إلى يوم القيامة » .

وهذه الحكم تنبع من روح الإسلام ومن تفقه تعاليمه العظيمة فى الإفادة من الحياة الأولى للحياة الكبرى . وإنه لمن فضل الله ودلائل توفيقه أن يلهم الرجل استغلال كل ساعة من عمره فى العمل ، أو الاستجمام من جهد استعداداً لجهد آخر .

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١)

ومن المؤسف أن العوام لا يبالون بإضاعة أوقاتهم سدى ، ويضمون إلى هذه الجريمة السطو على أوقات غيرهم لإراقتها على التراب ، وإنهم ليقتحمون على رجال الأعمال خلواتهم الجادَّة ليشغلوهم بالشئون التافهة .

وصدق رسول الله ﷺ « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ(٢) » .

ومن استغلال الإسلام للوقت بأفضل الوسائل حثه على مداومة العمل وإن كان قليلا وكراهيته للكثير المنقطع . وذلك أن استدامة العمل القليل مع اطراد الزمن وسيره الموصول يجعل من التافه الضئيل زنة الجبال من حيث لا يشعر المرء .

أما أن تهيج بالإنسان رغبة سريعة فتدفعه إلى الإكثار والإسراف ، ثم تغلب عليه السآمة فينقطع ، فهذا ما يكرهه الاسلام :

وفى الحديث : « يأيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله تعالى لا يملُّ حتى تملوا ، وإن أحب الأعمال إلى الله مادام وإن قل(٣) » .

---

(١) القصص : ٧٣ (٢) البخارى ومسلم (٣) البخارى

وفى رواية : « سددوا ، وقاربوا ، واغدوا ، وروحوا ، وشيئاً من الدلجة . والقصد القصد تبلغوا(١) » . وعن عائشة : دخل علىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندى امرأة من بنى أسد ، فقال : من هذه ؟ قلت : فلانة ، لا تنام الليل . فقال : مهْ ، عليكم من الأعمال ما تطيقون ، وكان أحب الدين إليه مادام عليه صاحبه(٢) » .

ومن محافظة الإسلام على الوقت حثه على التبكير ، ورغبته فى أن يبدأ المسلم أعمال يومه نشيطاً طيب النفس مكتمل العزم ، فإن الحرص على الانتفاع من أول اليوم يستتبع الرغبة القوية فى ألا يضيع سائره سدى .

ونظام الحياة الإسلامية يجعل ابتداء اليوم من الفجر ويفترض اليقظة الكاملة قبل طلوع الشمس ويكره السهر الذى يؤخر صلاة الصبح عن وقتها المسنون . وفى الحديث : « اللهم بارك لامتى فى بكورها(٣) » .

وإنه لمن الغفلة والحرمان أن يألف أقوام النوم حتى الضحى ، فتطلع عليهم الشمس وهم يغطون ، على حين تطلع على آخرين وهم منهمكون فى وسائل معاشهم ومصالح معادهم وروى عن فاطمة بنت محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ قالت : مرّ بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجعة متصبحة . فحركنى برجله ، ثم قال : « يا بنية قومى اشهدى رزق ربك ولا تكونى من الغافلين . فإن الله يقسم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس(٤) » .

إذ أن الجادين والكسالى يتمَيزون فى هذا الوقت ، فيعطى كل امرىء حسب استعداده ، من خير الدنيا والآخرة .

* * *

وكما أن الزمن يستغرق التكاليف التى نيطتْ بأعناق العباد ، فهو يستوعب الأقضية التى يرسلها الله على الناس من خير وشر ، وهى أقضية تفيض بالعظات الحقة ، والدروس القيمة لمن يلقى اليها باله :

---

(١) مسلم (٢) مسلم (٣) أبو داود (٤) البيهقى

القيمة لمن يلقى إليها باله :

﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ (١)

والناس ينظرون إلى الأحداث ويـذهلون عـن مـرسلها ، ويـذوقون السراء والضراء ، ويجهلون من يذيقهم طعومهما ، فإذا ضاقوا ذرعاً بـأمر مـا ، لعنـوا الأيام وما تفد به ، وهذا ضرب من الجهل بالله ، والغفلة عن أقداره فى عباده .

قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجـل : يـؤذينى ابـن آدم . يسـب الدهر . وأنا الدهر بيدى الأمر ، أقلب الليـل والنهـار(٢) » . يعنـى أن الـزمن لا يصنع بالناس خيراً ولا شرا مما يفرح الناس به أو يحـزنون لـه . وإنمـا يسـوق ذلك رب الزمان والمكان :

﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ (٣)

والله سبحانه وتعالى : لا يسوق الأحـوال المختلفـة على النـاس إلا لحـكم يتدبرها العارفون فيزدادون بالله إيمانا وبلقائه يقيناً :

﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴾ (٤)

والسفهاء من الناس تمر بهم الأحوال الحسنة والسيئة فـلا يسـتفيدون مـن اختلافها شيئاً وفى الحديث : « . . إن المنافق إذا مرض ثم أعفى كان كالبعير ، عقله أهله ثم أرسلوه ، فلم يدر لم عقلوه ؟ ولم يدر لم أرسلوه(٥) » .

أجل فليس بمؤمن من لم تهذبه التجارب وتقومه الأيام . وهل تعتـرض الآلام الناس إلا ليتعلم بها الجاهل ويصحو الذاهل ويتوب إلى الله من نأى عنه ؟

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ۞ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ (٦)

وطبيعة البشر أن يعرفوا ربهم ساعة الشدة ، وأن يلجأوا إليه عنـدما تسـتحكم أزماتهم ، والرجل ذو اللب إن أصابته ضائقة فعطفته على الله ، يجب أن يستبقى

---

(١) النور . ٤٤ (٢) أبو داود (٣) الأنبياء . ٣٥

(٤) الرعد . ٢ (٥) أبو داود (٦) الأنعام . ٤٢ ، ٤٣

صلته بربه قوية فتية بعدما تزول ضائقته وتستجد العافية ، فإن من الخسة جحد فضل الله - مظنة الاستغناء عنه - !!

أما المسرفون الذين يجهلون القيم ويقل اكتراثهم لما يصابون به واتعاظهم بالحوادث المختلفة فهم وقت الخطر يجأرون لله ، والأمن يفرون منه !

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (١)

وهذه سيرة طائشة لا يليق أن يسلكها امرؤ نبيل مع ولى نعمته .

* * *

ومن الاتعاظ بالزمن دراسة التاريخ العام ، وتتبع آيات الله فى الإفاق وتدبر أحوال الأمم : كيف تقوم وكيف تنهار ؟ وكيف تنقلب بين ازدهار وانحدار ؟ والله عز وجل يطلب من الناس أن يلتفتوا إلى هذه الأدوار المتعاقبة ، وأن يكون لهم وعى حصيف يوجههم إلى الانتفاع بها .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (٢)

فالرجل بين حالتين : إما أن تكون له تجارب خاصة يستغلها فى تصحيح أفكاره وتدعيم إيمانه ، وإما أن يكون لا علم له ، فليستمع من غيره ، وليستفد من معارف الآخرين ، وتجاربهم ، أما فتح الأعين على الدنيا المائجة بالأحداث الهائلة دون تفكر أو فقه أو اعتبار فهذا هو العمى والظلام ، وهذا ما لا يليق بمؤمن .

إن العمر قصير ، والحاضر الذى يحيا الإنسان فى نطاقه ضيق ، والعقل لا يستمد كيانه وتألقه ونفاذه من وراء الانكماش والتصور ، بل لابد أن يتعدى مكانه إلى رحاب الملكوت الواسعة ، وزمانه إلى عصور الحياة المتطاولة . .

(١) يونس . ١٢ (٢) الحج . ٤٦

ومن التطواف الممحص هنا وهناك يعود بثروة طائلة من الأفكار والقصص ، والآراء والوقائع ، تزيد خبرته بالعالم ، وتزيد معرفته برب العالمين ، والإسلام يبنى الإيمان الراسخ على هذه الدعائم المكينة من التروى ، والتأمل ، والبحث والتنقيب .

من أجل ذلك ندب أبناءه للرحلات الطويلة والسياحات الواسعة ، وحبب إليهم الضرب فى مشارق الأرض ومغاربها ، لا للهو واللعب ، ولكن للعلم والإفادة ، لا للتسلية وتزجية الفراغ ، بل للبحث والدرس واستقصاء العبر عن الأحياء والهامدين .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١)

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ (٢)

وكذلك يدعو القرآن الكريم إلى دراسة الحضارات البائدة وعلل فنائها ، حتى يتجنب الأخلاف مواطن الزلل التى هوت بالأولين ، وكم تكشف مطالعة التواريخ من غرائب :

والليالى من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيب !

* * *

إن الزمن آية يعجز العقول كنهها ، وما نعرفه إلا بما يخلفه فى المادة من آثار ، ولعل سر الخلود والفناء مطوىٌّ فيه ، لا يعرفه إلا المحيط بظواهره وخوافيه :

« وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون ، وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون » .

والذى يجب أن نعقله . أن حياتنا هذه ليست سدى ! وأن الله أجل من أن يجعلها كذلك .

وإذا انتفعنا بمرور الزمن على خير وجه ، سجلنا لأنفسنا خلوداً لا يناوشه الزمن بهرم ولا بلى . . عند الرفيق الأعلى .

---

(١) آل عمران ١٣٧ ، ١٣٨ (٢) غافر . ٢١

ختـــام

لم أستقص فى هذا الكتاب عناصر الخلق النبيل ، ومعالم السلوك الطيب ، التى يجب أن تتوافر فى المسلم ، واكتفيت هنا بذكر ماتيسرت لى كتابته بعد مطالعات يسيرة فى مراجع الإسلام الأولى واستغنيت عن تكرار ما سبق لى الكلام فيه من فضائل أخرى يجب أن يتحلى المسلم بها .

فالعمل الدائب ـ تحصيلا للمعاش وقياماً بحق الحياة ـ خلق أشبعت الكلام فيه ، عند البحث فى المال ووسائل كسبه وإنفاقه[١] .

وجهاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد بالقوى المختلفة لإعلاء كلمة الله ، أخلاق أطلت شرحها عند الحديث عن سياسة الإسلام فى الداخل والخارج[٢] .

وكذلك فضائل التعاون ، وإكرام الجيرة والضيفان ، وإسداء المنافع والطمأنينة لكل إنسان . .

وذكر الله ، والمتاب إليه ، والإقلاع عن الخطأ ، وإحسان العبادة ، وإصلاح العمل ، سجايا حسنة ، وصلتها بالعقيدة ، وتحدثت عنها فى موضعها[٣] .

والتدرج إلى بحوث الخلق عند معالجة أى موضوع إسلامى ليس استطراداً ، فإن الأخلاق لحمة الإسلام وسداه ، وليست إطاراً يصون حدوده ومنتهاه .

فليكن هذا الكتاب ضميمة إلى إخوته فى الدعوة إلى الخير والبر ، والله الموفق والمستعان .

---

(١) راجع كتبنا « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » و « الإسلام والمناهج الاشتراكية » و « الإسلام المفترى عليه » .

(٢) الإسلام والاستبداد السياسى « وكفاح دين » (٣) عقيدة المسلم

فهــــرس

للمؤلـــف

١ — الإسلام والأوضاع الاقتصادية

٢ — الإسلام والمناهج الاشتراكية

٣ — الإسلام والاستبداد السياسى

٤ — الإسلام المفترى عليه (بين الشيوعيين والرأسماليين)

٥ — تأملات فى الدين والحياة

٦ — من هنا نعلم . .

٧ — عقيدة المسلم

٨ — خلق المسلم

٩ — فقه السيرة

١٠ — فى موكب الدعوة

١١ — من معالم الحق

١٢ — ليس من الاسلام . .

١٣ — كيف نفهم الإسلام ؟

١٤ — جدد حياتك . .

١٥ — التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام

١٦ — الاستعمار أحقاد وأطماع

١٧ — ظلام من الغرب

١٨ — كفاح دين . .

١٩ — نظرات فى القرآن

٢٠ — مع الله . . دراسات فى الدعوة والدعاة

٢١ — الإسلام والطاقات المعطلة

٢٢ — دفاع عن العقيدة والشريعة (ضد مطاعن المستشرقين)

رقم الايداع بدار الكتب

١٦٣٥ / ٨٨

مطابع مؤسسة أخبار اليوم
القاهرة